

كولن ولسون

راسبوتين وسقوط القيامة

ترجمة: مالك فاضل البديري



الكتاب
القديم

الكتاب
القديم

كولن ولسون

راسبوتين وسقوط القيامة

ترجمة: مائل فاخيل البديري



مكتبة المجتمع العلمي
الطبعة الأولى
١٩٩٤م - ١٤١٤هـ



الكتاب والنشر
الطبعة الأولى
١٩٩٤م - ١٤١٤هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الترجمة

يزعت اسطورة راسبوتين مع قيام الثورة البلشفية عام ١٩١٧. فقد عاد (ايليدور) حشيت الحظي الى روسيا وطبع كتابه (الشیطان المقدس). وفيه وصف راسبوتين بالسكير المحتال الذي غلبت سطوته الشرايين المستيرية والقبصر الضعيف. ثم أصدر (جارلس اوميا) كتابه عام ١٩١٨ الذي هو معلومات مختلفة من ألفها الى يائها وفيه يقول أنه تلقى شخصاً مقرباً لراسبوتين أعطاه جميع التفاصيل السرية للمغامرات الشيقة لهذا الدون جوان الصوفي الفظ والذي قال فيه أحد المرضى العصائين أنه تواق ليغدو مازارين (وهو الكاردينال جول مازارين، رجل دولة فرنسي ١٦٠٢-١٦٦١) له الفضل في إنهاء حرب الثلاثين عاماً والحصول على مقاطعة (الفروند) وفرض معاهدة بيرينيه على اسبانيا). ان عبط الشيقة في كتاب اوميا قد جاءت في الفصل الثالث منه وفيه يقول أن عاشق الشرايين الأمير أو قد تلقى أسراً من جون من الكروستاتد بمغادرة البلاد ثم وجد بعدئذ مبيتاً في فندق القاهرة. وأعمال كهذه هي التي سبب لخلق اسطورة راسبوتين. وكثير من رموز التاريخ الحديث قد طلتها أسطورتها وغير من لنا فيه أية (تي. إي. لورنس).

وفي بريطانيا والولايات المتحدة، تصفد قائمة المجرمين (سيد العموض) ويليام لي كوكس الذي أعاد في استغلاله شخصية راسبوتين وأصدر بعد مقتله ثلاثة كتب في ثلاث سنوات أفضلها انتظر الى ما يمكن أن نسميه به (الحقيقة). ثم أثر أن يشيع رغبة العالم المتعطشة لمعرفة شيء عن راسبوتين فأصدر رواية أسمها به (الراسبوتينية في لندن) وهي عرض لحركة شهوانية ابتداعها راسبوتين.

وقد كتب (الدوس هكنلي) - وهو أحد أعضاء الكونغرس الأمريكي - بعد قراءته كتاب (قولوب ميلر) الموسم به (الشیطان المقدس) مقالة قارن فيها بطريقة مستهجنة بين القديس (فرانسيس) من آسيا وبين راسبوتين. وفيها يقول: «إن راسبوتين قد نهج في أفعاله ما تتأدى به المبادئ الخليسية المرتبطة بالوصية السابعة». يند أن راسبوتين انتظر لعزة النفس التي جعلت من فرانسيس شديد التمسك بمبادئه المسيحية فتأى بنفسه (أي فرانسيس) عن قول أنه فاعل ما لا يفعله سواء البشر ودعا لذلك للنجاة عن طريق الخطيئة.

إن السؤال الأكثر إلحاحاً عن راسبوتين هو السؤال الذي لا يستطيع أحد الجواب عليه. فهو انتهاء للتاريخ الروسي الذي يمنح امتداداً للمعامل بعض الشرعية. فذلك خارجي حيث قد أدرك مرة أن أغلب الرجال يفتقرون للمصير لأنهم يفتقرون للحقيقة العميقة فيأثروا عرشه لقوانين الصدفة. والآنسان بحاجة لمجهود جبار كي يطور جوهر ما سيكون مصيره. ويقراءنا مسيرة حياة راسبوتين ندرك أنه امتلك ذلك الجوهر فيما وقع القصر وعائلته ضحية لقوانين الصدفة.

إن ما نسميه اليوم به (ثورة أكتوبر) هي احتلاء البلاشفة منصة الحكم بعد

أن طردوا منها الرومانوفيين. فالأمر إذاً ليس إلا تغييراً في الوجوه. فالثورة الفعلية قد تمت بطورها منذ أصدر متولين مرسوم (الأرض) عام ١٩٠٦ وسواء ظل ليقولاً في عرشه أم ولاه كانت شروط الموسم متكتم بحلول عام ١٩٢٠. وكما يقول شارك: «لم يكن للبلاشفة دوراً في إسقاط القيصرية» ويقول «بالانيسا: «إن تغيير الحكم هو أن تغير ربطة عنق الرجل الذي تنف لك جيبيك». لقد وجد الشعب الروسي الشمن على حسابه أن غير ليقولاً به (سالبين). فالثورة لم تكن وجهاً جديداً لسفر التاريخ الروسي بل وصلة مشمرة للثلاثمائة سنة علت.

أسأل الله أن أكون قد وفقت في عملي الترجمي لرواية وجدتها تستحق للنقل للقاريء العربي لما احتوته بين سطورها من غزارة معلومة فكرية وتاريخية وأدبية. . .

والله ولي التوفيق.

المترجم

مالك فاضل البديري

ابطال الكتاب

برنفس اندرووليكوف: متآمر شاذ جنسيا أصبح لفترة وجيزة ضابط العلاقات العامة لراسيوتين.

بارنايا أو قازانكا: رفيق راسيوتين في شبابه، أصبح بعدها اسقفا لثوبولسك.

براينسكي: رئيس الشرطة تحت امرة هفومستوف (ابن الأخ)

اليزايت: الغرائدوقة وهي شقيقة - التزارينا-

كلياريد: معلم التزافيش

الكولوقوتين: الام واليت كن تلميذات لراسيوتين

كوسميكن: رجعي تافه أصبح رئيسا للوزراء مرتين

كوشكوف: رئيس سابق للدوما كانت التزارينا تبغضه

هيمسوجن: اسقف ساراتوف وهو احد اعداء راسيوتين في البداية ثم أصبح فيما بعد عدوه اللدود.

هفومستوف: (ابن الأخ): المتعلق، الذليل لراسيوتين أصبح بعدها وزيرا للداخلية

ابليودور: قسا أصبح لاحقا الد اعداء راسيوتين

جون من الكونستانت: قس مقدس وهو أحد أحرار راسبوتين في بداية حياته في بطرسبورغ.

كريبسكي: عضو يساري في الدوما أصبح بعدها قائدا للحكومة بعد الثورة في آذار ١٩١٧.

كوكوفيسيف: وزير المالية أصبح بعدها رئيسا للوزراء وهو عدوا لراسبوتين.

اولغا لوكشين: تلميذة راسبوتين عرفت لتعليمها اياه القراءة والكتابة.

ماناسيفش ماتيلوف: مبتز وعميل سري وهو مستشار راسبوتين في اعماله.

المونتكريات: الفراندوقة ميليشا واناسازيا (واناسازيا هي ستانا ولا يجب خلطها مع الابنة الصغرى التزار): ومن المسؤولات عن احضار راسبوتين للمدينة القديس بطرسبورغ.

ادميرال نيلوف: موظف في البلاط وهو صديق لراسبوتين.

الفراندوق نيقولا: زوج اناسازيا (اقرأ الصفحات الخاصة بالمونتكريات) واصبح لاحقا القائد الأهل للقوات المسلحة في الجيش وهو عدو لراسبوتين.

الفراندوق بيتر: زوج ميليشا.

الطبيب فيليب (وكنيته ساخوت من نيزير): وهو امعه جلبه ميليشا لمدينة بطرسبورغ.

بلهيف: رئيس الشرطة ووزير الداخلية.

بوليانوف: وزير للحرب بعد طرد سوخومالينوف.

بروتوبوف: شخص تافه جعله راسبوتين وزيرا للداخلية.

بوريشكفيس: عضو يساري في الدوما وهو عدو راسبوتين وقاتله في النهاية.

ساريا راسبوتين: ابنة راسبوتين مولودة في عام ١٨٩٨.

روزيانكو: رئيس الدوما وهو الد أعداء راسبوتين.

الفراندوق سيرجيسوس: محافظ قانس لموسكو وهو زوج اليزابيث قتل بقتلة.

سيمانوفيش: مدير اعمال راسبوتين ومكترية.

سترومر: متآمر رجعي أصبح لاحقا رئيسا للوزراء بفضل راسبوتين وماتيلوف.

سوخومالينوف: وزير الحرب طرد من منصبه عام ١٩١٥ لعدم كفاءته.

الأسقف يتوفان: أحد أحرار راسبوتين في البداية.

التزار: نيقولا الثاني.

التزارينا: اليكسندرا وهي الابنة المولدة وحفيذة الملكة فكتوريا، واليكسا سابقة لبيس - دارماستادت.

التزارفيسش: اليكسر (ويختصر اسمه عادة لايكسي) ابن التزار وزوجته ولد في آب من عام ١٩٠٤ واعتيل في تموز من عام ١٩١٨ وقد كان يعاني من نزف الدم الوراثي.

(أولغا، تاتيانا، ماري، اناسازيا) بناتها. ومن ذوقات عظيمة.

أنا فيروبو: موضع ثقة واعتزاز التزارينا منذ عام ١٩٠٥.

ميرجيموسو: أول رئيس للوزراء أصبح لاحقاً صديقاً لراسبوتين.

برنس هوسبوف: شاب ثري لعوب وهو قاتل لراسبوتين.

تمهيد

عجزت أغلب رموز التاريخ الحديث أن تثير عن شخصها هذا الكم المائل من الأدب الحسي واللاواعي كما أثاره كريكوري راسبوتين. لقد كتب عنه أكثر من مائة كتاب ولكنها لم تزل جميعاً إلى مستوى القبول كعرض سليم لشخصيته.

يقول السيد الن مورفين في إحدى كتاباته: لقد تعرض كريكوري بيموسو راسبوتين للتشويه واللاتقييم في الأربعين سنة التي تلت وفاته حتى باتت الأحاسيس به كما ينبغي أمراً سيئاً وهو نظير التشويه الذي تعرض له رينشارد إنجلترا الثالث وقبصر بوركيا الإيطالي. فلقد عد شريراً بل هو الخلاصة الخالصة للوقاحة ونسيت إليه حيلة (اياكو) وقسوة (كالبان). ليس فيه من حسنات الحصال شيئاً فكان قليل الاختصال كرهه الراقصة وإذا ما جلس أمام المائدة تجده وقد غطس يديه في طبق حساء السمك المقفل لديه. كان كثيراً ما عليه السكر لحظم الذي أمامه، بلدي اللسان حاجناً وقسوة ببربراً حوله إلى وحش كاسر أكثر منه إنساناً. يقول وودزيانكو - أحد أحيان (دوما) - في جعبتي كم كبير لرسائل أرسلتها أمهات قتيات تعرض لهنك العرض على يد هذا الساقط الصلف.

إن السيد مورفيد كاتب تاريخي واقعي غير متحيز لكنه هنا وبعد اعترافه بأن راسبوتين الحقيقي قد أخفته أسطوره بين جوانبها، يعمل على إعادة تنظيم عناصر هذه الاسطورة. فليس من رواية غير قابلة للنقاش: لقد أورد بعض الكتاب تنغف راسبوتين بالخيام البخاري فليس من المعقول إذا ان يكون كرهه الراقصة. أما وصفه راسبوتين غاطساً يديه في طبق حساء السمك فقد ورد أصلاً

في كتاب غير مؤلوق بصحة لسيانوفيتش، إذ تكرر ذكر هذا الوصف مراراً بيد أننا لم نجد انطباعاً أن أحداً لم يتاول قط حساء هذه الطريقة. أما بقية وصفه أنها هو صورة مزيفة وغير صحيحة البتة عن راسبوتين على أنه سكيراً، بربرياً ومفتصباً: لقد سجلت ابنته ماريا التي عاشت معه في شارع بطرسبورغ سني إبداعه الأعظم قائلة أن أبيها قد أسرف في الشرب في آخر سنة من حياته فقط ولم يقرب الفودكا مرة لكنه كان مغرماً في شرب الخمر المحلي ولقد كان في سني شبابه الأولى قادراً على شرب كميات كبيرة من هذا الشراب دون أن يتجلى عليه شيئاً. كان مولعاً بالجنس رغم أنه لم يتعشر في إيجاد رقة من سيدات لامعات ومثلاث يقاسمته فراسه. كان رودزيانكو أحد أعداء راسبوتين وهذا يفسر أن الأمهات ربما كتبن رسائل تحكي فقدان شرف بناتهن بتحريرهن منه. ربما كان راسبوتين قد أغوى فتيات صغيرات وربما لا ولكن في كل الأحوال لا يمكن الأخذ بكلام رودزيانكو كدليل قاطع على ذلك.

تلك هي العقبة الكأداء التي تواجه كل من يحاول الكتابة عن راسبوتين فنحن نملك بين أيدينا كماً هائلاً من دلائل عنه، بيد أن التلغيف والتضليل قد طغى على أغلبها بينما يبقى المرجع المادي الأساسي ضئيل. فقد جاءت الثورة بعد وفاته بقليل واتحك مؤرخو الحكومة السوفياتية في امساة اللثام عن عيوب نيقولا الثاني أكثر من اهتمامهم بالبحث عن الأمانة التاريخية بينما انفتحت معظم الكتب التي تناولت سيرة حياته والمطبوعة خارج روسيا إلى الاستقلالية في الرأي وكانت عبارة عن مذكرات وخيصة مثيرة. استهلت دار تي فوجل جورجنسن إصداراتها (راسبوتين)، (الدمر)، (عاشق الملذات)، (التآمر) والتي طبعت بعد وفاته بالعبارة التالية: «لم يكن راسبوتين اسمه الحقيقي: بل هو أصلاً كريكوري يغموفتش. ولد في قرية تدعى بيترونوفيسكوي. ١٠. وثمة ملاحظة تذهل

الصفحة تبين أن كلمة (الراسبوتينية) تعني الفجور أو الخلاعة. بيد أن ابنته تنفي ذلك مشيرة أن راسبوتين كان اسمه الحقيقي، فنقد أساترت ابنته أن كلمة راسبوتين لا تعني سوى (مفترق طرق) أو (شوكة طعام) وأن أكثر من نصف سكان قريته يحملون نفس الاسم لأن القرية تقع على مفترق بين (توبولسك) و (بيومين) وكما هو معروف لدى كل قاريء للأدب الروسي أن (يغموفتش) هو بالطبع اسم العائلة وليس اسمه الأول، وأخيراً فإن قرية راسبوتين كانت تسمى (بوكريفيسكو) وليس (بوكروفيسكوي). ويتضح جلياً جداً، حتى لكاتب مذكرات حسي بأن (جورجنسن) هذا قد استطاع أن يكسب عدداً هائلاً من المغالطات المتعمدة في جملة الأولى، وهو برغم ذلك لم يكن سوى خدش بسيط مقارنة مع الكتب الأخرى التي ظهرت.

فالكتاب الذي يحمل بين طياته سطوراً تملؤها الكلمة الصادقة لم يظهر بعد، وعمل كهذا لا بد وأن تطرز سطوره ريشة كاتب يتكلم الروسية ليصبح باستطاعته البحث في كم الوثائق الأصلية واليومية ورسائل العائلة الملكية والوثائق الأرضية للبوليس السري وأن يسافر إلى سيبيريا الشالية باحثاً عن معلومات تخص حياة راسبوتين المكرة.

أما الكتاب الذي بين أيدينا فهو محاولة لاعادة تقييم شخصية راسبوتين. بيد أن ذلك لا يعني أنني قد وضعت نصب عيني نية مسبقة في الدفاع عنه لأنني أشكك حتى في أهمية استخراج مثل هذه الكتب، سيما وأن محاولات عديدة سابقة لتربة ساحته قد ظهرت لكنها لم تل من الأهمية مكاناً. إن وجه الاعتراض الوحيد للرأب الفاجر (مكراهاكو) هو كونه لم يصل إلى نصف ما يستحق راسبوتين من اهتمام ذلك الرجل الذي فكر أن يكون راهباً ولما بزل في السادسة عشرة من عمره والذي أصبح واعظاً جوالاً لحصه قوى شافية غريبة حتى ظن

في نفسه صورة جديدة للمسيح. وإذا ما حاول القاريء أن يجد امامه راسبوتين الحقيقي الذي غاب بين ظلال الكتب التي تحدثت عنه، نراه مترعاً ما يدرك أن المشكلة تكمن في اقتناص الجزء الجوهرى من حياته، جزء أبعد من أن يوصف... انه جزء الانسان الحي. ونعلم جيداً ايضاً أن كيار الكتاب لم ينعثروا أن يخلقوا وراءهم تحاريم الحية. وأماناً شيلي الذي اذا ما شئتوا تحويل شعره الى سيرة ذاتية فلن نصيف سوى النثر القليل لحقيقته الواقعية المعروفة لدينا مسبقاً، لكن راسبوتين لم يكن كاتباً عظيماً... ولم تكن مذكراته سوى شيء يشبه العنصين الخارجى لبعلة (بيركينيت) حيث يتأب المرء الشعور المزيج أن ليها مفقود.

انه سوء الطالع الذي اتسبه للتاريخ، وفوق ذلك للتاريخ المثير لاواخر الملوك الفياصرة. انه شخصية مثيرة حقاً وأكثر منها اثارة جذوة التاريخية. ان للتاريخ اسلوبه في أن يحيط بالرجال الى الحضيض... الى صورة ذات يعدين فقط. انه عدو للموضوعية فحق لستيفن ديدالوس أن يصفه: «الكابوس الذي أحاول ان افق من...». وإذا نظرنا الى (كيركجارد) و (نيشه) و (هولدرلين) نراهم ينفسون وحيدتين خارج حدود التاريخ، لقد يزعوا بفاعليتهم الشديدة يتنا

(١١) كيركجارد (نورن) Kierkegaard (١٨١٣ - ١٨٥٥).

فيلسوف ولاهوى دانياركي وحزوي. وهو أول الفلاسفة الوجوديين المعاصرين الخارجين على ميجل. وقد حلل الوجود في شيء من التشاوية. شدد فلسفته على الايمان والفكر والحقيقة، وهو يدور أن الاداة الانسانية ذات الشفرة الحادة هي التي تقرر علاقة الانسان الذاتية باله.

(١٢) نيته (فردريش) Nietzsche (١٨44 - ١٩٠٠).

فيلسوف المثل أخذ بتلعب التطور ويشير بالانسان الاقل (السورمان) قائلاً أن الانسان الاقل يجب باروخ وأن البقاء للأصلح، وهو أحد مؤسسي العرقية الجرمانية، ومن كتبه التي تخلص فيها ما يمدح ب (قوة القوة): «نشأة الانسان وروح الموسيقى». هكذا تكلم زرادشت، «المسار وظلله» «قوة القوة».

(١٣) هولدرلين (فريدريش) Holderlin (١٧٧٠ - ١٨٤٣).

شاعر المثل صاحب رواية (هيريون) والشاعر رائدة ولغت الوحي الرومانتيكي الى درجة التصوف.

طلعت الأصول غارقة في الظلام. لقد دخلوا التاريخ ولم يكونوا جزءاً منه. في هؤلاء الرجال شيء ما أخذ التاريخ، فهم عرضة للزمن، للحادث والموت، لكن فاعليتهم الشديدة كانت تمثل مقاومتهم له، لذلك فقد أسميتهم في كتاب غير هذا ب (اللاتمين) لانهم يحاولون الوقوف خارج التاريخ الذي يعرف الانسانية في اطار عجزها وقصورها وليس في اطار الاختيالية.

ان الدين بطبيعته يقيض التاريخ: لقد كان راسبوتين رجلاً مأخوفاً بالدين وكان ايمانه الذاتي بالمسيح الباحث الأموى لديه لا الانعاس الجنسي او الرغبة بانهاء السلطة. بيد أن روسيا تحمل التاريخ كله - فيها الحروب والتجاذر والقتل والثروات والاعدامات. كتب آر. دي. شارك قائلاً: «لقد طارذت (نيمسز) الهة الانتقام لدى الاغريق» الثلاث وعشرين عاماً الاخيرة من حكم آخر القيصرية الرومانوفيين، ولن يستطيع اي قاريء للتاريخ أن كان دقيقاً أن يشع عياله سواء لهذه الحقبة من الزمن او لغيرها من حطب الماضي». هنا يعبر شارك عن هذا الشعور الذي يتأب الفرد وهو يقرأ تاريخ روسيا، فهناك لحظات يبدو المرء فيها وكأنه (يتنفس روح التاريخ) ساحباً خيوطه لتحرك الشخصوس كما يفعل الأباسور. لكن راسبوتين يمتلك سيرة اللاتميني الثائر ضد تأطير نفسه بروح الزمن الذي يفصل الانسان عن واقعه. ان جوهر سيرة اللاتميني تتجسد عند نيته في عبارته: «كيف يصبح الانسان ما هو عليه». لقد جاهد راسبوتين طوال الأربعين سنة الاولى من حياته ليثال هذه الضيعة من الزاوية الداخلية فجنى بصبره هذا قوى متميزة. نوعاً من الزخم الباطني اتاح له مقاومة تيار التاريخ.

بعدها قدم شارع بطرسبورغ ليجد نفسه في اعنف ذلعة لهذا التيار جرفته نحو مسقط المياه حيث تطارد نيمسز القيصرية. لقد خدمته قوته الداخلية كثيراً لكنه لم يكن قويماً للذوبة التي تمكنه من انقاذ القيصرية او انقاذ نفسه من الموت.

كانت الملكة تدرك حقيقة الموقف فراسبوتين لم يكن ملاحاً احتضنته العائلة المالكة بل كان قلبهم وهذا ما يفسر قدرة راسبوتين على توبيخ القيصر وجعله مطيعاً كطفل وديع، وهو ما يفسر أيضاً رسائل الملكة اليه المقعنة بالتوصل وشعور بالخرق:

معلمي الحبيب الإلهي، أيما المتفقد والناصح المخلص... أي ظلمة أعيشها بعيداً عنك، لقد تخليت مكون الروح واسترخاء الجسد في دفة جلييك، دعني أقبل يدك وألقي برأسي على كتفك المباركين. آه كم تعمرني السعادة حينها، إنني لا أشد من الحياة غير أن أنام أبداً على صدرك وبين ذراعيك... أي غبطة أعيشها وأنت قربي. أين أنت؟ أين ذهبت؟ عجل إلى بخطوك لما عيل صبري، وسأولاي أي أقرب خطاك... ٤.

تبدو هذه الكلمات كأنها رسالة حب لكن تأثير راسبوتين عليها كان أقوى من وقع الحبيب على عشيقته فالجنس لن يكون سوى مضيقاً لهذه الهيمنة. لقد كان راسبوتين هو الواهب في تلك العلاقة ولم يكن لديهم شيئاً يهيوه أباه. كان يعلم أنهم سيخون منه النصيحة، وكان مطلبهم ذا وجهين: الأول يخص ضعفهم والآخر ملوكيتهم، وربما كان الأول قوياً جداً بيد أن راسبوتين كان قروياً يؤمن بالحق الإلهي للملوك وهو ما جعل الرفض لديه مستحيلاً. إذ انتفخت حيويته سرات عديدة ضد التضحية بالنفس... كان يفر منها لمرات عديدة وكان يعود بعد كل مرة ليعيد الكرة، وبعد عام ١٩١٠ تقريباً انبرى لدى شخصية راسبوتين عصر جديد ليس من اليسير تحديد معالمه وربما يكون من الأفضل التعبير عنه بالصمت بدلاً من الكلمات... لقد قبل أن يدور في فلك هذا العنصر حتى نهاية المطاف وهذا يعني أنه قبل بتدمير الذات. لقد اتضحت لديه معالم من الازدواجية منحتة أحياناً سلاماً مضطرباً، سلام إنسان يدرك أنه وافق على

اللقاب اشبع جنونية بحق نفسه. لم يتأكد قط هل يحتم عليه كيانه الباطني أن يتسلل من القياسرة ويتركهم يتخبطون بتفاعله التاريخ الذي تورطوا فيه. أيها الشفقة وشعور الواجب قد منعا أن يفعل ذلك. هنا تجلبت شخصية أخرى بالتكاد القبيحة العميقة في نفسه: مأكرة وعيفة، موصومة عليها بصيات الماسوشية (تعذيب الذات). كان كمن ذهب إلى دائن يرهق لديه الفن كتونه لا شيء سوى ليرفضها. لقد انعكس تقلبه من قدر نفسه على نفسه حيث تتجلى هنا الشفقة الجريحة إلى نوع من الماسوشية لديه. كان يدرك جيداً أنه ذاهب إلى حلفه وهذا ما تكشفه رسالته الأخيرة، وكان يعلم أيضاً أن نهايته مرتبطة بنهاية القياسرة، إذ أخبر القيصر أن موته يعني سقوط العرش. لقد ذكرت ابنته أن أباهم أسس وبعد عام ١٩١٤ عصبياً، مشدوداً وبدأ يشرب الخمر وعندما اقترعته أجابها: «ولم لا أقبل؟ أنا رجل كباقي الرجال». إن راسبوتين الذي اهدم في باحة قصر يوسف ليس براسبوتين الذي قدم شارع بطرسيويغ سنة ١٩٠٥. ذلك الـ (راسبوتين) الذي كان مدرئاً بأنه رجل ليس كباقي الرجال، راسبوتين الذي تعرفون بلأ يعموت بالسم البطيء منذ عام ١٩١٠. ربما لأجل هذا لم يؤثر سيانيد يوسوف فيه فاضطروا للقضاء عليه بأسلحتهم النارية.

إذا لم تكن حياة راسبوتين «تاريخاً» بل هي نزاع التاريخ تظهره المؤسوعية. كان راسبوتين في سنه التي أمضاها في شارع بطرسيويغ (لاوكونا) خلفه التاريخ. لكن جميع من كتب عن راسبوتين كان إما مؤرخاً أو صحفياً شامسياً. فليس من العجيب إذاً أن يظهر راسبوتين في تلك الكتب (كصورة بركيت) الخالية اللب... كان كينز يحرر التاريخ، ويطرز الفكر قوته القائدة له. إن جوهر راسبوتين الحقيقي يكمن في واقع بالدين وهذا هو المتفرد الوحيد للملوك إلى دواخله.

ليس ميسراً إجراء مقابلة (على سبيل المثال) بين في. إي. لورنس
وراسبينزين، فلهذا كان لورنس رجلاً لامتناهياً أيضاً أوقع به التاريخ، وربما يكون
السلطة (أعمدة الحكمة السبعة) الوثيقة الأساسية الوحيدة خلال هذا الصراع. وهو
تم التبرير قد جعل من نفسه رجلاً عبقرياً قبل أن يصبح قائداً للثورة العربية
أدراكاً بكون الاثنان قد التقيا في فلسطين قبل الحرب لأنها كانت هناك في نفس
الوقت. كان حاجته اليهد وفكرة الحج وسأورد شعوره أيضاً أنه إذا ما خدم
التاريخ فيكون كمن نحن فيه. ولم يصبح قط في استعادة الوثيقة التي كانت
قد فقدتها أثناء الحرب. لقد طعن على كتابه (أعمدة الحكمة السبعة) شعوراً
بالتصور من التاريخ... هو نوع من التمرد المرتبك وهو محاولة للخلاص من
القصص التي أسكت بها عندما تروى (الربك كينجود) الكتاب على منجم
مجهول لا ينفقه شيئاً من لورنس قال المنجم: «لقد جعلني قراءة هذا الكتاب
العذيب أن كاتبه اعظم رجلاً عرفته لا محالة...» لكن هذا المنجم نفسه أحسن
السلام لورنس للتاريخ... أحاسيس بلا حقيقة الوجود ذلك لا تشعر به حياً
فيما يفعل... إنه يمزج طليق تخوري من خلاله الحياة... ١

وبعد، ورغم العفة المطلقة وعظمة لورنس الجليلين في (أعمدة الحكمة
السبعة) لم يتدار ريشة واحدة أولئك الذين اذ يكشف في سيرة حياة لورنس الذاتية
طليقة الوثيق الذي غطاها ليرهن أن منبع حياة لورنس هو ولعه بالكذب إلا
أن الاحتمال ما زال قائماً أن نجد حتى في أعمدة الحكمة السبعة لورنس الحقيقي
الذي البصلة. وهنا نصل تحت هذه الظروف إلى البلية التالية: لا عجب إذا لم
نجد كتاباً واحداً عن راسبينزين استهله وثقه يذكر الحقيقة فقط لا غير أن

(١) لورنس (لورنس) Lawrence (١٨٨٨-١٩٢٥)

مناقب وقبائل الجليلي، التي الشريف حين وضع ثورة العرب ضد الترك ١٩١٦-
١٩١٨ ضد لورنس العرب

المنطقة بحق راسبينزين لا تكمن في الحقيقة التاريخية لحسب يرغم عنها بل في
الطبيعة التوصل إليها، ومن ثم إدراك السيد وراء اختيار راسبينزين لذلك النمط
من الحصاد. وبما في يده نقول: أن راسبينزين كان روسياً والقلة من كتبوا عن
سيرة الذاتية كتبوا عن الرومن أو من يذكروا صادقاً يعني أن يكون البره روسياً.
لما من كتب عنه من الرومن فكان معظمهم شيوعية أو أنهم كتبوا من وجهة
نظر الشيوعية.

فالرومي رجلى للتناقضات مثله في ذلك مثل لورنس العرب. إنه كسول
ونفسه قوة الآداة في إطار الأصرار على خائبة. يبدو أنه يملك من جانب
الشخصية قوى مطلقة تمثل في القدرة على تحمل الصعوبات وتحملها، إن أغلب
التناقضات في الشخصية الروسية ليست سوى ردود فعل لهذه الصفات من
الكسل واللامبالية. كتب (بيتر بايف) قائلاً: «لقد كان هناك عنصر قوة رهيبة
لدى الشعب الروسي مقرون بضعف نفسي في الصيغة، أو بمعنى آخر إنه الروسي
مسلط قوة لكنه يجهل السبيل ليفعل بها شيئاً. إنه من المستحيل فهم التاريخ
الرومي إذا ما حكمنا على (البلدان المربع) و (بيتز العظيم) وحتى مثاليين على أنهم
رجال انجليز. وأما ارتكيب ادروي غربي مثل ما ارتكبه من وحشية لأصحابه
عند الاستيلاء والارتباب من الآخرين، لكن الأمر ليس كذلك لروسيا. ففي
أواسي الخصوس والبلادة والعجز وتقصص الخلف. إن خلف التاريخ الروسي هو
فعل حموي لهذه الصفات... رد فعل رجلك يحاولون تحقيق شيء ما».

لقد قيل إن كسل الروسي أنها جزء من موروثه الأميوي. وهنا كتب
(جورج تشو) قائلاً: «نقع على التخولين مسؤولية العديد من الصفات التي
تتوارثها شرقية أو سيوية في روسيا اليوم كالخشونة والاضلال للقد والكسل.
لها لا تكون بلادة الروسي وتصوره جزأين من مصال الشخصية القومية الأصلية

بل هما حصيلتين للتخلف. فهناك بلدان لا تمت أحدهما للآخر بصفة، مثل
أيرلندا والمند، يشكسان هذه الصفات والتي بدأت بالزوال بعد قيام الثورة
الصناعية، وبشهادة القرن الحالي، ربما، اختفاءها من روسيا. إن الحرافقة الدينية
هي سمة لعالم تخلف البلدان ورثا هي رد فعل للكسل: انه الترقق الملى بالأيان
المحبى ضد حالة الخمول في هذه البلدان. وهنا نجد روسيا اقرب الى آميا منها
الى اوروىا، فمسيحييتها الاغريقية الأرثوذكسية لها نفعة بوقية. اذ يلقب من
يفر ترك عائلته في البلدان البوذية ليصبح متحولاً دينياً بال (تاهاجاتا)، وفي
روسيا يدعى (ستاريز) اي (حاجاً). لقد اصبح راسبوتين (ستاريزاً) عندما بلغ
الثلاثين من العمر.

ثمة ميوعة اخرى في الروسي علينا ادراكها جيداً: فهي اذا ما امسى رجل
دين فانه سلم بوجود الله. الله قوة خارجية. أما نظرية (جورج فوكس) القائلة
أن الله هو (الضياء الداخلي) فهي نظرية دخيلة فامساً على الروسي. لقد تطلب
الاقتصاد - في اوروىا، على رؤية جديدة لله ثلاثة قرون بعد الثورة العلمية لنيوتن
وغاليليو. لقد علم نيوتن الرجل الاوروي أن يتق بعقله فقط فخلق بلورة ثورة
لامرئية. ويتعشأ أعلن موت الرب بعد ثلاثة قرون من ولادة هذه الفكرة في
اوروىا. لكن الرجل الروسي لم يكتسب بتاتاً النفعة المطفلة بالعقل و (الضياء
الداخلي). فهو سوى في الله سؤالاً ملحة ما حيا. وفي هذا الاطار يروي
(أيرديلاف) كيفية انتهاء الى فريق من المفكرين اعتاد الاجتماع في شارع
بطرسيوخ في بداية هذا القرن. اذا اقترح احدهم أثناء احدي النقاشات حول
(ما وراء الطبيعة) الذهاب الى منازلهم بعد أن أسدل الليل سدوله لكن آخر
أحدهم قائلاً: لا... لا يمكن أن نذهب الآن فنحن لم نقرر بعد فيما اذا كان الله
موجوداً؟

انه لمن المستحيل أن نتصور روسيا يقول غير مال كزادشت: قال لم
يسمع هذا بعد أن الله قد مات؟^(١٩) أو أن يراهن بالخدائيه بطريقة ستاريز. ان
مستافرون عند دستوفسكي في (الشياطين) هو زرادشت روسيا ومزيد من الثقافة
لدا أن غارنه يظهره الاثاني. مستافرون شاب عتي اكتشف موت الرب لكن هذا
الاكتشاف لم يخفف حرمة الاحفال (الدايوني) - نسبة الى دايونيس اله الخمر
عند الاغريق -، انه يجد العالم مفرقاً مجرداً والرب غائب عنه ويرتكب الجرائم لا
لأنه سوى ليصدم ذاته ويحدث رد فعل اخلاقي، انه عاطفة تجلبرت حتى عظمه
ولا ينال من عقله أية متعة، ومن المستحيل أيضاً تصوره مفرقاً نفسه كشيطان،
في دراسة الكيمياء او الاقتصاد السياسي. فاذا غاب الرب غدا العالم ثقافة، ما
من حدود للبحث في داخله عن معنى فعله الداخلي قد مات. وما الحياة له إلا
مغزى طريق: اما قوة العاطفة أو أنها ليست بشيء. والقوة تنجم عن حافز
خارجي ولا يمكن له قط تصورها تنشأ من الداخل. ان رد فعله لموت الرب هو
الاتحار.

لا مندوحة هنا من ادراك هذا لقنهم متاعية الدين لدى راسبوتين. ان دين
راسبوتين لو قورن مع اي من رموز الدين الاورويية العظيمة الشأن امثال
باسكال،^(٢٠) ولهم لوز، ليوغان وكيركسارد لشجلى غير عقلاني بطريقة غريبة وهو

(١٩) ستاريز (جان بول) Sartre (١٩٠٥ - ١٩٨٠). فيلسوف ونقاد وكتب فرنسي. تأثر
بمطوابع هوسرل وهابيدامر وغدا من أبرز رواد الوجودية القشائمة. وهو يقول أن الوجود
مشقود على الذات وأن الانسان مطلق الحرية في الاختيار. أبرز أعماله (الكان والعدم، طريق
الحرية، المجدارة، واللاذني القلقة. تتجلى فيما بعد الى بعض أفكار ماركس.

(٢٠) باسكال (بليس) Pascal (١٦٢٣ - ١٦٦٢). فيلسوف واديب وراهبي ومبشري
فرنسي. وضع المخطوط الرئيس لكتاب (الخراطير) في الدفاع عن الدين المسيحي.

(٢١) نيومان (جون هنري) Newman (١٨٠١ - ١٩٨٠). فسر بروستاني انجليزي. أحد
رعاة حركة النهضة الموجهة المسيحية. انضم الى الكنيسة الكاثوليكية وأصبح كاردينالاً.

واقعي، وموضوعي بطريقة غريبة أيضاً. وهذه مسألة ليس من اليسير على الأوروبي إدراكها لأن راسبوتين بعد من أن يكون غير عقلاني. لقد اعتد على نفسه على نحو جلي. لكنه لم يكن ذلك الاعتقاد العقلاني للذات على نفسها الموجود لدى نيتشه. فهو (راسبوتين) لو زرع أصغر قوة شك من شكوكية زوافشت في عقله لشاوت شخصيته بكامل بنائها. لقد لقب القيصَر راسبوتين بالحدود - أي الرجل الجديد - لكنه لم يكن بالرجل الجديد بل هو من الناحية المكرية آخر (المؤمنين القدماء) وسيكون أوفر خطأ لو كان قد جلت قبل الثورة البلشفية (ثورة أكتوبر)، وبقي أن نقول هنا كلمة يجب قولها: إن الكتب التي تناولت راسبوتين تنسب إلى ثلاث صفوف - المألوف بها بشكل أو بآخر، والمألوف بها قات المعطومات القليلة، وغير الموثوق بها تماماً. ومن الموصف حقاً أن تنتمي معظم الكتب إلى الصف الأخير.

بعد كتاب (يزنادير بيرس) والموسوم بـ (سقوط الملكة الروسية) أفضل كتاب عالِم هذه الحقبة من الزمن بأسرها لكنه اعتم. شأنه في ذلك شأن معظم المؤرخين الذين عالجوا هذه الفترة، بتأثير راسبوتين في بلاط القيصر ولا يبدؤ جديداً جيداً ليصله حق.

إن المثال النموذجي للموصف المنحاز جداً لحياة البلاط في تلك الفترة قد وجد في كتاب نجهيل اسم مؤلفه والموسوم بـ (سقوط القيصرية) الذي يجعل المصداق الشاوي (كيف تسببت الملكة وراسبوتين في قيام الثورة الروسية)، ومن الواضح أن مؤلفه أحد أعضاء البلاط ممن يحملون كرهاً شخصياً للملكة. فهو يصعد الملكة بالستيرية وراسبوتين بالمحتال السوفي. كما يعتبر كتاب فولوب ميلار (الديكتاتور المقدس) من أهم الكتب التي تناولت راسبوتين وهو الأصحح بلا شك. وقد أوجيز بيرس الأخطاء التي وردت فيه فيقول: «يرغم أن الكتاب

ليس عملة كافية لكن الأسلوب الصحفي قد طغى، وأسلوب الخطأ على أقله أخطاء حوادث القصة الرئيسية في غير مواضعها تماماً بل ولعلنا حتى بعض أجزاء التاريخ إلى معادلات عيالية تقع على الكاتب وحده مسؤولية كتابتها. وبعض فولوب ميلار أيضاً توازناً خفيفة ولا يكثر يذكر المصادر التي اعتمد عليها.

ظهرت العديد من الكتب ألفها أشخاص عرفوا راسبوتين بأي في مقدمتها كتاب يوسفوف عن محاولة الاغتيال، والبرتين الذاتية من تأليف ابنه، وكتاب سيباستيان (مكرين راسبوتين).

وجميع هذه الكتب موثوق بقصتها إذا ما تحدثت عن علاقة المؤلف الشخصية براسبوتين ولكنها فقيرة المعلومة في جميع النواحي الأخرى. فكتاب (سيبستيان) يشبه بالتحديد عموداً صحفياً مائلاً يعطي الانطباع بأن غاية المؤلف الوحيدة هي منح القراء قبعة ما دفعوه ثمناً للكتاب. ويوحى كتاب يوسفوف بالنداهة لكنه يصعب فهمه تماماً بشيء محاولة الاغتيال يعرفه راسبوتين مجرداً من أية خصلة متوازنة.

لما كشاً ما ري راسبوتين القصيران قريباً ومثلان الصورة الأكثر واقعية لراسبوتين، يبدو أنها لا تحتويان إلا على معارفات قليلة جداً من بين عشرات الأمور التي كان مفروضاً أن تكون ابنه حصة الإطلاع عليها. وهما لا يختلفان عن التقارير أيضاً فهي تذكر أن راسبوتين رأى لجلي الذات الألية أعداء الامتلاء ولا يبلغ الثلاثين من عمره لكنها ذكرت قبل ذلك وفي نفس الصفحة بأن تلك أحداثاً عظاماً لقد أدته البكر بعد سنة من زواجه وكان حينها في العشرين من العمر، وهي تقول في غير هذا الموضع انه قد تزوج في التاسعة عشر من

ثم ظهر في السنة التي تلت مقتل راسبوتين كتابان قصيران عنه كتب أحدهما ت. ب. اي. فوجل جورجنس، وكتب الآخر جورج أوميا. يعترف فوجل جورجنس بصراحة أنه اشترى معظم معلوماته من الصحف الروسية، وعليه فإن الكتاب يرغم الاخطاء الجسيمة التي يتوقع أن تخص بها معظم صحفاته. يكون قد خطا لذا في أقل تقدير ضرورة واقعية لرد فعل الصحافة الروسية حيال راسبوتين. أما كتاب أوميا فهو أول دراسة غير دقيقة تصل حد الوقاحة واللاعقلانية تجاه راسبوتين. فهو يبدأ بالادعاء أن الملكة استهكت فترة حكمها بتروطها ومغلافة غرامية وروماناً وريذا يستمر يطلق خياله العنان فيصل إلى ذكر تواريخ محددة ومعتقدات مما تشبهه الصحف لاسناد ادعاءاته.

كتب الروائي وليام لوكوكس ثلاث كتب عن راسبوتين غير جذرية بالصفة مثال هي الشرح في الفصل الخامس بدخلة راسبوتين.

في عام ١٩٥٧ كتب هرتس ليتان أحدث كتاب عن راسبوتين بعنوان (راسبوتين... أقارب أم شيطان؟) ولياً نفس الأسلوب الصحفي لفلوب ميلر وبأقل واقعية. يبدأ الكتاب بالقول: «إن هذا العمل ليطال كل ما نشر سابقاً عن راسبوتين باعتباره حل مطبوعات مركز الوثائق التاريخي في موسكو» و يظهر في واقع الأمر أن معظم معلوماته كانت من نبات أفكاره. فهو يعصف بالحصيل كيف ضرب فلاحو القرية القارون والد راسبوتين حتى الموت وكان حينها راسبوتين في السابعة عشر من العمر. بينما تذكر ماريا راسبوتين بأن نجدها في شارع بطرسبورغ أثناء إقامة والدها هناك أي عندما تجاوز راسبوتين الأربعين من العمر. وعموماً يجب وضع كتاب ليتان على كفة المساواة مع كتاب أوميا.

منذ ذلك انزاعني استشهد به من غير الأخير وحيداً غلب الأمر عقلياً مطبوعاته بمعلومات مصدر آخر، وأخيراً أشهر إلى إحدى النوافذ الأدبية عن راسبوتين والتي هي آنذاك مقالاً عن قدرته في إبداع الأساطير. إنه كتاب (جورج سالاس) تحت عنوان (راسبوتين يتحدث) والذي يدعي فيه مؤلفه أن روح راسبوتين قد اعلنت عليه الكتاب من شفاه وسيط روحي وكان ذلك عام ١٩٤٠. وفيه تظهر روح راسبوتين وكأنها قرات كتاب فلوب ميلر فهو يردد الكثير من القصص حرقاً تقريباً كما يردد أيضاً بعض مغالطاته. وفي الجزء الثاني من كتابه مثلاً يردد روح راسبوتين لتبدأ رجل الذي الطويل يستقبل روميا (والتي أثبت فيما بعد صحتها إلى حد بعيد). وفي الختام يكفي مجرد ذكر عناوين بعض الكتب عن راسبوتين للدلالة على شخصيته.

راسبوتين... العوبة اليهود، وودافد فوجر.

راسبوتين والحادث، روية فلوب ميلر.

سيند الشيطان- التاريخ المنري لخيالة راسبوتين لوميا، وليام لوكوكس.

الراسبوتينية في لندن، لوكوكس (لم يذهب راسبوتين أبداً إلى لندن).

راسبوتين، الواحد والواحد والمخرج، اوكتاف ثيكالبه.

راسبوتين والفجر الدموي، برنيس موراث.

راسبوتين، القروي القوي، اي. سيانوفيتش.

ويكلا سيدرك القاري، إن الكتابة عن راسبوتين ما برحت تجد حيزاً لها رغم هذا الكم الخائل من المطبوعات التي تناولت حياته.

الفصل الأول

الامكاني

كتب تينوتولا يرديليف قائلا: ⁽¹⁾ «تغطي الأرض الروسية بين تضاريسها شتياً ما جوفاً مع راحة وحموض وأودية أرضها، وسييريا... تلك الأرض الغافية ذات جبال الأوزال هي الجزء من أرضها التي تكحلت هذه الضفقات. فهي ليس الأنهار العظيمة: إلينا، الأمورا، النيس والأوب، انهار قد تنلشن أمدك حلود شواطئها ولا تقف في عرضها، وهي طريق ملاحي لصيادي سمك المحيطات. شتاوما قارص قد تصل درجة الحرارة فيه إلى أقل من الثلاثين تحت الصفر، بيد أن مراه الجبال والسكان يعمل منه شتاء مطافاً، وضيئها قاص يرق الأرض يلهب حرارته حتى تبدو فيه الشيب (شوب مييريا) أحياناً سحراء لا تفتح لأرض قاحلة»

وشرقها حارة عن مناطق جبلية أما شمالها - حيث ولد راسينين - فهول سمرجة (نقطة بيات التندرا) ومساخات متباعدة مغطاة بطحلب الرنة وبيات خزاز القش

ليس مؤكداً بعد متى ولد راسينين، لكن الآراء تفتق أنه جاء أوائل عام 1860 في بوكروفسكو وهي مدينة صغيرة (أقعة في مقاطعة (تيومين) قرب (أورال) ملكا - حدثت سييريا - منذ زمن (يفرس الكبير) - معتلاً ومغزى ويؤكد أحد الكتاب أن بوكروفسكو قد امتسها المعتقلون من أطلق مراحهم في سنة

(1) القار الروسي - منشورات جيلوري، وليس المخطوطة 1919

١٨٢٠. وإن صبح هذا القول فإن المؤمنين قد نجحوا حرة ويمتد في اختيار أرضهم فهي كما وصفها (يرنسن يوسيف) :-

أشبهت قرية «كروفسكر» بولاية صفتي نهر تورال المرتفعتين العاريين. ومن هذه الواقعة في قلبها وحيث تشمخ كنيستها تنفرع طرقها في كل اتجاه. إنها طرق مستقيمة تقع على حدودها أبنوا الفلاحين النسيجة. كل شيء فيها يشر خيراً، أما ما لا يشر إلا شياً واحداً وتغص أغنية سوارعها بالأبقار والأغنام والخنازير، أما البصر المحلية فتصيده قائماً صقلت بالفولاد، وشربلات الأكواخ نظيفة لئلا تشبهها العريضة بالزهور.

لو طابت القرية ووقفت برهة على ضفاف النهر فالتك متحف لتراجم رسالة ميرزا التي لن تقرأ أبداً بك رجاء مثلها ما حيت. وعلى امتداد البحر تشمخ تلك مروج وسهوب تشعبها سائين البتولا وقد خلفها (الأورمان) وقاية منافية الأطراف مليئة بأشجار الصنوبر والتوب^(١).

كان والد راسبولين فلاحاً أجاد مهته وحزناً ومالك جيد، وقد أصبح، كاتبه، برفقة الجياد. وهي شمة يمكن الأخذ بها لأنه أمضى عاماً في السجن. وقد وصفوه بأنه فلاح كادح وسكير مدمن وكلتا الصفتين تطبقان عليه كثيراً. وما تأكد لدينا أنه بدأ الاقتراف في الشرب بعد زواجه مباشرة عندما كان سائقاً في البريد الإمبراطوري الروسي، لكن السنة التي قضى فيها في السجن - بعد عصارته أحد جده - جعلته يغير من أسلوب حياته. ففي عام ١٨٦٠ تزوج شرقاً ووجد مسلة جيلة في ملشفي نهر (التورا) و (التوبول) حيث يوجد شلال يصل

إلى مياهه إلى مسافة قدم. وهناك أعاد يوحنا راسبولين منزله بين عدة قلات من الأشواخ كيونت فيها بعد قرية بوكروفسكر. وقد كدح كثيراً في زواجه أوله حتى أصبحت بنة معروضة زاهية فانتخبوه رئيساً للقرية وفي هذه الفترة بالذات ولد له ابنه الثاني كريستوفري.

أمضى راسبولين طفولة سعيدة كان فيها غياً للخيول ومولعاً بالشهور الحصار الواسعة. لم يزل من التعليم إلا قليلاً يعرف أن والده علمه مياديه الدرام فقط لأنه لم يجد في تعليمه الكتابة ضرورة تذكر، فبشاً راسبولين كارهاً للتعليم مفضلاً السباحة وميد السك هل الاكتاب على قراءة الكتب، وهو لم يعلم الكتابة بطريقة صحيحة ومحاولاته في كتابة بعض الرسائل لم تكن سوى محاولات طفل عقيمة متروكة، لكن الحرية التي تمتع بها في طفولته ورجائه الشهور أمامه قد أرسنا أمامه أسس قوة ظل يحتفظ بها طوال حياته ولم نستطع أن نؤامرات ومكانه حينما البلاط أن تقوضها إلا بتر قليل. كتب (بريخت) شعراً جاء في أحد أبياته: «ما أشعر ببرد الغابات ما دمت حياً». انه البرد الذي سكن راسبولين أيضاً وصحبه تباؤاً كان يخاف طفولة تجردت من الحشونة والظلمة إلى حد كبير.

استلذ راسبولين منذ نعومة أظفاره بحصة من بها فوق أثواب قريته. إنها المصيرة الشافية فطراً وقراءة لا تحليل لها وهنا استشهدت أبته بقول أبيها: «لم أكن أجرو على سرقة أو اختلاس شيئاً ما فيها كان صغيراً لا اعتقادي أن ألتصع سرقة في الحالك التي سرقت ذلك الشيء لأني أنا نفسي أعرف والغفلة بأمر السرقة إذا ما قام بها أحد زملائي حتى لو كنت في مكان بعيد عني والشيء الدروفر هراء فلما استطع رؤية ذلك الشيء وزاقت. ولتأشيد هذه القرامة لديه وذكر أبته حادثة جرت في شارع بطرسبورغ ذات يوم عندما جاءت إلى راسبولين

(١) راسبولين... لفظة للذكر والقبالة، من ٢٨.

(٢) ميرزا لبيان، راسبولين... قلبي أم شيطان.

امرأة مجهولة حامله موهنة، انتزع راسبوتين منها المروحة حال دخولها وقال لها:
«ارمي ذلك» وعلى الفور سقط منها سدس وأغمي على المرأة وهي في حالة
هستيرية.

ارتبطت إحدى مآثر راسبوتين الخالدة في طفولته بحضان مروج من
غزن حبوب فلاح فقير. إذ اجتمع أهل القرية لمناقشة الامر في بيت زعيمهم
يعني راسبوتين، وكان كريكوري حينها مريضاً بالحمى وثانياً على قرائش أو
أريكة في نفس غرفة المجتسمين. وفجأة نهض من قرائشه وأشار الى أحد
الفلاحين قائلاً: «هذا هو السارق». احتق الرجل الذي كان أحد أثرياء
الفلاحين واضطر والد راسبوتين لاسترضائه موضحاً أن الطفل قد قلبه الحمى
ولا يمكن أن تحسبه مسؤلية قوله. لكن الشك ساور اثنين من الفلاحين لرد
فعل الرجل على اتهام كريكوري له فحملها الفضول وحس الاستطلاع على
ملاحقة الرجل حتى منزله لمشاهدته من مكانها الخفي المظلم في غزن الحبوب
وهو يقود الجنود المرووق خارجاً ليعلقن مراحه لكن الفلاحان أمكا بالسارق
وضرباه بشدة. وأعادوا الجنود لأصاحبه.

حلت الرزايا ولما بلغ راسبوتين الثانية عشرة من العمر بمأقته فتوفيت
بالمدينة وأكلت التيران معظم منزله. وذات يوم خرج راسبوتين برفقة شقيقه
إيلما على ضفة النهر فسقط شقيقه الى النهر وجرفه التيار، عندما غطس
كريكوري لاتقاده ونجح في إبقاء رأس أخيه فوق سطح الماء حتى أنقذهما فلاح
عابر، لكن ميشيل أسلم الروح في اليوم التالي اما بسبب التهاب رئوي او بسبب
نهم في الخمسجة. تلا ذلك بزمان قصير سقوط شقيقته المصابة بالصرع (كولين

(1) المروحة: غطاء التبريد لطول مكرو بالقرءا لتدفئة اليدنين.

راسبوتين لاحقاً) في النهر عندما كانت تغسل الثياب وقرقت هي الأخرى ولم
يكن في المزرعة إلا راسبوتين وإيما.

حصل كريكوري في تلك الفترة على عمل كمسائق عربية لمستهند في
(توبولسك) - من الواضح أن أسوال العائلة قد تناقصت كثيراً ولم يعد يكفي
راسبوتين مائكاً للحياة. اشتمل عمل راسبوتين على نقل البضائع والمسافرين
أحياناً في جميع أنحاء سيريا، فيما أجبره السفر على البقاء أياماً عديدة بعيداً عن
المنزل تالماً تحت عرشه أو في محطة بريد صغيرة ليلاً. واكتشف آنذاك ولما يبلغ
السادسة عشر بعد، أنه جذاب للنساء، فقد أجمع كل من كتب عن سيرته الذاتية
على براعته الجنسية في صباه.

كتب السير بيرنارد برنس قائلاً: «من المؤكد أن خيبة الأمل غمت القرية
وأمرها للحرية الجنسية التي أجازها راسبوتين لنفسه». لقد اعتاد راسبوتين الا
يشرع في عمل الا ويكمله، وفيه مسحة غرور لازمة طوال حياته وربما أراد
لمعنه أن تكتب صفتي القسوة والمجون فالأهم لديه ان يغدو معروفاً يشار
اليه بالبنان. لكن الشك يشوب نجاحه في أغلب محاولاته تلك ان لم تكن
جميعها. يضاف لذلك أنه اعتقر الى التهذيب في أماليه كما شهدت على ذلك
حدايات شارع بطرمسيووغ، فحالا يعجب بامرأة ما يبدأ في محاولة الاستاك بها
وتغيبها ثم يشرع في قتح أزواها. وقد ظل أسلوبه هكذا مشبهاً للاستمزاز
والنفوذ حتى في فترات حياته التي ثلت ذلك. كان مدركاً بأن له هيئة غروي
فيلسوف. وهو لم يكن ضعيف البنية وقد التقى بلا شك بكثير من القروبات في
محطات بريد بعيدة والللاي لم يكن ميالات لزعزعه.

لم يكن مستعيداً واضياً برغم أن بوكروفسكو قرية جميلة امتلكت صفات

الرجال التي فتح لها سبيلها السعادة وبرغم إحسانه بالجاذبية لكونه سمكة كبيرة في بركة صغيرة، وهو شحور يتزى لفترة الآخرين له على الله شخصية مربية (تصفه أحد الآراء بأنه كان (عبد القرية))، لكنه كان ابن زعيم القرية فمن غير المقبول أن يكون الرقص الاجتماعي سبباً لشغوره منها. وكان ذا شخصية مزدوجة، فبعضه كان فلاحاً روسياً لديه رغبة غير معقدة في المتعة والطعام، أما الجزء الآخر فمشتت من حبه للظهور ومن الكره الذي يعانيه من أكثر الفلاحين حبسة ووقاراً ويشعر في أحيان أخرى بأنهم ليسوا بدوي شأن حتى يكرهوه، كانت تقوده إرادة القوة المكونة في بركورفسكو.

جالت في رأسه فكرة واحدة منارات وميزات: أن يطلق ستاكيه ويطلق العمال ويعيش جيالاً. لقد شاع في مناسبات عديدة حجاجاً يرون غير قوته في طريقهم إلى دير بعيد. لكن طيبة عمله كاتق عربة وفرت له كلاً لا بأس به من الحرية وربما كان راضياً عن هجر والده الذي بدت عليه تصرفات لا أخلاقية منذ وفاة زوجته وطفله.

استطاع راسيوتين في سن السادسة عشرة بتوصيل شابه مصروف يدهي عيانيتي ساويرفسكي إلى دير (فريخوتور) على بعد مئة ميل تقريباً. لقد تحدث الشاب إلى راسيوتين وتأثر به، إذ كان راسيوتين مفتحاً بشوشاً ومتحدثاً لبقاً في أيام رخصته الصائفي فيما كان والده متديناً متحفظاً في الدين أمضى أسابيع طويلة في قراءة (الكتاب المقدس) على عائلته والذي ابتاعه مع كتب أخرى قليلة مثل (حياة القديسين) وربما حياة (القس العربي الماكريم)، وهو أول كتاب كلاسيكي

(١) أظن أنه كان في السادس عشرة منها رغم أن معظم الكتاب لم يجمعوا على سن أكبر من تلك بالنسبة لكونه في الدير - لأن ابته قد ذكرت بأنه دار فريخوتور لأول مرة عندما كان في السادس عشرة.

من الألعاب الروسي تشبه (المعتقدات القديمة). كان راسيوتين عابراً بذلك الكتب لكنه لم يكن يطيعه متديناً، وبرغم ذلك تظل حياة القديسين والشهداء دائماً تحت الحام شابه يشعر بالكبت في جوه الأسري. تحدث معه ساويرفسكي عن الدين حينها انتاب راسيوتين اهتمام وجدالي تحول إلى إثارة، ودون ريب أنه قص على ساويرفسكي شيئاً عن حياته وعن مغامراته الجنسية وربما عن بعض الانتقادات السرية التي كان يتمكن بواسطتها من الحصول على دخل إضافي. وعليه حث ساويرفسكي على اليقظة بالدير ليقر بخطاياهم وليفكر جيداً أن يصبح تاسكاً. دحلاً هكذا حتى وصل فريخوتور بعد عدة أيام من المناقشات الحامية التي دار بها راسيوتين. يقع الدير على تلة فوق تهر (الشورا) وهو عبارة عن بناء ليس في وسط حصرة العنايات وإلى أسفله تقع القرية المحيطة بالكنيسة التي تضم عظام القديس (سيمون العادل). إن أسطورة القديس سيمون لها تقارب مع قصة القديس (فرانسوا). فقد كان سيمون شياً غنياً نقل عن منصبه ليصبح راعياً، ويستغفك أغلب الناس أن عظام القديس (سيمون) لها قدرة على الشفاء فتصده حجاجاً زوّافاً وراعات.

ربما يكون النظام الرهباني الصارم قد أثار استنزاز راسيوتين إلا أن دير فريخوتور كان أشبه في أنفوس جنونه بيت في مزرعة، وحيث أن الكنيسة تقع وسط القرية فقد اختلط القساوسة بحياة العامة اليومية، فهم زرعوا الأرض وساعدوا الناس في الريف المجاور. لقد انقسموا إلى مجتمعين كان أحدهما أقرب إلى السحان للآخر مما حدثا براسيوتين العذول عن أن يصبح راعياً. وتلك هي أخطر النقاط التي شغلت راسيوتين اليها. لقد اتضح لديه أن فريخوتور كانت مستقلة لأعضاء بعض الطوائف المارطونية التي كانت روسياً مرتعاً لها. وأبرز تلك الطوائف هي المارطونية والمكوبونية (التي كان منحدث عنها لاحقاً باسمها).

يعتبر هذا أول تزامن لرأسبوتين مع تلك الطوائف الهرطقة التي حركت
سوائفه كشراً. والتي شكل أتباع الطائفة الخلبسية الغالية المفسد منها في
(فريغوتور) والذين يقعون أيضاً بالخللاين وهم أداس آمنوا بإمكانية بلوغ
ملكوت الرب على الأرض عن طريق الانتخاب. وقد تحدث إليهم رأسبوتين
ووجدوا أقرب إلى دينهم في بواحي عديدة من الكنيسة الأرثوذكسية. فهو
قد وجد هناك - في أقل تقدير - العاطفة والارتباط الحقيقيين.

اتخذ رأسبوتين في فريغوتور صديقاً آخر مع سابوروسكي يدعى ماكاري
وهو نائب كبير معروف عاش في كوخ في طرف الغابات. وبعد قراء (الاعترة
فيلاماريوس) لدمشوقسكي شخصية شديدة القرب من شخصية ماكاري وهي
شخصية الأب (فيريبيت) الراهب الذي يعيش بمنزل عن الآخرين في كوخ
متوح الذي نادراً ما يتحدث إلى أحد. إضافة إلى ذلك هو غير مطالب بتعليم
قواعد الدين. ويضيف ديمشوقسكي فائلاً: «اعتبره الكثير من الزوار قدساً
عظيماً وإعداداً يرغب يقينهم أنه مجنون. . . بل إن جنونه هو الذي شدهم إليه».

لم يكن النامسك (ماكاري) مجنوناً لكنه كان يمتنع بنفس المكاة التي تمتع
بها الأب فيريبيت. فقد كان أغلب الحجاج الآتين للصلاة على العظام المقدسة
للمسيح سيصرون يظلمون منه البركة. وتأثر النامسك ماكاري هو الآخر بشيء ما
في شخصية رأسبوتين ونصحته بتعلم الكتابة وتطوير قراءاته.

قاد رأسبوتين الدير بعد أربعة أشهر مكثاً هناك وتركه علاجاً متأثراً
الكثير من تثير من الناس - نستطيع التخمين هذا من مبالغ المسان الكبيرة التي
أصبحت إليه بعد مغادرته. وصل رأسبوتين، في خفاقة وصلته إلى الدير، إلى
تفاؤله النامة أن حياة الدير ليست بالهديل الأمثل لحياته في القرية. لقد كان تواقاً

الديورية والتخيرية لقا غداًه والامنى بمائه وصديقه سابوروسكي. والنامسك
مناصري وبغداد أدراجة إلى القرية الأم حيث يقرب والد، قدومه بشوق ولحقة.
لقد استأنف رأسبوتين عمله القديم كسائق عربة بعد أن جنى بلور بفاته في
الدير أن أدرك أن لا مكانة للرجلة في حياته ومناوذة مغادرته لبات القرية
ومناوذة أي نشاط غير قانوني تسمح له به قرويف عمله.

لكن تغييراً ما قد حدث دون أن يدرك رأسبوتين ما حدث. فعناية قريته
الأم بوكرفسكي لم تعد تشجع رغبته، فهي قرية صغيرة وأسلوب أفقر من أن
تسمح له. ويقدم لنا الأدب الروسي للقرن التاسع عشر آيات لخط حياة تلك
الذين جسدوا (نيسمكي) و (تشيخوف) و (مخوون) و (تولستوي) ولاجلاً
قد تروكي وستوكب الذي قدم أكثر الفسوف في كتابه (ميليكي يس) و
(الميطان الشافعة) واللذان يوجزان باسميهما أسلوب حياة مثل تلك الأماكن. إن
السلطات التي انفضوا عليها جميعاً هي: - الغباء المطلق المنطوي على الخط والتكر
الذين يكران أهم عناصر الطبيعة الانسانية. ونوع من النظافة والوحشية
والغنى جديداً لا معقولاً فتشعراً للروح. ولا بد أن ديمشوقسكي، الذي تأخذ
المسألة شيئاً أسوأ وسياء سي أن الفلاحين هم الذين قبلوا أبناء يرحق خصيته
(الغلة) وتركوا آثاراً على جسداه، وتركوه ليموت.

ربما أصحح الذين من الوحشية والأفق الضيق لكن الفلاح الروسي ليس
وعدهاً طمعه، يرغب ما قاله ديمشوقسكي فيه. يقول المؤرخ كوستاماروف: «لا
نجد في المملكة المسيحية أرضاً أقل من روسيا ميلاً للحركات الدينية وأقل
تسلطاً لها ذلك أنه هذه الحركات لا تتجسم مع الطبع البارد للروسين في

هكذا أسره وفي تاريخنا شواهد كثيرة على ذلك. فنحن لا نسمع إلا الشكوى من اختلال عقل العاملين في الكنيسة، فضلاً عن لامبالتهم... وآخر ما يتوقعه المرء هو أن تسود اللامبالاة الدينية والانشقاق بين من يملكون زمام القيادة في الكنيسة^١. أشار مشايرو في كتابه عن الانشقاق الروسي أيضاً بقوله: «لقد بلغت اللامبالاة الروسية حيال الدين حداً اضطر معه القيصران (ميخايل) و (اليكسندر) على إجبار الناس على الذهاب إلى الكنيسة بمرسوم قضائي».

كما شهد كتاب آخرون باللامبالاة الروسية حيال الدين. فلروسيا أديرتها وأماكن حججها ورجالها المقدسين، لكن اهتمام الفلاح الروسي البسيط بالدين لا يعلو بمقتال ذرة مقدار اهتمامه بالرياضيات.

لم يشغل الجسد الديني في فيرغوتير حيز الاهتمام لدى راسبوتين، فوالده كان قارفاً للكتب المقدسة، بل إنها الصراحة والصدقة والذكاء التي لم يكن قد عاشها من قبل وما هي الآن تسرق له.

إن كلمة (اللامتصفي) ليست بالمفردة الأمثل لوصف طباع راسبوتين. فبقولها إنما يصح على شخصيف الشخصية وعلى من هو عاجز عن التعامل مع الآخرين وكذلك على من يفند تحت ظروف معينة وهذا لا يقل حقارة عن الذين يراهم هو وغتت ظروف أخرى أوضاعاً. أما راسبوتين فما كان قط انطوائياً، بل إن قدرته على التعبير الذاتي لم تجد لها متفصلاً في قريته. وعنا اقتراح (روبرت هرسيل) مفردة أخرى تتجلى أكثر ملاءمة لنمط الرجال أمثال راسبوتين إلا وهي «امكاني»^٢. فحياة الإنسان تقتضي القبول بعملات معينة، وحتى أشد الشوار تمرداً سيضع حياته القبول والتوازن وكنين أساسيين. فإن تعاضلت ثأثرته

^١ ذكرت في المنشئين الروس للمؤلف فريدريك سي. كوشينورسات هارلاند النظرية ١٩١٢.

أولى أكثر حاجة لركيزة صلبة يقوم عليها في هدي عمله. وإن تجرد من مثل هكذا دعامة فهو لا يعدو أن يكون سفاحاً. بيد أن بعداً آخر للمساءلة لما يزل أمامنا. فكثير من بني البشر قد أحسنوا تكيفاً للمجتمع الذين هم فيه ولبلوا المسلم كما وجدوه. ونمط حياتهم ليس بحاجة إلا للتر اليسير من ذلك التكيف. وهم لا يجدون في البحث في احتماليات الحياة ضلالتهم فانتسبوا لذلك لنفس الأناشيء والمتوحشين من بني الأرض.

لقد تسرع راسبوتين وسط أمثال ذلك الجمع من الناس ووجد في فيرغوتير وحياء له. حتى غداً بين عشية وضحاها «امكاني»^٣ ومعه أضحي هذا المرفس المبهم سؤالاً ملحاً كان فائحة ورغبة صارمة لسلخ كامل لشخصيته القديمة.

بيد أن كثيراً من تلك الشخصية ما انفكت تلازمه بعد مكوثه الأول في فيرغوتير. إذ سرعان ما تورط مع الشرطة نتيجة اختفاء أحد جياذ العربة التي يعمل عليها بعد مغادرته الدير بوقت قصير. وأثناء التحقيق وجدت الشرطة لديه بعد التفشيش واحداً وعشرين روبلاً وهو مبلغ كبير ليافع في سن السادس عشر. لقد أوضع راسبوتين الأمر للشرطة بقوله أن المال الذي بحوزته هو هدية الدير إليه وأن الجراد قد قتل من طوله ليلاً وانزلق في نهر عميق وغرق. فاعطى من التهمة المنسوبة إليه لعدم كفاية الأدلة.

لكن الحظ غداً في واقعة ثالثة غلغلنا سرقوا من عريته حمل قراء وادعوا أنه قطع طرق حاجوه وسرقوا منه القراء. حتى تجلى بعد التحقيق أن السرقة كانت غداً ترك راسبوتين عريته في فترة القيلولة. وعليه حكموه بالجلد والخس فنة قصيرة. كان هذا في مدينة تروبولسك في الرابع عشر من شباط عام ١٨٩١.

(١) العلون: جبل يند إلى ولد ويطول للذابة قريتين متحدة به.

حضر راسبونين لما بلغ التاسع عشرة احتفالاً قهلياً في دير (ابالاكسك) قرب بوكروفسكو. فهو من يشتمعون الاحتفالات الدينية وأقصى طيلة حياته حباً للرقص والغناء. وقد روى زواجه في شارع بطرسبرغ أيام صعوده أنه كان يرحل أثناء حديثه في الدين ورجاءه بالخلق بالثناء وبعدها بالرقص. وربما التقى راسبونين (براسكوفي فيدوروفينا وديروفين) عندما كان يرقص في دير (ابالاكسك). وبراسكوفي فتاة من القرية المجاورة شغراء وحيفة القوام وكانت تذكره بأربع سنوات. ويرى أحد الكتاب أن راسبونين قرر الزواج منها لأنها رفضت أن تهب نفسها وهذا رأي لا ينحجم وشخصية راسبونين. أما الاحتفال الأثري خطأ فهو أن شخصية الفتاة كانت رقيقة تماماً لشخصية فوجد فيها الزوجة المثالية. وعلى العكس. تنصف فتات الريف الروسي بالبداية والسرعة. أما هي فكانت شغراء وحيفة القوام وشديدة الانجذاب وزوجها ذات شخصية طيبة. وسواء أكانت قد وجدت نفسها له. وعلى الأغلب أنها فعلت ذلك - أم لا. فقد أحس راسبونين أنها ليست من اللائي يسهل حجر من فترونها عام ١٨٩٠ - في أرجح تقديره.

لم يصف الزواج بالذي. الأمر شيئاً جديداً على شخصية راسبونين فيما أتاح له عمله كسائق عربات الالتقاء بكثير من فتيات القرية. كما بدأ يضي وقتاً أطول في شرب الخمر يصحبه اثنين من أقرب أصدقائه وهما (بيجركين) وآخر يستأجر يدعى (دافنالي) الذي أصبح فيما بعد ويفضل بقية راسبونين اسقفاً انجوسك. لم يكن راسبونين متديناً على الخمر، لكن حيويته المفرطة كانت بحاجة لنوع من التمسك الذاتي. لقد نقلت روحه مغامرته النسائية باستسلام وطواعية وهو يقول وقد جرى نية يقينها العميق أنه لن يصجرها لامرأة أخرى. فهي سيلة بيت رائعة استطاعت. برزق قيناسي، أثاره شذوذاً الموزعة بمسائية والده الذي منر ناظرينه

ويبدو اميرال في المنزل مرة أخرى مبها. وأنه يفضل في الشيب والخمر في الشرية

شهدات أواخر عام ١٨٩٠ حدثاً غير عادي حياة راسبونين. فقد أصبح أباً لطفل سله له ووجهه ختانه الأبي الذي استطاع ذلك. غير أن الرضيع مات بعد شهر السادس تاركاً الأب مكسر الجوانح وتعظم القلب. لقد عاش راسبونين بأساة القراق مسبقاً. لكنه لم يتذوق أفلاك المرأة التي تذوقها مع رجل نجاة لأنها حيات وساطة في حفاة طفولة سعيدة. كان وقع هذه الزلزال أثقل وطأة راسبونين أن يتخبط في مصير قد يكون مجهولاً كصغير والده. وأرجح احتمال أنه كان الحدث إلهاماً إلهياً (وما يعلنا) يقول هكذا أنه قرر الذهاب فوراً إلى التامك ماشاري ليسأله عن معنى الموت) فأعياه الكاهن الطماني وأعادته إلى بيته. بيد أن التلق ما يرح ولا يرحه وأقصى ذلك الشتاء بزه متكباً على قراءة المخطوطات النحاسية وشرع يصلي وأكعباً على ركبتيه ساعات طوال. ما هنا أدرك القديرون شخصيته الجديدة وغالباً ما تحدثوا إليه حول زيارته للدين. من هنا نال سمعة (الساحر من الرب) وهو ما أثار حفيظة قس القرية (الاب بيترا) مبها وأن الناس إذا أخذوا يتحسسون حول بيته وشرع يتلوا عليهم المخطوطات المقدسة فخلاله فلي أنه يتنوع سبيلاً جديدة للمخطبة. لقد جبر القس راسبونين منذ سنوات عديدة كان يراه لبها قائماً وباجناً وأني شيء سيفعله ذكر (اليزخوفونا) لغير من تشكوكية القس ختانه. فهي ليست سوى معقلاً نامخيشية التي لا تفلح شعاعها لها ما كان شائعاً آنذاك. من اللهب والعريضة الجنسية. وهذا شك يعني أن راسبونين لم يتخط الدين إلا مسلكاً لاغواء بنات القرية. غير أن الأب يتر لم يجرى. رغم ذلك. مساكناً. ثم حدثت في ربيع تلك السنة شيء عجيب. لقد رأى راسبونين وهو يمررت أرضه مسورة العباداء معقولة في الساء وتوهي إليه بيدها فوضع صديداً حدث راعها ورجع بغير أهله ما رأى. وقال أنها لم تكن ترزدي الملائس

التي اعتقد أن يراها عليها في الأيقونات وأحيى أنها كانت تحارب الحفوت إليه.
لقد ترك الحفوت في زوجته أولاً فبما لم يكن له وقع على أبيه الذي قال أن
لم يمتروني بات رجلاً في سبيل الله بفعل كسله، فقرر راسبوتين الذهاب
واستشارة فاكاري ثانية.

لم يكن جوهر الموضوع تلك الرذيلة التي قد تكون مجرد عارضة، فهو قد
قبض الشتاء بطوله يولي وينهل من الدين ثقافة وهو رجل قوي الأعصاب
معبود الطاقة ودو قدرة على أن يخلق المصعة من أيد أو أن يحيل الجو حزيناً متى
شاء. لقد أحاطه نهجه في الحياة فمشر بالخاجة للانقلاب الحذري وهكذا بدأ
يبحث عن حجة ليهجر بيته. كما آمن أيضاً أن الرذيلة برغم شكرتيتها حول
صحتها أو أنها حيلة اصطفاة فيها عقله اللاواعي، هي إيماءة من السماء. وددو
أو الكاهن ماركاري شاطره الرأي إذ أخبره أن الرب قد اختارك خدع جليل
فبذهب وصلي للعلواء في حين (آفون) لشدة من عزم قنوك الروحية. عباد
راسبوتين ليخبر زوجته أنه قرر السفر في حج.

هكذا بدأ راسبوتين في يوم ما من عام ١٨٩١ بمسيرة صديقه (بيجرين)
وسلة الاتي ميل صوب اليونان. وفيها ارتدى كلاهما ملابس الحج وكانا
يظهران أبواب أكرام الفلاحين ليلاً بالأن من دكن في غدا الكوخ يسلخا الليل
سيرة وظلا هكذا ثلاثة أشهر في أقل تقدير. وهي فترة الرحلة. كان الطباع
راسبوتين الأول عن جميل (الوس) باعثاً للأمل وكانت المجموعة التي تظلم عبر
(افون) من الخدم المصاميع الرهدية في أوروبا وفانوها شديدة السيرة وهذا ما حدا
بصديقه بيجريين أن يتندو متصوفاً في الحال. فيها أبعثت راسبوتين تجربته في
أمر فيرسوتور فكان أكثر حيلة من رقيقه. لقد خدعه حذو، إذ سرعان ما
اكتشف فضيحة أخلاقية داخل الدير قليت. وقع الحال لديه عالياً ماقله كانت

أهلاً. في أغلب الظن - بعلاقات أولية بين الرهبان طالما أن النساء محرم عليهن
والجود جيل أثمن. وعليه قرر راسبوتين وقد قطع صوب الجنوب دهرأ أن
يلجأ إلى الأرض المقدسة التي يظنوي الوصول إليها ركوب رحلة لا تقل
سافرها عن ألف ميل عبر الأاضي التركية

لم تقع بين أيدينا لشدة الأسف تفاصيل أول زيارته لسوريا والأردن
لكن زيارة لاحقة له عام ١٩١٢ تركت لنا العديد من الملاحظات تتجمل من
سلاخا بصمات زيارة الحج عليه. لقد كتب راسبوتين:-

يا أوقع كالكوثر. في معبد القيامة تشمخ ملكة النعيم ولعة صرخ أجوف
تطلعت منه والدة الرب صوب تل كلكوثا تذرف الدموع حين سترها ملكتنا
هل الصليب. ولك إذا نظرت إلى الموقع لأعطرت عينك دموعاً وكان المشهد
أشد بدمر أمام ناظريك تارة أخرى.

يا ربنا أي صبح قد اقتفوا لهذا هذا جسده والقبو أيضاً أي حزن
لشخصه وأي حزن بل لسمع وأنت في المكان الذي أزلوا عليه الجسد. يا
الهي... لم حدث الذي حدث؟ لقد كان في عقابك خلاصاً لنا فهل جيتنا من
الأم المزيها

كتب راسبوتين تلك الملاحظات وهو يدرك منا كتب وقد عثر عليها بعد
رحيله. وهي ملاحظات واقعية تماماً لا يشوبها أي تزويق وهي دلالة أيضاً أن
راسبوتين ويرغم حدة ذكائه وقوة أغصابه ليس إلا قروياً عادياً مؤمناً بالخرافات
والقدرة على التعبير (لقد هبطت الرحلة الألية على عمود فجعل منه الرب آية للعالمين أن
عليه وعرضه بأستاده لماذا به لاصقاً على العمود فجعل منه الرب آية للعالمين أن
هذا عاقبة الكافرين)

هناك راسيونيين أقنأه لغيرته وسأراً في طريق العودة به (كازان). حيث تساعد في كتابته راسيونيين صورة العذراء مرتدية الملابس ذاتها التي رآها فيها في الرؤيا فعلن بها أن الحج كانت مطلب النساء منه. (لقد أهدته زوجة القيصر فيما بعد البقرة لعذراء كازان ليحتضني يوماً بذكرى الرؤيا).

استغرقت رحلة راسيونيين أكثر من سنتين تغيزت فيها ملاحظته كثيراً للدرجة أن فشل حتى زوجته في التعرف إليه أول مرة. كما قرر راسيونيين أن يتأخروا بأن تظهر أنه تاجر خيول، غير أنه عييه وصوته فضحا سره. ثم حين وصوله القرية فخرج أهلها للحديث إلى (الحاج) الذي بدا أن رحلاته في الأرض المقدسة قد أكسبته شدة القداسة. إذ قطع في غضون سنتين أكثر من عشرة آلاف ميل وهو لم ير معاشه سكان القرية الذين ما غادروا حدود قرينهم قط. أهم لسوا فيه تغيره هذا. لقد كان يوماً مسرعاً في حديثه وداً به أن يجعل في ذاته صدق. أما الآن فقد كنت عبثاً نظرة ثاقبة زوجته في الناس المريبة أنه إنما يقرأ داخلهم. وقد أكد تلك الحقيقة كل من التفاهة فيما ذكرت ابته أن أباهما كان قادراً أن يبعث الحزن أو الغبطة عند المقابل إلى شيء ذلك. ليس هذا فحسب بل أنه اكتشف في ذاته قدرة على التنبؤ به المتأطفي بجانب القدرة على الترامه وهما خصائصان متضادتان حدثتا مع باقي خصائصه الأخرى، بفلافني فسرده أن يكونوا أول تابعيه لأله. أولاً وقبل كل شيء - قد نشأ وترعرع بينهم وهم الأدنى بمقاماته الخفية وفقرته التي أمضاها في السجن.

لم يراول راسيونيين الزراعة بعد عودته الثانية وأقام له بدلاً من ذلك مصل وأحد يصل عن باقيه لساعات طواك يومياً، لكنه لم يصبح راعياً بمعنى الرحبة المظفني. وأثناء غيبابه، أنجبت له زوجته طفلاً (عائش من توبات صرع) وهي حمبل الآن بابنته الكبرى (ماريا) ثم أنجبت له بعد سنتين ابنة أخرى.

شرح راسيونيين يعتقد جلساته الصلاة في منزله ما أن يجيم الظلام وقد سمع الأب يتر هذا الأمر فتأملت شكوكه حول خليقة راسيونيين. فهو لم يجد للمراس القويون مبرراً. يد أن حضور جلساته ضم الرجال والنساء وهو ما قطع دائرة الشك أن راسيونيين كان يستولف سمعت كرجل دين لأغواء النساء. إلا أن حضور الرجال كان يعني أيضاً أن الجميع قد اشترك في شعائر اللهو والعريضة سرراً على المذهب الخليقي، وعليه تقدم الأب يتر يشكوى لأشقف ترينولسك مدعياً فيها أن راسيونيين هو أحد أعضاء الخليقة.

الاشفاق الرومي :-

اشفق راسيونيين خلال ترحاله في ربيع روميا بطوائف عرقلية (تدعية) ذات أصول رومية. وعليه فإن من الأهمية بكتاب الحديث عنها للمهم روميا راسيونيين وكذلك روميا آخر البياضرة.

كنت قد ذكرت في غير هذا الموضع أن الفلاح الرومي لم يكن بالفطرة دينياً، غير أنه لحديث دبشوقسكي عن (علاقة الوب بالأسكان الرومي) الذي هو مجرد تمثيل تأملي. كان هذا واقع الحال حتى القرن السابع عشر حين أشعل الطوريك (تيكون) فصيل الشعب الثام في الشخصية الرومية ومقتضياً بذلك بداية تاريخ الاشفاق الرومي الذي لم تكن لتيجسه حركة دينية كبحركتي (الكويكرو أو الصحابيون) و (البيودون أو المنهجيون)، بل أنه أسفر عن حركة أدبرت في مشاركتها إلى حركة جمهورية إيرلندا التي تراكمت في سني لرافة الدعاء والعرض في عشرينات هذا القرن.

كان أريكوك معروف في ملامح الدراسات حول أن رجل من حزب روميا أولاده الثلاثة ويعرف إلى القصر (الكسيز) أثناء زيارته لموسكو عام ١٦٤٥، ثم

بات الرجل الأول والأخير في الدولة الروسية. وعين بطريركاً عام ١٦٥٢ وعمل أثناء انشغال القيصر بحروب خارجية كوصي على العرش وحكم روسيا.

فيمز يكون متمصبه وجبروته وقرر اجراء اصلاحات عديدة بالقوة على الكنيسة الروسية التي عانت آنذاك من الاعمال والتي كان لقها بين الجموع مكاناً مرميماً أعطى لسكان القرية الحق أن يأمره بما شاءوا. وعليه عامل نيكولن القسيسة بقلب غليظ وطلب منهم التجيل له وطاعته وإذا ما ظن أنهم أهملوا في واجباتهم أمر بتعذيبهم وسجنهم. كما قرر إعادة النظر في خدمة الكنيسة الروسية وفي كساح صلاتها وكان هذا مجرد سفاقة، تذكر منها أنه أمر بتغيير طقيف في نهجة (المسيح) وأصدر مرسوماً يقضي بإشارة المؤمنين بالصليب على صدورهم بثلاثة أصابع بدلاً من أصبعين، بالإضافة الى تغييرات عشوائية أخرى في كتب الصلاة بأن غير كلمة (المعبد) الى (كنيسة) والعكس صحيح.

لم تكن التغييرات التي اقترحها سبباً لولادة المقاومة الكبرى ضده، بل لأنهم سقنوا أن يستأد عليهم من كان يوماً ضحية. وقد أطلق المعارضون له على أنفسهم لقب (المؤمنون القدماء). وبعد اثني عشر عاماً، فقد نيكولن وبسبب سطوته تلك تقليد القيصر له والذي استدعى (أفاكيوم) - أحد أعمدة نيكولن - من منفاه في سيبيريا ليأخذ مكانه. إلا أن مكياً لم يصب المؤمنين القدماء من هذا التغيير فاستمر الصراع نظامه مآبه بقية سنوات القرن وانتحر كثير من المؤمنين القدماء كان انتحار بعضهم في أحيان مبهمة جماعياً برمي أنفسهم في آتون نار صغيرة (وبمثل هذا المشهد تنتهي أوبرا «بيورجسكي» المسماة «فانتشينا»).

تمخض عن هذا الصراع الدامي نزوات عنيفة لم تكن بالضرورة نزوات دينية. لقد تدانخل حايل الدين بتابل السيامسة في روسيا، فباتت أقرب الى

انجساراً تلك الحقة. ومع هذا ما زال الموت والاعدام الجماهيين والقسوة الشديدة جائزة على صدر روسيا ولدت معها معتقدات لم تكن موجودة في سابق عهدها. من هنا باتت الأرض الروسية بلاداً يشكل فيها الدين قضية أساسية وذات شكل واحد من المسيحية في الوقت عينه الذي كانت فيه الأرثوذكسية اليونانية القديمة هي الشائعة. وإذا، فقد ولد الانشقاق في الكنيسة الروسية أثراً لا يقل بشيء عن أثر الإصلاح في أوروبا، وظهرت بين عشية وضحاها طوائف كانت من بينها طائفتان شديدتا الانسياط ببعضهما البعض وهما الخليليية والسكرتييرة أو (النسوطون) و (المشيهون).

لقد شيع أن الخليليية قد نشأت قبل عام ١٣٦٣ بوقت طويل، وهذا احتمال قائم. لكن الانشقاق الكنسي الجديد قد أعطاهما زخماً شديداً. وثمة نقاط شبه بينهما وبين الطائفة المانوية القديمة التي تقسم العالم الى قسمين هما الروح والجسد. وتؤمن أن الروح هي الخير وأن الجسد يمثل منبع الشر. إلا أن أكثر خصائصها أهمية اعتقادها أن المسيح يقى يعود إلى الأرض كإنسان وهي تفهم (بعث المسيح) أن يبقى جسد المسيح في جده بينما تسكن روحه جديداً آخر ونظّل تستقل من جسد لآخر على مدى القرون. وكان (أفريزيان) واحداً من أولئك (المسيح) الذين عادوا للأرض وقد صلبه (ديمتري دوفسكوي) في ساحة معركة (وايكوفو) عام ١٣٨٠. أما (المسيح) الآخر فكان (ييلجان) الذي فاسى العذاب تحت سطوة (إيفان المريع) استناداً الى ما جاء في كتاب (كارل جراس) الموسوم «(الطوائف الروسية)». لكن أهم (مسيح) جاء هو (دانيال فلييوف) الذي كان لدة نيكولن، فهو قلاح من قرية كوستوموفا، ترك الجيش وساند قضية (المؤمنون

(١) المانوية: طائفة دينية أسسها (ماني) الفارسي (٢٢١٦ - ٢٢٧٦ م) وهي تدعو الى

الآلهة بصفيدة وشبه قوائمها الصراع بين النور والظلام.

(٢) معركة كوايكوفو: هي معركة هاستنجز والتي هزم فيها «ديمتري المنغوليون»

القديس). وعظمت عليه أحد الأيام «روح الله» عندما كان واقفاً على تل
(كورنوث) في (بولوس سباروديوس) في (فلاديبير) على هيئة الآله (زيانوث)
وقد سوك ملانكي ودخل جسد فيلويوف. نطق الخليفة على ذلك به
(الطول الثاني) وتزوج به عام ١٦٥٥ (وهذا استناداً إلى فرديك كورنير)،
يناقض الاعتقاد أن دانيال كان أحد (المؤمنين القدامى)).

استعمل دانيال دعوته التبشيرية في عرية (ستاريا) التي لها في الموروث
الخليبي أهمية لا تقل عن منزلة (المدية) في الدين المسيحي^(١) ثم انتقل إلى
كورنوثوما التي هي (مكة) الخليفية. وهناك أخرج العجيلة الموسوم بـ«كتاب
عوف» الذي يوعظ فيه أن الزواج وشرب الخمر والتفهم عرمات على الرجال
وأن عليهم البحث وراء الشهاد. فإذا كان من بين أتباعه من زوجاً فضله أن يجر
زوجته وأن يسمي أطفاله (قنونا) وأحل له أن يتخذ بدلاً عنها (زوجة روحية)
مضياً في الطائفة الخليفية التي زوجة يتم معها على أقصى فرائض ووجه الساقفة
دون أن تكون بينهما علاقة جنسية.

يبدو واضحاً التشابه الموجود بين هذه الطائفة مع الطائفتين الهندوسية
(المانوية). فهي تؤمن كـ«الهندوسية» بالتجسيد المستمر للرب أو في (افارناس)
ويؤمن كـ«المانوية» أن الجسد منبع الشر (بعد المانيون جرائم القتل أو الانتحار غير
قانونية. لكنهم يعتبرون أيضاً من أصنافه منهم مرضى محظوظة فيحاولوا عندئذ
مساعده بالتجريب والأعمال).

إن أكثر القصص تردداً عند الخليفية هي تلك المتعلقة بطرائقهم في

(١) الدين المسيحي: مثلاً أوريجان المؤلف برغم معركته أن ليس في الإسلام عبارة (الدين
المسيحي).

الشميد. فهي تقام بسرية تامة وفيها يرثي المحدثون ملائكة يقدسون ويتقنون
حول شعلة نار أو حوض ماء مشعشعين بترائبهم. وقد قبل يوحنا في
أبحاثهم.

يبلغ المراد هذه الطائفة التجميع الإلهي عبر أكثر الطوائف وحشية. فهي
ليست سوى مزيج غير سوي من مبادئ الدين المسيحي مع الشعائر الوثنية
والعادات البدائية. وتجتمع جماعة المؤمنين منهم ليلاً في كوخ أو في غابة خالية
الاشجار تضاء شمات الشموع. أما هدايت هذه (الرافيتي) أو المناسك فهو خلق
شبه دنيوية واحتياج جنسي. ثم تشكل جماعة المؤمنين بعد الانتهاء من قراءة
الأنجيل الديني والتراويل حلقه ما يأخذون بالترابيل وفق إلهام معين ثم يمدون
و يدورون بسرعة متزايدة. ويمنح السيد هذه المراسيم جلد كل ناقص يضعف
شباطه من أجل (خلق حالة من الشعور بالدوار الضروري لحدوث (الشدق
الالهي). وتشبه (الرافيتي) يطقوس عديدة شائعة... فالجميع يتلوى على
الأرض في حالة تشوة أو تشنج مبشرين الله من قلبه الروح. لا يملك هذه بل
مر يشب إلى تلك الروح المهيمنة عليه والمسؤولة عن كل صنيع فعله أو اثم
المر. وأخيراً يختم المجتمعون شعائرتهم بإطفاء الشموع ويتجمع العباد بطريقة
سلياً ما تكون نتيجةها- وفق ما أورده أحد الكتاب- سباح القديس.

لا يجب لنا الأخذ بهذا التعليق برغم المصداقية التي يحملها. تلك أمور تحدث
استثناء لكنها ليست بالنافذة. أما وصف (كورنير) فأقل إثارة من سابقه.

يرفض المشتغلون حول حوض ماء (يبدأ بالقبليان ويتصاعد منه بخار
الذي لا يراه المشتغلون بعضهم بعضاً فيما يرددون ترانيمهم ويهتفون بأعاليهم
في حالت بدوهم (الروح المقدسة). ويهللون بعضهم لبعض أن قد بدأ (غراباً

امسوة أو أمأً وطفلاً سيتصاعدان من بخار الخوض. وأخيراً يتهاوى الجميع بعد أن يستنزف أفراد طاقاتهم ثم يتجلدوا للنوم ساعات طوال. وهذه الطقوس غالباً ما تغضي إلى اللهو المعريد بحلول الظلام. وهكذا تستذكر (وليام سرجنت) ونرجسه في تشابه (معركة من أجل العقل) بطقوس للطوائف الحديثة الخاصة بمعالجة الأقمص في أمريكا الجنوبية حين قال:

«يشجلى هبوط الشيخ المقدس في تلك الاجتماعات المحظورة على اليقظ حضورها بحدوث الأثارة المسعورة والارتعاشات الجسدية ثم الأرقاع النهائي فالانتهيار. وتشتت مثل هذه الحالات الخسيرة عن طريق الغناء الإيقاعي والتصفيق اليدوي والأماك بتعابير سامية حقيقة... ويبلغ العديد من الزوار على نحو غير متوقع - حالة الانتهيار والانقلاب الداخلي. ويحضر بين الجميع شاب يقع له هدف مبيت هو اغواء فتيات ثم (انقاذهن) ترواً. والحقيقة هي أن أكتبت المتحفظ يفتي إلى انكسار في الشخصية السوية تاركاً العقل عرضة لأهباط جديدة في السكوكية. وتحوي الطائفة الخليسية دون ريب كماً هائلاً من مثل هذه الألفاظ».

لو اتفقا الرأي أن الخليسية ترجع في نشأتها إلى بواكير القرن الرابع عشر فهي أداً فرع من صوفية قوضورية تطورت في ألمانيا خلال النصف الأخير من القرون الوسطى. والتي هي في الأساس ثورة ضد عقلانية وزهد الكنيسة. ويطاق أتباعها على أنفسهم اسم (أخوان الروح الحرة) ويشروا أن كل إنسان هو (إله) وأن كل حاصر عتيف هو (وحي). فإذا ما تجامع رجل وامرأة في مديح فهذا صاحبان لله كلاً أو أنهما يصليان أو يأخذان (القربان المقدس). لقد أكلت روما قرنين من الزمن لقمع هذه العقيدة أن لجأت إلى القتل والتعليب لأتباعها وديماً لم تشتت أصولها عندئذ إلى البلاد الروسية لأن في الشخصية الروسية حافزاً

صوفياً عتيفاً.

أما (السكوبتزية) فهي تطور عن الخليسية وجرى بنا الحديث عنها الآن لا إزال خلقية صورة الانشقاق الديني الروسي. لقد حكمت الخليسية على (مسيحية) الإنسان على أساس قدرته على تحمل الألم الجسدي. فقد صلب دانيال (باسيلوف مرتين (استاداً إلى موروثها التقليدي). فيها صلبوا ابنه وخليقته (إيفان سوسلوف) ثلاث مرات (سواء بأمر اليكسز أو بأمر بطرس الكبير). وعذبوه بالحديد الحار حتى ملتخراً منه جلده (تجشنت هذه المرة عتلوا في رجل جلده وسلمته إياه بعد قيامه من صلبه المرة الثالثة). توفي فيلوريفوف سنة ١٧٠٠ وصعد جسده نحو السماء. أما سوسلوف الذي حمل لواء دعوة سلفه إلى موسكو وأقام عقه هناك بأن رفض البقاء عتيفاً. فقد توفي بعد ثلاثة أعوام.

عرفت الخليسية بعد سبعين سنة سيدة جليلة تدهن (أقولينا إيفانوفنا) (المعروفة باسم (أم الإله). أدركت هذه السيدة أن (المسيحية) كوسم في رجل اسمه (إيفانوف) ويحمل باسم (كوندراكي سيليفانوف) وبات هو مؤسس السكوبتزية. لقد ذهب سيليفانوف في تنسكه أبعد من الخليسية كثيراً معلناً أن كل الرجال تخصية أنفسهم وعلى النساء قطع عهدهن (أن استطنن تحمل ذلك) وشويه أعضاءهن التناسلية. فأخصى نفسه بالحديد الحار في بواكير عقده الخامس أي بعد وقت قصير من اعتراف (أم الإله) به (ابنها الروحي). ثم ادعى أنه قد أخصى نفسه وعمرة أربعة عشر عاماً وهو ادعاء رفضه حتى أتباعه... في ذلك الوقت كان من يترفع على عرش روسيا (كاترين العظيمة) التي قتلت أو أضرمت على قتل زوجها (بيتر الثالث) وهذا ما أوقعها في مأزق كبير. إذ ادعى سيليفانوف أنه بيتر الثالث تلاه (ديوكاشيف) ولم يفصله عن النجاح في تمرد إلا خبطاً وخبثاً أوقعه في الأسر واقتادوه إلى موسكو حيث نفذوا فيه حكم الإعدام

بوحشية بالغة بعد أن قطعوا أطرافه الأربعة وقسموا جسده خيراً. وأخيراً نجح
مغامر صربي سنة ١٧٩٨ في أن يجعل من نفسه بتر الثالث وتولى حكم لصاوة
(سوفتسكرو) المعروفة الآن باسم يوتسلافيا.

لا يبدو أن أعضاء سيليفانوف أنه بتر الثالث قد آلت إلى ارتداد عنيف
فاكتفوا به سجيناً وقسموه في مصحة عقلية حتى أطلق (الكسندر الأول) بترمه
العرش ساحة عام ١٨٠١ بعد أن كون (أي سيليفانوف) نفسه من رجال المال
والنفوس جمعاً قديراً أحضره أن يعلن توبته جهنماً. كما ألّف سيليفانوف كتابه
(الرغبة) الذي تلقفه القراء دون أدنى، وأخصى يديه مئات البائسين وهنا وفي
هذا الوقت تحديداً هو اسمه من (ايفانوف) إلى (سيليفانوف). وأكمل بعدها
أعضاء أنه بتر الثالث وحل ألباعه حيلة تقش عليها صورة الملك (قد تشبه
صورة سيليفانوف) واحتفظ الكثيرون بصورة الأمير لظلمهم إياها أيقونة فالتفوا
صالحهم أممها توفي سيليفانوف سنة ١٨٣٠ عن عمر تجاوز المائة عام وبعد أن
فضى سنواته الأخيرة معتقلاً في دير (سوفتسك) دون أن يجد ذلك من
ألباعه الذي اتفقوا من الدير مكتبةً يحجون إليه. لقد آمن ألباعه الذين بقي منهم
الألاف بسجني ثورة الكسندر أنه سيلفوم ثلثة جيور (ايركسك) حيث بلغ عدد
تدعيمه نحواً من (١٤٤.٠٠٠) شخص لينتج بقباه يوم القيامة. هذا العدد يتول
أعضاءه نساء ورجال أما الطفل الذي ولد لهذه الطائفة فيشأ وهو يعلم مسبقاً أنه
سيلفانوف من الرشد وأن مصير من يذول الموت هو القتل. وقطع
العظم التاملي لثلاثه ليس اجباراً - كما ورد ذلك على لسان (كروينر) - وقد
يكافرو بإزالة الحيلة فقط.

(١) دوى (روشكين) قصة هذا الشرير ووصفها أيضاً في روايته القصيرة (أبنة الكائن) مثل فيها
صورة العذاب لشاعرة ووحشية يوتسلافيا وناميه الذين كتبوا ما عرفوا عوائل مالكي الأرض
حتى الموت.

أورد (ماتشغول) في روايته (أرملة روسانية) حادثة مثالية عن السكوبيتزية
وقع في العام ١٨٦٨ في مدينة لومبوف ويتعلق بتاجر تزي من مدينة
امورشانسك) اسمه (بلوتستايين). (كان الاعتقاد السائد آنذاك لدى الأقلية أن
سيلفانوف ما زال حياً يرغم مرور (٣٨) سنة على وفاته). ألقت الشرطة القبض
على بعض خديم بلوتستايين لعدم دفعهم الضرائب. لكن سيدهم لم يألو جهداً
لإطلاق مراحهم وهو ما أثار شكوكية الشرطة التي طلبت تفتيش منزله. وفيه
وجدوا مستعمرة فسدت ما يربو على أربعين مكروبياً وصفت معظمهم بـ
(الفتيات القاتلات). فيها غلبت الليونة الرجال الذين يتوالا لاجسادهم وركا
دورك الشام. ولا تتجيز تساعهم اللواحي أجبرون الضليعة عن وجعهم. لقد
حاكمت المحكمة الجميع وأسلتهم معتقلين إلى سيبيريا.

قد يستشفت القاري أول وعلة أن السكوبيتزية ظاهرة الليل من هم
العزوبات الجنسية التي أخذت عليها. بيد أن الحقيقة ليست فيما يشاع من قول
بالنساء شوهرن أعضاءهن التاملية بشكل ظاهري جعل منهن يعتقد باثبات
هوى نحصان مقابل هذا الكثر المشاع على المال الوفير. وأجرو كثير من الرجال
محاولة التحصية بأنفسهم على أنفسهم وأوقفوا قبل غانها. وبثرف أعضاء هذه
المجتموعة باسم (الحشم الأخرى) فميزوا لهم عن أعضاء الفتة الأخرى من
السكوبيتزية التامة الجنسي والمعروفين باسم (الحشم الأعظم). وهكذا أمسى
الاحتمال قائماً بتسلو السكوبيتزية في العريضة الجنسية^(١)

ليست الحالية والسكوبيتزية بالطائفتين الوحيدتين الرئيسيتين اللتين انتظمتا
بامسولين خلال رحلاته في ربيع ووصيا. فثمة طائفة أخرى هي (المداحيون أو

(١) جاء هذا في كتاب (البلل الفلسفة) مؤلفه (بي. ز. كولدريج) - مطبوعات الكتب الجامعية:
لومبورك.

النكاح) وليسها يدغدغ الرجال النساء بهدف أحداث نشوة ونية قد تب أحياناً حالة أجهاد قصوى تنتهي بالموت. وبعد من مات في حال كهذا محظوظاً لأنه بلغ (الخلاص). وهنا يذكر (ب. ز. كولديبرج) العديد من الطوائف التي نشأت فيها حالات الانتحار والتي يبدو أنها ذات صلة بالسكوتيزية. فقد أسس - إيان حكم الكنسدر الثاني- (شروكين) فرقة مماثلة وقاد أتباعه إلى كهف حيث بدأوا عملية التشويه. فأصاب الذعر امرأتين وأهارنا قبل تمام العملية، بعدها نادى شوككين على أتباعه أن يقتل أحدهما الآخر قبل وصول الشرطة. بدأوا بقتل الأطفال أولاً ثم النساء ولم تجد الشرطة حين وصولها سوى شوككين والذين من أتباعه أحياء. قد تبدو هذه الأنماط متناقضة والرأي المزعوم أن الرومي غير متدين بالفطرة. لكنها في واقع الأمر ليست سوى واحدة من المفارقات التي ترسخ بها الشخصية الرومية.

ولا يبدو أن الفلاح الرومي الذي جسده «تشيخوف وكوركي وسولركب» يشار على الإيمان العميق - شأنه في هذا شأن الفلاح النورثدي^(١١) الذي جسده «مورمان»^(١٢) حتى ليشاء المرء أن جميع ذوافهم قد ملكها المادة. وهذا هو السبب الذي يكمن وراء تصديقهم بالمذاهب المتطرفة. فروحيتهم

(١١) نورمان Normands : أهل الشمال. اسم أطلق على غزاة الفايكنج القادمين بالبحر من سكاتلديانيا والذين تغلبوا على أوروبا منذ القرن الثامن. احتل منهم السويديون وادي دنيبر وسبولك وكيف. بلغوا القسطنطينية في القرن التاسع. استعمر النرويجيون شمال اسكتلندا وأيرلندا. واستقر الدانماركيون في شمال شرق إنجلترا. ثم انتقلوا على شكل عصابات من الغرامسة وشكلوا أساطيل مبعثرة من زوارق كبيرة. تسلبوا من مداخيل الأنهر إلى علكة الأفرنج. وبموجب معاهدة ٩٦١ قتل ثم (شارل الثالث) من القاطعة التي حلت اسمهم (نورمانديا) في شمال غربي فرنسا على الأطلنسي. اعتنقوا المسيحية واعتزقوا سلطة شارل الثالث ثم فتحوا إنجلترا في القرن الحادي عشر.

(١٢) مورمان (غني دو) Muupassant : (١٨٥٠ - ١٨٩٣). أديب فرنسي له روايات واقعية تصف حياة الفرويين منها (كرة الشحم) و (الآلة أفي).

ليست سوى رد فعل عنيف لضيق ألق أحيائهم.

ورامبوزين واحد من هذه المفارقات. فاعتقاده الديني كان كاملاً ومخلصاً ومع هذا نجد روحيته تناقض مع الروحية الروسية التقليدية. فهي لا تملك الشرة للاستسلام ولا الرغبة الجارفة للاستشهاد والتي كانت آنذاك الفكرة السائدة لدى القديس الروسي بدءاً من ثيودوسيوس. لقد آمن بمملكة الروح قام الإيمان لكنه لم يهجر العالم وهذا أمر يصعب على الغربي فهمه لأنه يضع العالم والروح في مقصورتين مختلفتين. فهنا يقف (روبرت بيرنر) بينما يقف على الجانب الآخر القديس فرانس من «سيس» (في إيطاليا) يتوسطها الغربي غير مصدق أن الاثنين سيحتلان جسداً واحداً. أما فهم رامبوزين فيشد شرطاً على الاعتراف أنه يملك عناصر كلا الطرفين ولن نجد صعوبة في الجمع بينهما.

تعليق:-

قد تؤكد الملاحظات التالية التي أوردها (جوهانز تول) في كتابه (الموت الأسود) الاقتراض إلى الخليسية ربما نشأت عن « اخوان الروح الحرة »:-

مثل الراحة النفسية الرغبية، في الكنائس الفرنسية، المشاهد الجنسية فشهد لوحة جصية في كاندولايه (البي) تصور لوطيين في حالة اتصال جنسي. إذ كانت اللوحة منتشرة في أجزاء من ألمانيا أيضاً امتداداً إلى سجلات محاكمات (البيكراديين والبيكرين) في القرن الرابع عشر لا سيما في اعترافات اخوان (جوهانز والبيوت) من (بون) والمحفوظة في مخطوطات كرويسوالد. تشير هذه الاعترافات بالدليل القاطع إلى أن طائفة (اخوان العقل الحرة) لم تعتبر اللوحة أثراً

يعتاقب عليه بئساً، فلذا ما بقي أحد الإخوان بممارسة الزناطة مع رجل آخر فلا حرج عليه من ذلك، بل هو لن يكون (أخاً) حقيقياً إن لم يفعل ذلك.

وتقرأ في غطوطة (منشئة) (نسبة إلى عاصمة) :-

الفصل الثاني

«الجوال»

كانت دعوة (راسبوتين) أن الأثم ضروري للخلاص من أكثر القسوس
مداولة بين الكتب. هذه الدعوة نزلها أيضاً (جورج ملفا) في كتابه (راسبوتين
تحدث) الذي يقول فيه : «إن ما أحذركم به أنها هو نقل صادق لكلمات قسوسها
شبح راسبوتين»

اعظم من تعبد فيه المسيح من اتباع الطائفة الخليسية هو (أديف) الذي
اعترف قائلاً :- «كنت منذ كانا أنني اخرق شريعة الإنسان بيد التي اعمل ما
أوحاني به الإله، وعليه فإن من زنت معي من النساء لأشد إرضاء الرب من
الذين اللاتي قبلن من اغترافني. لقد تحول الرب في وأخذ جسدي وهو الذي
ارتكب خطيئة الجسد فهو إذن من سيغفر للخطية، ويمحيط الرب ثوبة من خطيئة
من شأبه غير خطيته وأنا إذ كنت أؤاخذ النسوة اللاتي ضحين بظهرهن من أجل
... لا تتعالي بنقاصه غفلتهن وأي شيء يأتيك به الأثم سيحفل من العزة ذلة
وهالة»

الحق، راسبوتين استطاعوا إلى قوله ملفا من هذا المنهاج، فلهذا :-

يقال القساوسة والراهبات الذين يرفعونهم غيرهم على سلفاتهم، أنني قد عرفت

«عندما يذهب أفراد هذه الطائفة للاعتراف ويسامح المواقف، فإن الزناطة
سيختار من بينهم أجهل فتاة ويفعل فيها ما يشاء ثم تطلق الأثوار ويقع بعضهم
على بعض، رجل يختار رجلاً وامرأة تختار امرأة وكيفما اتفقوا. وأؤمن هذه
الطائفة أن كل الرجال أجهل واية كيف تختصب زوجته وابنته بأم عبيد لظنها
أن لا أحد قادر على ارتكاب الأثم قبل أن يراه في خاصته.

وثمة مذاهب أخرى تباع سفاح الفريش حتى لو حدث ذلك في المنيح،
وليس من حق أحد الاعتراض على حقيقة أن السبح مارس الجنس، عندما قام
من الموت، مع مريم المجدلية. . . وكل ذلك أدلة على فساد والاحلال الأفكار
والخلق الناجم عن الملايا العظيمة مما تلك التي حدثت عام ١٣٥٨. (بيزى،
الشرائح الروسي أن أول ظهور للطائفة الخليسية في روسيا كان في ذلك العام
البعيد).

بالعبادة الإلهية لأقيم العريضة الشيطانية في الغابات. لقد أكدوا ان الفتيات (وهن شقيقاتي) قد استسلمن لمغازلتي فأضرم النيران من اغصان الأشجار ورقصن حولها مشحيات بالترابيل. انه وقد بلغت في فولي هذا الحد اصابوا الخيفة، بيد انهم تناسوا صرختي في الجمع من فوق السن النيران ١- لتخط خطاياكم من شأنكم اولم تحربوا اجسادكم وتفتلوا تباهيكم يا سبصبيكم من خزي ١٩.

ويسمو ان روح راسبيوتين قد نست ان له شقيقة واحدة وانها غرقت قبل بلوغه من الرشد.

ان الإنجيل الذي بشر به راسبيوتين في قريته بوكروفسكو كان وبلا ريبه اقل اثارة من هذا. فليس هناك من مصدر واقعي موثوق به يذكر ان راسبيوتين ابد انشاذ الروح من خلال الخطيئة. ومن الواضح ان مخترع حكاية العريصات الجنسية هو قس القرية الأب بيتر الذي قدم شكوى لأسقف توبولسك وطلب من الشرطة التحقيق في اجتهادات راسبيوتين للصلاة. وتأكد بعض عملي الأسقف، الذي اعجب بشقوى راسبيوتين، من صحة الشكوى ووجدوا مبادي ملهيه أحسن من أن يعلوها الشك. وشتت الشرطة ايضا خاتمتين مفاجيتين على اجتهادات تلك ماعية الى مباحثة شعائر خليسية لكنها عادت غائبة الظن - ربما لان رجل الشرطة الخناسي بالقرية كان احد المعجبين براسبيوتين وكان ينذره قبل ساعة الصفر.

لم يمكث راسبيوتين في بوكروفسكو اكثر من شهر قليل في كل مرة يأتيها. وربما قضى فيها الشتاء بطوله ليحزم حقائبه ويشد ثراحه بحلول الربيع. لكننا لا نملك اية معلومات تفصيلية عما حدث في الأعوام بين سنة ١٨٩٤ (عندما قدم الأب بيتر شكواه) وسنة ١٩٠٠ - سوى ولادة ابنه ديمتري في عام ١٨٩٥

وابنه ماريا عام ١٨٩٨ وابنته الأخرى قارقارا عام ١٩٠٠. استمر راسبيوتين في طوافه ودعوته، وطرقت حكايات شهرته المتزايدة سامع اهل بوكروفسكو. كما انهم انعمه بملكته في التنبؤ وقراءة نأى بها من محاولات الآخرين لخداعه وقدره «بل شفاه الناس من غلظهم بوضع يديه قبل موطن الداء فحسب» (سوف سنعرض قدرته هذه في فصل قادم). وعرف ايضا بكرمه فقد اهداه الكثيرون من اتباعه هدايا او نقودا او تحفا كان يمنحها في الحال للمحتاجين وكان يبعث بال اهل بيته في فترات منتظمة. لقد استعد الكثيرون لإعتباره قديسا، لكن الإسماعاعات ما انفكت تدور حول قابلية (الستاريز) على اغواء اتباعه من النساء. فام طرقت بابا لسباع مراعاة لأصحاب الأزياء أحيانا حين يضمهم المشر لصدرو او يقترح عليهم نزع بعض ثيابهم. وتارة أخرى يعجز المرء أن يفقه قط ما يحدث مع راسبيوتين. فسلكه يتغير بين الفين والآخر لذا نراه يكبح شهرته ويصيح واعظا روحيا اذا ما بدا على بعض من يقابلهم بوادر عصبية. وهنا طفت امرأة أدركت كلا الجانبين من شخصية راسبيوتين انها لا تدري ان كان راسبيوتين قديسا ام شيطانا.

وأرجح جواب لكلا الوصفين هو التالي، فطبيعة راسبيوتين على طرفي «بين مع طبيعة غيره من الرجال المقدسين» الآخرين آنذاك أمثال الأسقف سمعان (الراعي) (المليودورو) او الأب (جون) في «الكروستادت». ان خصلة القديس الروسي هي الزهد، وعليه لا يتجلى راسبيوتين في هذا الأمر روسيا قلباً وهالاً. فربما انه كان باعتراف الجميع نبيا وغاليا ما همام وتجنب شرب السموكا، إلا أن طبيعته كانت أقرب من ناحية أخرى لطبيعة القديس الهندوسي (شامشريشنا او الشاعر الأمريكي (وايتمان) حيث نلاحظ جوانب وإيمانية في يوميات مفرد كوصفه البحر لذيه مثلا: -

أقول لي إن أصف هذا المكون الجليل؟ لقد غطيت «أوديسا» على البحر
الأسود وتلست البحر وبعثاً... وفاسه الحديث رومي وفنت بين موجاته
أفادته... فأدركت حينها أن للروح كما للبحر قوة متلاشية الجلود... ٥٠

تأتي الصفحات التالية، لهذا الوصف، أفضل القاري، كتابات وإتيان
الاندفاع البحر أو بعض صفحات نيتش في هكذا تكلم زرادشت. إذ وقع
راسبوتين في شبك قصور عقل الإنسان فهو يقول: «استيقظت رومي من
غمرها غلغلة بدأت أمواج البحر لتفطم... ما هنا يفقد الإنسان مياد صوابه
ويعني في حادة الصواب. إذ المير دوارا أشد من دوار البحر» رشة نقطة وحيدة
جليه في برميئات سطره لكن من كشها ليس دجالاً فهو قد يتعدى إلى توافه
الأمور لكنه ليس من طراز الرجال الذين يحتفظون ببريقهم في ميوت الناس
دوماً هو أقدر على العيش وحيداً بل أنه يطوف في زوايا نفسه أكثر وهو في
خلوته. وسيطلق فحور صادق أننا أمام شاعر حقيقي، وسيتجلى أيضاً أنه
ورغم من عسق تأثره بالإيقونات المسيحية والرمزية وثياً أو بتعبير أبسط إنسان
مستأجر في الذات الإلهية فيات أذبه والفديس الهندوسي (راماكريشنا) الذي
نستذكره لدى قراءة ما ورد من تعليقات عن راسبوتين كتعليق آتة هنا ٥٠: ٥٠
طريقاً إلى بين الذين والمشفقة، فهو يبلغ ذروة نشاطه وحيوته النفسية في الملمات
الوقعية وأد حاله الآخرون آخرها أو صحيحاً تسيل لروحه أنبهاج عفيف... لا
يعجز عنه وبين وقد الصلاة في روجته. ونحن (يوستوفس) نقصد، وهو الشاهد
المعاني لراسبوتين، الحماسة والروح والأنبهاج الذي يشابه راسبوتين وهو
تحدث عن الملاحظات الدينية البسيطة. مثلك راسبوتين الغلة والطسولية
أحياناً كثيرة، وكان موقفه من الآخرين دائماً وموثقاً، وقد عبر عن حاشته
الدينية بالثناء والرفض وهو في هذا شبيهاً بـ (راماكريشنا) كبرت آتة قاذلة

«كان مولعا بالرفض كالأغلب الروسين... فهو ميتاق معها لشعوره باليقظة
مع أنغام الموسيقى ولا تتصل إلى حد بعيد شوة الإيقاع في رويجه عن الطرب
الذي أدي كان قادراً على الإحساس به في الماضي. لقد كان متدياً لأن قبالته
أدت من نفسها حياً وثقة لا لحاشته الاعتقاد لراسبوتين وراماكريشنا فكلهما
إن جميع المؤمنين مساوية وما اختلافهم إلا في طرائق عبادتهم للرب.

إن من الصعب علينا ونحن نقرأ عن الفترة التي أمضاها في شارع
«راسبوتين» التصديق أنه لم يكن إلا تديلاً عياداً. فقد شهد شاهد أنه كان
يستقبل ملابير المتشرعين، وقدم البنة ذات مرة رجل ثري طالباً مساعدته في
الحصول على امتياز لإنشاء علة حكة جديد يعارضها عليه زمنة ثقيلة من المال
«سها راسبوتين» في جيبه دون حتى النظر إليها وأعدا الرجل بالمعونة. ثم جاءت
يوم ذلك الرجل امرأة فقدت خيلتها للعيش فسلحها راسبوتين الزمنة دون أن
يغصها أيضاً والنظر إلى المحتاج الآخر.

والإن يبلغ الحديث الجنتس أضحى راسبوتين اقرب أواشك منه إلى
راماكريشنا. فهو يراه كالمرفض تعبيراً متجسداً فعلاً. وهو يعكس معاصره
الديني، مؤلف مسرحية ألتا التي حررها راسبوتين، لا تستهويه من الجنس
بالمادة القادرة، قيوت الدعارة تثير اشتيازه حتى يذكر أنه قاطع صديقاً ثرياً له
عدة أيام بعد أن أفضطحه وحبه في عربة إلى أخذ تلك البيوت. إلا أن موقفه
من الجنس وثياً لنفسه أن ممارسة الجنس مع بعض تابعائه المحجبات عطية
أعادت لهاها الرب. ومن ذلك نخرج بالشأن من الامتاج :-

شان الجنس نقطة غلغلة راسبوتين فوجب به لأعداته، الألف الشديد،

مستعملهم عليه. وهو لم يكن مسافراً وما كان الحسب بأمره جماعة في طبيعته الإنسانية. وربما الخلل للكتاب الذين تناولوا هو راسونين الدايونيسي العربي مع ضابحاته أنه اقرب في ذلك إلى زهادته. نيتشه من توبه إلى معظم الفنديين المسجونين.

ما اطل عام ١٩٠٠ حتى ترددت أصداؤه شهرة راسيونين في الحياة سيبريا. كتاب قد أوشك أن ينجح مشقة ثلاثين عسره... رجل نحيف من وسط الطول ذو اكتشاف غريضة، وحية خفية نية اللون يمكن من خلالها رؤية حدود ذكته بوضوح. كانت يدها برغم عشونتها وصلابتها طريقتي أخذت شكلاً مقبولاً. وعياله تكحلنا بثون أزرق مخزرج بلون رمادي مسلطاً بقوتها لأفكاره القليلة. لكن التعجب العام لوجهه طبا مشوشاً حول من حشوها. وكانت له صلعة خفيفة في أبل جبهته عليها ما يشبه التلعة، وهم يوتنوف أنها تحت من النكسة تعرض لها عندما اتهم بمرقة الخسول، ربما كان حل حق فيها وهم، برغم أن راسيونين اودع في السجن نهمه الحث باليمن فقط. أما شعره الطويل التي فكان مقسوماً بخط وسطى. كان سلوكه منشأً مقعماً بالحيرة الكريمة وغدو وجهه وأضياً بلها كالطفل عندما يرى أجداً يحبه بما أكسبه شعبة بين القدر بين الذين تحت قسوة الحياة التي يعيشونها للتعبير الطبعي الحميم عن وجودهم. لقد طغمت شهرته الواسعة كمعالج للسرور من خلال قدرته على الترويح المتعاطفي. ومن زعمته لعدل الحيز والتي شككت في حقيقة الأمر الحزوة الأهم من قدرته على الترويح المتعاطفي لما لها من سحر على مقاومة المرضى

(١) مسافراً: نسبة إلى مسافر الذي هو الله من جهة الغابات عند الآخرين، كان يسيّر بولوه الشديد بالضعف المعربة وانتهائه في الملل.
(٢) دايونيسي: نسبة إلى دايونيس اله الخمر عند الاقريق.
(٣) لم يكن طريقاً وضخم الخفة كما أكد أغلب كتاب سيرته الثلاثة.

لهم شعور الشقة فيه. ولا يقدرون عليه مسحة الخطر التي إلى هو النقيض التام نوع الرجل الذي وصفه كتاب سيرته الأولى في كتاباتهم. ذلك النوع المخيف، البعد البصره المهيب الجانب من الرجال. إن من جسر له الحقد والكراهية من الرجال هم أولئك الذين أتوا بتجاربهم وليس سواء أو من أولوا اهتمامهم اعتبارات الاضحاب اليهم والذين وجدوا في طرازه تجديداً وفي سحره مكرراً وألفاً. لقد شعروا فيه بمثلما تطلعون إلى قابلية على تغيير نبرة صوته أيقدم مقعماً نادراً على اصصاع الآخرين لأفكاره بزعيم لمحنة السيرة القليلة وكيف أنه تفادى نوع الانطباع أنه ليس البيان بترده في الكلام بل ويتلصقه قليلاً.

حاول راسيونين جاهدًا البقاء يسأى عن الشرطة بعد «تحويله» لكنه تروط في جليد في الطول سنة ١٩٠٠ مع قسم شرطة حي فيركنا في تورينسك حين أفضت واقعة مشجولة تدهي الجواليرا نيكولا قتيلا. أن راسيونين أراد قطعها عندما إلتهم صدفة، وهي على جنادة طريق بين أفاكاست و «كازان» في الجليدي والثلثين من ألب، وهو يحاول اعتصامه طفاً في منزوعة قرية فلاحتها عبر المنقول لكنه عرق في النهاية عن مطارقتها عندما حل الظلام. لقد كانت واقعة هام الشقة بأنه كان يتوي قتلها، وتخلت مشقة السفر ثلاثة أيام لتصل لتورينسك في الثاني من ايلول.

عاصر الثلث الشرطة. فبالأمة نعمل واقعة جولة مع فرق سيرك ويزرق سرورية الطوف بين المدن. وربما استجوبتها الشرطة عن سب قطعها معاملة رجل عن مسرح الحوادث لتصل لتورينسك بينما كانت «كازان» على بعد اربعين ميلاً. (وكان كذبة قطعها كل تلك الأميال في ثلاثة أيام فقط).

وعلى أية حال لم يتم الوصول إلى راسيونين، ولا حماية في ذلك. ولم تمت

إفادته بالجرم المزعوم. وعندما أمكن لاحقاً مقابلة راسبوتين لم تستطع الشرطة إيجاد المرأة التي كانت ربياً ترقص في الجانب الأخير من مسرحياتها، فادرجت الشكوى في أرشيف «الرقم ١١٥». كانت الشرطة بلا شك عقيمة في شكوكها حول صحة وقوع الحادث حيث لم تردها أية تقارير عن حوادث اغتصاب أطفال وانحصرت القضية بين شكوى المرأة ودفاع راسبوتين. فإن كان هدف الإدانة تشويه سمعة راسبوتين المتصاعدة كرجل مقدس للقضية، تقصدها المرأة فتحسب أنها لم تنهه من نفل عاقلة به ولو برشته ساحة فإن الهدف لم يحقق غايته.

ظل راسبوتين طيلة عشر سنوات مناهجاً جوالاً لا يأوي بيته إلا في قراقرص مساعدة. ولا تملك أية معلومات عن أحواله في تلك الأعوام أو أسماء الأماكن التي زارها، إلا أنه الواضح أنه ترك أحسن الأثر في مدينة «كازان» التي كانت عاصمة «الكيولدن هور» والتي كانت اقرب للطابع الشرقي منها للطابع الروسي. يستهل أحد كتاب سيرته حديثه بوصف مقعده بالحياة في «كازان» وراسبوتين عفاطاً بجمع من المؤمنين ومعتنقيهم من المرضى الذين قدموا للعلاج. وهناك مشهده يصف فيه راسبوتين مشلولاً أن أوعز أنه بالتهووس والمشي فقط. بهذه الواقعة أساس من الصحة فهي تؤكد في أقل تقدير شهرة راسبوتين كطبيب في «كازان». حيث أقام هناك صداقة مع عائلة كالكوف التي مكثت معها ابنة ماريما سنة ١٩٠٨.

حكى ماريما أولاً ذكرها بأنها من أبنائها حين شاع ذلك. ومعها شقيقها ذيتمري رجلاً غريباً طويل القامة ذو لحية بنية طويلة وعينين غريبتين باصرتين مودعتين في وجهه رسم عليه الاجتهاد ملاحة... وحاملاً لحلية وكان يمشي منهكاً. كان

(١) القيلة الذهبية.

(٢) كتاب هينز ليغان: راسبوتين... تميم جديد.

بعد كأحد السواح الرحالة أو المغنين الذين يقصدون قرية بوكروفسكو عند هبوط الغلام لينبسط الليل عند الملاحين... لقد فشلت حتى زوجته في التعرف عليه حينها ومالكه... ماذا تريد لهذا الرجل الطبيب؟ وذلك دلالة أن سهراته سبخت من الزمن دعواً طويلاً لم تتوقع فيه زوجته أن تراه ثانية.

تضيف ماريما راسبوتين أنهم دخلوا بعدد كبرشهم، ولكن العنوسة التي حصدتها عن منزل راسبوتين في بوكروفسكو تظهر لنا بناءاً مستعديلاً لا يمكن وصفه بالكبرخ وهذا ما يقصر إلى القول أن شهرة راسبوتين كطبيب لم تأت عليه بالسر من المسال. ثم انتقلت العنائلة بعد عام ١٩٠٣ بوقت قصير إلى البيت التاسع ذي الحديقة والغناء في شارع بوكروفسكو الرئيسي، وهو قول يعني أن عام ١٩٠٣ كان نقطة تحول في حياة راسبوتين ففيه بلغت شهرته طبقة النبلاء بعد أن كانت مقتصرة على الفلاحين فقط.

لا نعرف تحديداً من المسؤول عن قتلهم راسبوتين شارع بطرسبورغ، بناءً أن ادعاء يفتي كتاب سيرته يقول أن امرأة ثرية من كازان تدعى «باشا كوف» أكرمه واتت به بطرسبورغ دون أن يعرف أحد عنها شيئاً.

بعد محصلة أن الفضل في «الكشف» راسبوتين يعود إلى «الغرائقة» (ساريسا) وهي إحدى أخوات والدهما الملك (نيكيتا) ملك (مونتسكو) (الواقعة في «مستعمرة» الآن إحدى البعثات الأخرى في «استونيا»). وقد افترقا بطرسبورغ هما «نيكولايفتش» و«نيكولا نيكولايفتش». كانتا تعبران نفسيهما، شأنهما في ذلك شأن جميع نساء الطبقة الراقية في شارع بطرسبورغ، «محفلات» حيث كانتا يهيمون بالدين، المسرح، بالروحانيات وبالتنويم المغناطيسي. وقد كان لماريما

(١) «الغرائقة» أو «الغرائقة» لقب يعطى للشخص الذي يمشي في الليل وأحد القاصدين.

عظيم الأثر على زوجة القيصر التي دأبت على حضور جلسات تحضير الأرواح لفترة من الزمن لكنها انقضت عن ذلك بعد أن قال لها مستشاروها الروحانيون أن هذا من عمل الشيطان، وقطعت بذلك علاقتها بالرونتكريات^(١). ويذكر أن ميليتسا هي المسؤولة عن تعريف مشعوذ غريب اسمه فليب بيزير - فانغوت بزوجة القيصر (والذي ستحدث عنه لاحقاً).

يقول السير برنارد بيرس المطلع على أسرار القصر، وقفة أن ميليتسا هي التي اكتشفت يامسويتين في كليف^(٢) حينما كان ينشر الخشب في قناه دير على الأغلب. «دعته لزيارتها في شارع بطرسبورغ»^(٣) ومن هنا، حينما تذكر أيشه مازيا، بدأت شهرته بالإزدياد وغدا يحيطه ليوكوفسكو نافذا جداً.

من المؤكد أيضاً أن أول زيارة ليامسويتين لشارع بطرسبورغ جاءت في عام ١٩٠٣. وطبقة الشقاء المظلم حين آثار اهتمام الأب جون من كرونستادت^(٤) وهو المستشار الروحي لزوجة القيصر.

كان الأب جون ميرجيفيتش قديساً عبقرياً مشهوراً بقلزته على النبوءة. عين لنا كرونستادت سنة ١٨٥٥ وأصبحت كنيسة خلال عقد من السنوات تقريباً مكان حج مشعور. ثم عدا القس الخاص باعترافات اليكسندر الثالث قبل أن يصبح الرجل الأقرب للقيصر نيقولا. امتلك الأب جون جميع سمات الدلائل الروحي للقيصر فهو من الناحية السياسية رجعي من الدرجة الأولى.

(١) يقدم هنري ليمان رواية تختلف عن هذه، فهو يدعي أن البوليس السري اكتشف يامسويتين في بداية عام ١٩٠٢ وأن الأمير براكوف، أحد قادة الاتحاد روسيا المخلصين، وجد فيه إمكانية الانسحاب بأبطال تأثير مختلف المشعوذين و (غذائي الشجرات) في البلاط القيصري. لكن ليمان لم يشرح لنا كيفية التي التقى بها الأمير براكوف يامسويتين في كلان.
(٢) كرونستادت: مدينة صغيرة تبعد قرية من بطرسبورغ.

أما منطلقية الحكم الأمبراطوري، وهو حيال من الناحية الاجتماعية لأراه القسوس الأوسطي لكنه كان روحانياً حيث أوجت كتاباته كأجندى تقاليد الرومانية الروسية وما زال الكثير من الوافدين في روسيا يمدونه في قائمة القديسين. أشهرهم الأب جون بقوة وحشالة صلاته وقد حقق نجاحاً كبيراً في شفاء المرضى بفضل صلواته العلوية الملحة قرب أوتريتم. وأقام الأب جون أيضاً نظاماً مدعماً في الإضراب الخاص حيث اقترح وجوب اعتراف الخطي. يلتزمه بصوت عالٍ بين هم العتارين طالباً التنبؤ (بسبب اكتظاظ كنيسته بحشود المعتزفين المتطرفين من هذه الطوائف القريبة)، فيما درجت العادة في روسيا على وجوب اعتراف الملتب قبل تناول القديمان. أنه لمشهد عظيم الأثر الذي ترى أمامك منات، بل الآفة الناس أحياناً، يعترفون بأنهم بصوت مدوي وهم يحشون باليكا، وينالون على صرخة بالسرير.

بلغ الأب جون في عام ١٩٠٢ من الرابعة والسبعين عاش بعدها خمسة أعوام أخرى قضاها، وحين استطاع لللك ميلا، في كرونستادت لكنه قصد أيضاً شاندالية في شارع بطرسبورغ للاحتفال بقداش حيث التقى يرامسويتين أول مرة.

نصف الرواية المتداولة طريقة لقاء الأب جون بيامسويتين. إذ جعل الأب جون العرايين القديمة ورود: «اقرب بدعك انك بالرب وحشيتك منه» وصرخ فجأة قائلاً: «قف» مشيراً إلى حاج ملتح رث الشياطين واقف في مؤخرة الكنيسة. «وقد كان يامسويتين» وأمره بالإقتراب منه. ثم ياركه وطلب منه، (دعك هشة الجميع، ان ينادله التريك

لم تكن هذه القصة حدثاً ملفقاً، لكنها لم تكن - وفق افتراض غولوب

مبيل - دليلاً على تبصر الأب جون الروحاني، وحقيقة الأمر هي أن راسبوتين كان قد التقى القس في اليوم السابق ليوم القداس ودينا زار الأب جون وزوجته في منزلها في كروستادت. ودينا لم يعتمد تقييم القس لراسبوتين على ادراكه الحسي بروحية راسبوتين. لقد كان راسبوتين آنذاك رجلاً منزهاً كالأب جون الذي لقبه معجروه بـ «العراف». فقد تطابقت وجهات نظرهما بالأيان بالسلطة المطلقة للملك ووقاحة الليبراليين (الشحريين) والتأثير المسموم لليهود. أن راسبوتين العذر في أفكاره هذه فهو، على التقيض من الأب جون، جاهل بالسياسة، وأن من دواعي الفخر أنه أصبح، بعد خوضه التجارب، خصماً لمناهضة السامية^(١١) ومتعاطفاً مع الليبراليين لكن وجهة نظره لم تتغير من ناحية التبعص ومطلقة حكمه.

استغرقت زيارة راسبوتين لشارع بطرسبورغ سنة ١٩٠٣ خمسة أشهر في أقل تقدير أي حتى أواخر شهر كانون الأول حينما يذكر الناسك إيليو دورا، ومن المعروف أيضاً أنه زار مدينة «ساروف» قرب «نيتي نوفكورد» أثناء حجته إلى بطرسبورغ في أواخر شهر تموز. وقد فرغ القبر، في ذلك الحين، قسم ناسك يدعى «ميرافيم» لقائصة القديسين على أمل أن يشفع هذا الأخير الرب لولادة نجل للقبر يكون وريثاً للعرش. وتعليقاً على ذلك يقول مؤلف «مقطوع الرومانوفيين» المعادي لراسبوتين:-

حضر راسبوتين، النبي، السمعة والمجهول الموهبة لقادة الكنيسة، والذي كانت قسماً بعد عظم أعجابه العامة، مراسيم إعلان القداسة هيئة حاج رجال أو (سنتاريز). لقد صلب طويلاً أمام المزار القضي الذي يضم رفاتاً، وكان وريثه في

(١١) ويمؤد له الفضل لاحقاً لمراسيم صدرت من القبر لصالح اليهود.

السجود مقروناً بنشوة ما، ثم أعلن أمام الجمع الحاشد نبوته التي تبشر بمسحرة جديدة قريباً وإن السنة لن تنقضي إلا ويولد وريث العرش الرومي الذي انتظرت البلاد كثيراً باعثاً الفرح في قلوب الناس.

وهذه نبوة راسبوتين. فقد ولد الزويت، الذي سليلعب راسبوتين دورا كبيراً في حياته، في الثاني عشر من آب سنة ١٩٠٤. لكن القس ولد، لسوء حظه، وهو يعاني من الحموفيليا الوراثية.

أنفسى لقاء راسبوتين بالأب جون إلى قطع خطوة التجري قريت راسبوتين أكثر نحو العرش. فقد أرسله الأب جون إلى الأرشمنديت تيوفان مستشار الأكاديمية اللاهوتية في شارع بطرسبورغ. كان تيوفان شخصاً مقرباً لزعمة القيصرة وهو روحاني إلى أبعد الحدود ورجعي من الناحية السياسية، ومسرور فلولوب مبيل قصة هي من بنات أفكاره تحكي أن القروي راسبوتين، الذي كان يقيم في مقبف الزوار في الأكاديمية، استمع إلى نقاش دائر بين طلبة علم اللاهوت الذين دعوه للمشاركة في النقاش بقصد السخرية من منطقته والذين أدركوا، ما إن بدأ الحديث، أن بصيرته البسيطة والناظفة في المخطوطات المقدسة لأعنى بما درسوه في الكتب، فشرحوا بجيوبون في أفكاره وغاب عنهم دخول الأرشمنديت تيوفان رئيس الأكاديمية الذي كان عصباً صغير البنية ذا هيبين رفاقين حيلتين. استمع الأرشمنديت لنقاشهم لفترة وجيزة ثم بدأ يسأل راسبوتين بعض الأسئلة لا سيما تلك المتعلقة بمعنى الخطيئة، فاجابه الموجيك قائلًا: «لقد شجب متقدنا والآباء المقدسون الخطيئة لأنها من عمل الشيطان... لكن كيف ينسب لك طرد الشيطان، أيها الأب، دون التوبة الصادقة النصوح؟

(١٢) الأرشمنديت: كاهن في الكنيسة الشرقية يلي الأسقف بالترتبة.

وإني لمت أن تصوب تربة خالصة دون أن تأثم^٩ ثم نوم راسبوتين الأرستنديت
توبيا مستطلياً عندما حاول الأخير الإجابة... فلم تكن إلا «عيون راسبوتين
المنرفة المنلثة» تصع النقاط على الحروف. امسح الرجل المعجوز الليل مقكراً
بما قاله راسبوتين وما أن اتبلج الصبح إلا وتبليت لديه القناعة أن راسبوتين
حق فيما ذهب إليه واقترح أن يقابل راسبوتين الأسقف (هيرموجين) أسقف
«ساراتف» (والذي وصفه ماديا أنه الرجل الأكثر شعبية في روسيا). ثم ارتأى
كلاً الأرستنديين انضمام راسبوتين «للاتحاد الروسيين المخلصين» وتقديم يد
العون لهم في طرد المشعوثين والدجالين خارج البلاط القيصري.

لقد ابتدع فولوب ميلر مسألة التنويم المغناطيسي لإيضاح كيف بلغت
القناعة بهذه اللامنتظية المسيحية رجلاً له خصال تيفان، (ولأجاب أي رجل
كيسة ارتدوكسي: كلنا تأثم طوال الوقت فلماذا نغالط أنفسنا ونسعن في الائم
فنفسول نحن لا تأثم؟) لكن ميلر لم يشرح لنا سر انخداع تيفان براسبوتين حتى
بعد انحلاء اثر التنويم المغناطيسي ولا الصدمة التي تعرض لها تيفان، في
ستوات لاحقة. عندما وصلت انباء نشاطات راسبوتين الجنسية المريعة.

يورد لنا برنارد ليبس رواية أخرى هي الأدق على الأغلب قائلا:-

ظهر راسبوتين في أكاديمية بطرسبورغ الدينية في التاسع والعشرين من
ثانون الأول سنة ١٩٠٣ وكان قروياً يحمل «الجسم متوسط الثغمة» ذا شعر قفر
طويل يندلى على كتفيه ولحية متشابكة وعينين ومادتين ثابنتين عامضتين تحت
حواجب كثة تغرقان في نور مميز لو أطال النظر على شيء. تميزه رائحة قوية
نافذة. زرع أول الأمر رجلاً عظيم الأثام وأمسى الآن عظيم التوبة والندم قادراً
على استبطاء قوة جياوة من التجارب التي يمر بها وعلى هذا الحال قابل تيفان.

صمت الأكاديمية الدينية آنذاك شامياً فريد الحصال كان يتدرب على
الرسامة وعرف لما بعد بالناسك إيليدور وهو الذي نقل لنا هذه التفاصيل عن
قدم راسبوتين للأكاديمية. كان مشيراً كراسبوتين لكنه اصغر سناً وهو يستحق
ما اهتماما ودراسة أكثر. كان قروي الأصل واسمه الحقيقي سيرجي ثروبانوف.
أصبح قساً لتسارنتين^{١٠} بعد سنتي دراسته في الأكاديمية تحت اشراف تيفان.
ومرمان ما ذاع صيته بفضل بلاغة وقوة مواعظه ثم اطلق على نفسه لقب
ساولانولا. وتظهر لنا صورة التفتت له مع راسبوتين والأسقف هيرموجين
وهنا هزلاً ذا وجه متغولي الملامح، وجنتين عاليتي العظام وشعنتين رقيبتين
نيران عن الحزم وعينين ثنائين عن الطرف.

تيل إيليدور أيضاً يعوقه السياسي. فهو رجعي حد العظم، مفت اليهود
والعكرين، آمن بمطلقية سلطة القيصر من جهة وصوب جام غضبه على طبقة
السلامة. وفادى بشيوعية فلاحية يكون القيصر القائد الأعلى لها من جهة أخرى.
حاولت معظم مواعظه مسألة فساد الأخلاق وانحطاطها - وذاك كان صحيحاً الى
حد بعيد - أو قضية شجب المذهب الروحاني، وهاجم أيضاً الإدارة واللاكفاءة
التي تملكت بها الجهات الرسمية. كان شديد اللهجة في حديثه وغالباً ما ترجو
أن يكون معشداً لكنه كان في موقع الأقوى. إذ أحبه القيصر وحماه تيفان
هيرموجن وأعجب به، بل تعبدوا، أغلب اتباعه. ودعا، متأثراً بدستوفسكي
على الأغلب، إلى تأييد الاتحاد السلافي واعتقد أيضاً بأن للشعب الروسي «صلة
الرب» وعليهم تجنب الغرب الفاسد.

وفكر بمشروع إنشاء دير بسميه «ساوث نابورا» ويكون حراً للنساء

(٩) ملهنة سوفيانية تقع على نهر الفولغا.

(١٠) عن سلافيا وهي مقاطعة في شمال بولندا.

الخالص. لقد دوت عليه مراعاة التقدة ارباحاً طائلة لكنها لم تكن تكفي لإقامة الدين. لذا دعا الجميع للتبرع بالعمل والمواد وشرع ببناء نفسه. يتميز هذا الدين بروح مرتفع على كل شيء يطرق صوته الواعظ الجميع العفير... وواشك على تحقيق حلمه هذا لولا خلافه الأخير مع راسبوتين ولكنه آمن، مثل تيوفان، بظهارة راسبوتين فقد التقت فلسفة راسبوتين المتعلقة ^(١) بالبدن من خلال الخطيئة مع رفضه المثالي والفاسي لكل مساوي عصره. كانت بيوريتانية باغية فهو يزور المراقص وصالات القمار ويصوت الدعارة ثم يعتزل المنبر شاجياً لها فأكثرت رواياتها الاثمين بالأسماء. وكان يرفض المشول أمام المجمع الكنسي المقدس لئلا يضطر للإجادة على استئثارهم حول أفعاله المتناقضة تلك، علاوة على ذلك كانت مشاعر العامة لصالحه لدرجة يصحب على السلطات معها اتخاذ أي إجراء قمعي ضده.

يروي قولوب ميلر قصة طريفة لا تملك ركيعة من الضحكة حول أول لقاء بجمع راسبوتين وإليودور. فهو يقول أن تيوفان وهيرموجن اصطحا راسبوتين للقاء إليودور الذي كان ساجداً على ركبته يصلي فانتظر صبره الثلاثة فراغه من الصلاة احتراماً له لكنه استغرق في صلواته طويلاً حتى ضاق راسبوتين ذرعاً بالانتظار فمقاطعه قائلاً له بلهجة عنيفة «انك تحسن في الصلاة ولكن كف عن مضايقة الرب بصلواتك فحسنى هو يحتاج للراحة أحياناً، هيا انفض فهذان الرجلان لديهما شيئاً يقولانه لك». ذهل إليودور ولم يعرفه ماذا عساه أن يريد عليه. واستناداً لتحليل قولوب ميلر فقد اختلطت مشاعر الكاهن نحو راسبوتين بين الحب والامتناع والعجز والخوف والإعجاب وظلت كذلك.

إن من الصعب تصديق هذه الرواية لأن إليودور لم يكن حينها إلا طالباً أكاديمياً مسهوراً باللاهوت فليس من المعقول أن يحدث مثل هذا التصارب بين

(١) البيوريتانية: التطهر، التزمت.

الشخصين.

والحقيقة الأرجح هي أن الإعجاب بشخص راسبوتين لا سيما بفكره المجمع الزاهد كان مستهلاً لعلاقة إليودور به وبات من طامعها نصيره الأثمد حاسماً. لكنه أصبح بعد ذلك عبوه المدود وتآمر على قتله ثم اعتنق الشيوعية وكتب كتاباً شجب فيه راسبوتين وشوه سمعة العائلة الإمبراطورية.

قدم تيوفان وإليودور راسبوتين إلى من هو أكثر نفوذاً من كليهما وهو اسقف ساراتوف (هيرموجن) الذي وصفه ماريا بكونه «الرجل الأكثر شعبية في روسيا». كان هيرموجن لولب الحركة في «اتحاد الروسيين المخلصين» وهي حركة مؤيدة للاتحاد السلافي وتوعظ بمناهضة السامية والغريبة وتؤيد السلطة المطلقة القبطية. وقد كان لها أيضاً مناصرة قوية في البلاط الإمبراطوري - (من الملاحظ أن روسيا كانت دائماً مهداً لحركات مناهضة السامية وشهدت مذابح منتظمة ضد أخصار السامية في كل حكم وروسيا تفوق القيصرية على مثل بعدد اليهود الذين قتلوهم).

بسم راسبوتين بقوته وصدفه تأثيره على الاثنين. فقد كان قروياً يعمل بعض تبوؤة ديمستريفسكي التي تبشر بزواجية متجددة تليق من المرجح الروسي. وشاطرهما إرادتهما السياسية حول اليهود والقيصر وحول الرسالة الإلهية التي يحملها الشعب الروسي. لم يكن كلاهما قطعاً لبدرك طموح راسبوتين وإن صدقه مفرون بدعائه القروي فهو لما ليس بالرجل الموعود سيبدو أن زيارته «الساروف» ونبوته حول ولادة ولي العهد ما هي إلا محاولة مبكرة لجذب انتباه القصر وزوجته.

لم يكن راسبوتين طموحاً بمعنى الطموح... فهو لا يملك المال ولا

يطمح نفوذاً سياسياً. كان متسلطاً اجتماعياً نشد الشهادة له بالعظمة من مجتمعه. وهو شخص أرغى الحيلال لرغبته أن تقوده للسلطة وأدق منها للنفوذ الشخصي. فقد كان يدرك جيداً أنه أقوى من خصومه أجمعين وأراد أن تشهد له روسيا بذلك، ولم تكن محاولاته الجاهدة في التقرب من السلطة إلا لأنه يرى أن قوته الشخصية يجب أن تقترن بقوة قائلها وليس من قوة في روسيا أكبر من قوة القيصر السامية. هذه الرغبة في السلطة هي سر بغاءه في شارع بطرسبورغ حتى عندما أدرك أن السلالة الحاكمة تنهار وأنه سيتهيئ بنهايتها. لقد شعر أن بوسعها تغيير مجرى التاريخ ولم يشكك في هذه القدرة قط. حتى عندما لاح جلياً منذ التاسع والعشرين من حزيران عام ١٩١٤ أن المستقبل لا ينوي أن يغير مجرى أحداثه.

كان لدى راسبوتين الاستعداد. بدءاً من عام ١٩٠٣، للغموض في مجرى التاريخ الروسي. وضروري لفهم ما سيلي من أحداث أن نلقي نظرة على القوي القبلحية التي واجهها آنذاك.

الفصل الثالث

"تاريخ كالكابوس"

سقط من على صندوق نيقولا الثاني ولما توج على عرش روسيا وسام. وعينه المديس أندرو، وهو أحد أوسمة العليا قلن به القيصر نذير شؤم مبحوم على حكمه. وما عبق شعور النشازم لديه مقطوع بعض الألواح الخشبية المغطاة بالادق أعدت لأغراض التدريبات العسكرية في ساحة هودينكا، تحت وطأة ثقل الجمهور المحتشد الذي جاء لاستلام هدايا القيصر في يوم تنويجه، وهو ما تسبب في مصرع أكثر من ألفي مواطن سحقاً تحت الأقدام. لم يعلم القيصر بهذه الحادثة بإدريه الأمر وطلب من أحد مرطقي البلاط أن يواصل المحتفلون واستسلم، لكن الأمر ملكه حين علم بالفاجعة فقرر الذهاب إلى الدير للصلاة على أرواح مواطنيه الأبرياء، لكن مستشاريه شوه عن عزيمته وأرشدوه أن يحضر بدلاً من ذلك حفلة واقصة أقامها السفير الفرنسي بمناسبة التنويع. فلا غربة إن دعت ظروف كهذه أن يقال لأغلب المؤرخين أن نهاية ماساوية لحكم نيقولا قد أسست أمراً مقضياً.

بعد أن تلك اللامعة، سواء أكانت قدراً أم حادثاً ما كان لها أن تقع لولا وجود راسبوتين وزوجة القيصر، فأولا وجود راسبوتين لربما ما كانت هناك ثورة أكتوبر. ولولا مزاج زوجة القيصر وأهواؤها لما كان راسبوتين الحاكم الفعلي لروسيا.

قد يتفرد هذا الحدث التاريخي بالدقة التي تم فيها وصف مبياته، غير أن تفهم أسباب سقوط الملكية الروسية يتطلب تبعا لمبياته عبر قرون عديدة قد تمتد الى ما قبل إستلام ثلاثة رومانوف الحكم.

إن تاريخ القيصرية لأسرة البوريشية تمتد ثلاثة قرون. فجوهرها القوة، أو هي قوة بربرية لا حد لها كانت وما تزال ممتدة بين دول الشرق والتي لم تظهر في أوروبا إلا حديثا إبان عهد هتلر. كان حكم «إيفان الرهيب» الذي عاصر الملكة إليزابيث باكورة تلك القوة، فهو قد أسس فكرة (النزاع)، وهي مفردة مشتقة من «سبازار» أي الفحص، بصفته السيد المطلق الذي لا طاقة لمرعيفته على نفوذه ولا حول. حين إحتل «إيفان الرابع» العرش سيد البويار (وهم طبقة النبلاء) مقاليد السلطة في روسيا شأهم في ذلك شأن نبلاء إنجلترا في عهد الملك «جورج». فيها كانت عائلة «الشويسكيين» هم الأقوى بينهم. تميز أغلب البويار بالغطرمة وظلمة القلب للدرجة التي أعثت فيها الفسادة شباهم وهم يرون كلالهم المسمومة تطارد رجال العامة في لعبتهم المفضلة (مطاردة الرجال) وتقطعهم إربا إربا. لذا إكتسب طفولة إيفان بمرارة التفريع والإهانات من رجال كهؤلاء، وقتلت أمه وهو في السابعة من عمره فأطلق العنان لوحشيته التي تنشأ في الستة أعوام اللاحقة. ثم حدث في أحد الأيام أن أمسك الشويسكيون بصديقه الحميم «فرونستوف» وأقوه ضربا حتى كاد أن يلفظ أنفاسه بين أيديهم لولا توسلات إيفان، وبعدما نفى صديقه «فرونستوف». وبعد ثلاثة أشهر أمسك رفاته الأشداء بالأمير «أندروتويكي»، ألد أعداء إيفان، ورموه طمعا لكلايب الصبيد ليغدو إيفان مذحيها السيد المطلق.

لم تكن الأعوام الأربع التالية من حياة إيفان إلا سلسلة مروءاء، فقد أطلق العنان لحفده وقسوته ومزاجيته وخاصة في هواية صيد الرجال حيث كان

وعظم فصحاياه من التجار وزوجاتهم وبناتهم اللاتي كن حريم إيفان الخاص. أعلن إيفان نفسه (نزارا) أي قيصرا في السابعة عشر من عمره فكان أول قيصر في روسيا بعد أن خشي جميع أسلافه أن يطلقوا على أنفسهم هذا اللقب. واختار إيفان لنفسه زوجة تدعى «أنستازيا رومانوفا» من بين ألفي فتاة جعلن للصداقة. وهو قد جهد في الأعوام العشرة التالية كي يغدو القائد المثالي، فقد أحاط نفسه بالأمراء المششاورين ينحدر أغلبهم من الطبقة الوضيعة وشرع بإجراء مختلف الإصلاحات. كما إفتتح عهد الغزوات أيضا حين طرد انتار أو المنغوليين الذين ألبست بهم روسيا لقرون عديدة، من كازان ثم تبعها بغزوات أخرى. لكن بسببه حياته تعكر وانقلبت شخصيته عندما أخط القدر منه زوجته لدرجة أن مات من الإحسان عليه القول أنه أصيب بالجثون في سن السابعة والعشرين فمد حبلها وحتى وفاته أرغى الحبيال لوحشيته لتقتاده حيث تشاء وساوره الشك بجميع من حوله وجرد جميع من في البلاط من حق إيداء وأي لا يشفق وقوار الفحص ومن تراءت عليه أي نزع من هذا القبيل كان مصيره العقاب لظنهم به خائفا. وخلع إثنين من أفضل مستشاريه فيما هرب معظم معاونيه لئلا يأن آخرى بعد أن خالهم أن الحياة أمت غير آمنه بين يدي هذا المعضوم. لكن فوار فرومكي، صديق طفولته، غرس جرحا عميقا في نفسه لدرجة أن شل قلبي الرسول الحامل لرسالة وداع صديقه وعذبه بعد أن أتم قراءتها.

أودم إيفان في منتصف الثلاثينات من عمره على فعل غريب لا يتسجم إلا والعابضة الروسية، حيث هام خارج العاصمة موسكو دون أن يحدد مقصده حتى حط به المقام في قرية «اليكامستروف» الواقعة على بعد مائة ميل من موسكو. وبعد أن أمضى عدة أسابيع إكتنفها القلق والحيرة على مستقبل البلاط القيصري، أعلن إيفان تخليه عن العرش. لكنه ما لبث أن عدل عن ذلك بعد

أن أرسلت العاصمة وقد ينشأه العودة لبلاده. وهذا كأن الخوف والحدود قد شاع بعد إخفاؤه عن البلاط. فهم قد أعدوه رغم قسوته شخصيا سوريا لا غنى لروسيا عنه. وهنا وضع إيفان شرطا لعودته ينص على وجوب تغاضي الكنيسة والبويار (طبقة النبلاء) من جميع أعماله وقبل الجميع ذلك وعليه بدأ دون أن يشاؤون لحظة باستغلال هذه الصلاحية بحملات سرقة وقتل واسعة النطاق. ليس هذا فحسب بل قسم روسيا إلى قسمين : ملكيته الشخصية والتي سماها (أوبريسنيئا أي إرث الأرملة) و (زيمسنيئا) التي هي ملك النبلاء. وأسس لإدارة «الأوبريسنيئا» قوى أمنية ومياسية تولت مهمة التجسس على أعدائه والقضاء عليهم. وعليه يصح اعتبار إيفان مخترع نظام الشرطة في روسيا. لقد طاف هؤلاء بلباسهم الأسود أرجاء البلاد شيئا شيئا متفذين إلتفام القيصر الذي ما كان يعطي منوى الخرق والتعذيب جنسيا يشتهرون .

لكن جنون عظمته بلغ الذروة عندما هدم أركان مدينة «توفوكورد» حين جالت في رأسه فكرة مجزئة مصادها أن «توفوكورد» تنوي الخيانة فصار إليها جيش جوار حارفا ومغتصبا وناعيا على طول الطريق إليها حتى وصلها في أوائل عام ١٥٧٠ وبني حولها سورا عاليا من الخشب ليسع هروب أي من سكانها. ثم وعلى مدى خمسة أسابيع أغدق في الفرية تعذيبا أهلك فيه يومية آلاف من أهالي «توفوكورد» أمام ناظريه وناظري ولده المنحرف إيفان وهو قد نفن بوجوده في أشكال التعذيب إذ أجبر الأزواج والزوجات أن يرى أحدهم الآخر يجر من شدة الألم صريعا وأجبر الأمهات أن يشاهدن أطفالهن يرقصون لما قبل أن يجرمن أنفسهم أحياء أو يضربن حتى الموت. كانت نتيجة تلك المجازر مقتل أكثر من ستين ألف نسمة.

توجه القيصر بعدها إلى «سكوف» بغية إستكمال إستراتيجته التعديبي لكنه

عاد من رأيه لمسيب ما اعتديا وصلها. فاستقبله سكانها راكعين مؤكدين له أن عظمه ورحمته لأعظم من أن تصدق.

آنذاك، أنزل الرب لعنته على روسيا بأن أحل فيها الأوبئة والمجاعات فأكل الفلاحين لحاء الأشجار، والشهيموا الأطفال الصغار أتى أمسكوا بهم. ومع ذلك، منع إيفان الناس من الترحال وعاقب العصامي بحرقه حيا، وأحرق موسكو عن بكرة أبيها .

لم يكن ما تبقى من حياة إيفان مختلفا عن شطرها الأول فقد إستمر على مواله في القتل والتعذيب ولم تفر شهرته الجنسية البتة (وقد كان جتوته موضع شك أنه ناجم عن إصابته بمرض السلس)، وعين كادرا لإهيايا، وغالبا ما كان يقتل على الحازوق^(١٢) الساسة الذين كانوا يثيرون حفيظته. وحدث في أحد الأيام أن قتل في ثورة من ثورات غضبه إنه الصغير وما كان ذلك بخسارة كبرى لروسيا فهذا الشبل من ذلك الأسد. بعدها تحدث إيفان بين الحين والآخر عن رغبته في أن يصبح راهبا، ووضع في أحد المرات ناجة على رأس أمير تتري من حاشيته مخاطبا إياه أنه أمسى قيصرا وحكم هذا الأمر لسنة كاملة. لقد فضل الملأ من أهالي مدينة «فوندا» في ليفونيا حرق أنفسهم في قلعة عالية بدلا من الموت على يد إيفان بعد أن اعلنوا تخليهم له. وكثيرا ما كان مستشاروه ومقربوه أول فصحائيه، لكن إحدى أكبر جرائمه وأبشعها حدثت حين علني الأمير إيفان فسكوفاتش ورأسه إلى الأسفل وقطعه لشرائح حتى الموت ثم ذهب هو وابنه منزل فسكوفاتش واغتصب إيفان الأرملة الحزينة المشللة بينما اغتصب ابنه الإبنة الكبرى.

(١١) كتب ريسكي كوريساكوف ايربا عن هذا الموضوع.
(١٢) الحازوق : عمود طويل محدد الرأس يدخل في دبر المجرم ليضرب عليه.

كانت مروت إيفان في عمر الرابعة والخمسين من عمره مولاً نموذجياً فقد أصابه الحبحر الحثيث وشعر بالإرهاق والتعب والمرح. واستدعى عدداً من المرافقين ليلاطه فتياروا يومه يوم الثامن عشر من آذار سنة ١٥٨٤ ولا بد أن هناك قبة ألتهم بحرقهم أحياء إذا ما بقي حياً بعد ذلك اليوم، جرياً على عادته. وعشية اليوم الموعد أعاد إليهم وقده بحرقهم لو لم يمت صيحة اليوم التالي فأتساروا أنه أن اليوم لا يشي إلا بغروب شمس يوم الثامن عشر وفي اليوم التالي لعب إيفان الشطرنج مع بوريس كودنوف، أحد مساعديه، لكنه ظل يقصر ثم سقط إلى الخلف ولم يقض سوى دقائق قليلة حتى غارق الداء.

كان إيفان أول الفياصرة الذين ولدوا متجعاً لم يتغير حتى سقوط آخر السلالات الحاكمة بعد أربعة قرون... متجعاً قائماً على الفردية المطلقة والاستبداد. ولا تترك بعدهم إلا بعضاً من هذا الطاغية خلال سني حكمه الأولى، فمن التحليل تصور صير روما حل «كاليفولا» أو «تياروس»^(١) لأرمين سند. والأغرب من ذلك أن حداثة عالياً وضبطاً أقيم حل رجله. لكن هذه الملاحظات القنينة تلتقي القسوة على بعض جوانب الشخصية الرومية... فهي قسوة، كسولة، فوضوية، عاجزة أشد العجز فيما يخص المثالية، مقولية وغير مسؤولة. ولم يقصد هوستوفسكي في كتابه «البحث العظيم» بقوله على لسان الباحث أن الناس أتروا العبودية على الحرية، سوى الشخصية الرومية هذه... والحرية عبء ثقل جداً.

(١) كاليفولا: Caligula : امبراطور روماني (٣٧-٤١)، ابن الجريشا وخليف تياروس بالتبني. اشتهر بجهلته واستبداده. تم اغتياله.
٢) تياروس Tiberius : امبراطور روماني (١٤-٣٧) خلف أوغسطس الذي اشتهر بحكمته السياسية وتنظيمه الإداري. تحول في آخر هذه إلى السلف والاتباع.

ولم صبح الإفراسين الفاضل أن الأمة السعيدة هي الأمة التي لا تملك تاريخاً لأشعث وزمينا أقمى أمة بين الأمم لأنها عاشت تاريخاً مستظرفاً دوماً وحكم إيفان الرهيبة مثال على ذلك.

تلك إيفان روسيا، منهكة القوى مشبعة الأقوام وأعيت حكمه فترة من الاضطرابات والمشاكل ألتبه بالستين التالية لثورة أكتوبر سنة ١٩١٧. تولى الحكم بعده إله (قيودور) الخنثى عتقياً واستمر حكمه سنوات قليلة، أمسك بعدها «بوريس كودنوف» زمام الحكم والمشيبة به في مقتل الأمير ديمتري «الوزن الشرعي للعرش» - وقد لا يكون هذا سوى عطف إفران فمن الظاهر أن بوريس كان رجلاً مهلباً خفيص الرأي هادي الطبع ويشبع برياطة جاش وفرة الشخصية فرضت احترامها حتى على إيفان الرهيبة. لكنه توفي بعد خمس سنوات وأوقف العرش بعده قورا رجل زعم أنه الأمير المفقود ديمتري، وبقيت موهبة الخفائية مجهولة دوماً وربما كان مأجوراً للمروماتوفيين، أعنى نبالني بوريس ظل العرش. لم يكتف في الحكم إلا فترة وجيزة إذ قتله بعض الرضاع الذين أرسلهم أمير شويكي أصبح قيصراً قورا مقتل الأول والذي ميزه ما «أعنته البلاد التي قطعت في حالة قورس عامة وعدم رضا. فظهر بعده الثاني زعم بوريس أنه الأمير المفقود ديمتري - كان أحدهما خيلاً شاروا اسمه «إيفان بولونيكوف». لقد قاد بولونيكوف قوردا للاحيا لكن قسوته الشديدة مع مالتكي الأرمني وعبادتهم القسوته مخونة اتصاره العسكريين، ولا تعلم على وجه الدقة ماذا حل به وهو أول فلاح قباد «بحرينا طيقة» وأقام متجع التور الذي أصبح شاهناً في روسيا من بعده. فيما لقب الآخر «بالسارق» وقد خلاص «شويكي» (أو موسكوف سنة ١٦٠٨ ثم قتله أحد أتباعه. حينها أقتل العرش نجل ملك ولدني هذه الطريق أن يحل البولنديون العاصمة موسكو وأغلب مدن روسيا.

الجنوبية بينما احتل السويديون الذين دعاهم شويكي لمساعدته ضد «السارق» مدينة (نوفوكورود). ولم يمض زمن طويل حتى ظهر مدح آخر في مدينة «بمسكوف» غير أن الروس ملكوا الآن زمام الأمور وطردوا البولنديين من «بوسكو» وشرعوا يبحثون عن قيصر جديد وجدوه في (ميشيل رومانوف)، وهو أحد أعضاء عائلة زوجة «إيفان» الأولى التي اختارها إيفان من بين التي عائلة مرشحة تقريبا، لذا فإن أربعة قرون من تاريخ روسيا قد اعتملت على اختيار إيفان. لقد بدأ تاريخ «الرومانوفين» بـ «أنستازيا» وانتهى بـ «أنستازيا» وهي الفتاة التي نجحت في الإقلاص من رصاص الشوار في زنزانة «ريكانيرنيرج». وبين كلا الأنستازياتين كان هناك قتل واغتالات ومؤامرات لا حصر لها وكثير من التمرد والعصيان كتمرد بولوتنيكوف. وظل شبح «إيفان الرعيب» جاثما على صدر التاريخ الروسي ليُشيع الفسوة وبغفك اللعنة إلى الدهر فيها.

غير مجدية محاولة إنجاز التاريخ الروسي للعقود الثلاثة التالية فهو تاريخ اضطهاد وتعذيب شمل أكبر قطاعات الشعب الروسي، بيد أن الميزة التي سيكون مستحيا تحجيم أهميتها هي القناعة منذ هيمنة المغوليين و ٩٥٪ من الشعب الروسي عبيدا في واقع الحال. فقد سن بوريس كودتوف عدة قوانين تربط الفلاح بهالك الأرض على أساس أنها قوانين طارئة أمدها نخبة أعوام يعق بعدها الفلاح العبد. ثم مدد أول قيصرين رومانوفين - وكان كلاهما واعدا - هذه المدة، حتى أبطلها اليكسندر سنة ١٦٤٩. وقد شهد العام الذي أعدم فيه شاترل الأول في إنكلترا إحضار الحرية في روسيا برغم المحاولة الرابعة والخاتمة لإقامة حكومة نيابية في ظل حكم ميشيل.

كان الرومانوفيون، عموما، سلالة واحدة ما خلا بعض الاستثناءات أهمها «بطرس الكبير» ابن اليكسندر. فقد أدخل بيتر النظام الأوروبي لروسيا وبني شارع «ترمبوروغ» وأجرى كثيرا من الإصلاحات لكن الشيء الوحيد الذي لم يقضه هو ضمان قدر أكبر من الحرية للعبيد، وربما تذكر التمرد الشديد الفسوة والمضب الذي قاده (ستينكا راخين) والذي كان قاب قوسين أو أدنى من الإطاحة بعرش أبيه. ومع ذلك، يقول (د. د. شاتوك) إن «بطرس الكبير» حكم روسيا «بعضا من حديد». لقد تعاطف العقل الغربي مع أجزاء من أسطورة «بطرس الكبير» الخاصة بحبوبيته وحماسه وإهتمامه بالتكنولوجيا وتطوره بالمشاركة في أي عمل يدوي. غير أنه إمتلك صفاتاً شرقية كصفات إيفان الرعيب. إذ قمع عصياناً عسكرياً بطريقة إيفان وقتل ابنه اليكسندر، كما فعل إيفان بإبنه، ولكن ليس بغيرة غضب بل بتعذيب مهلك لمضرة.

كان سيئون العرش بعد «بطرس الكبير» ابن اليكسندر فيتر لكنه توفي جاندري في صباه، فأُمسى العرش لـ «آنا»، ابنة أخ «بطرس الكبير» والتي لم سران أن تكن نفسها بلقب «آنا الدموية». ولم تكن قسوتها فجائية وعشيرة كفسوة إيفان بل قسوة متبرقة بحقد وبغل طويل العهد.

أصبح بعدها فيتر الثالث «أحد أحفاد «بطرس الكبير» قيصرا على روسيا. لقد كان جلفا، وحشيا وربما كان معتلا عقليا وعامل زوجته بالفاعنة - وهي فتاة المائبة إسعها كثرين الذكية والمثالية - معاملة الخادمة فاخذت لها عشاقا كان أولهم «سالبشكوف» الذي قد يكون الأب الحقيقي لإبنتها «بول». وهو ما يقود إلى الافتراض أن أغلب الفياصرة كانوا من حينها ورومانوفين بالاسم فقط، أما

(١١) (راخين) أحد أبطال الأنستازية - جاته في النهاية أحد أتباعه وتعذب عقابا شديدا حتى الموت.

صوبح أولوف. وهو عسكري آخر. فقد أقدم على قتل زوجها في محاولة انقلاب. لتصبح كاترين إمبراطورة روسيا. جنب حكمها الطويل الأمد كثيرا من المصفاة والإصلاحات الروسية دون أن يقال منها الملاحون بعضاً من الاعتناق. لقد خشي فيها تردد بولسيف (الذي سبق ذكره) الذي بالقوة جميع ميوه الديموقراطية وزرع فيها الطباعا أن الملاح الروسي وحش بري لا يجب أن يخرج من قفصه الخديوي. فيما عرفت فيها الثروة القروية هذا الإعتقاد وأغلقت حكمها في جو من الإضطهاد.

أعقب كاترين في الحكم بجنون أخير هو ابنها «بول» الذي لم تكن أصنام
حكمة الأربعة إلا كابوصا أحماد لأشجان الشعب الروسي حكم «إيفان الرابع»
الذي جنونه طابعاً عسكرياً نذكر منه أنه أرسل ضابطاً إلى «نقش ميديا لإثباته»
قبعته في زاوية خافتة. لم تنو «كاترين الفطيفة» أن يتولى «بول» العرش بل
أرادت أن تسقطه لصالح حفيدها اليكسانر الذي تولى الحكم بعد أن قتل بول
في عام ١٨٠١ مـ مهلهلاً بذلك «قرون الإصلاح» القرن الذي شهد نمو عهد
«نقش ميديا».

بدأ حكم «البيكسندر الأول» مبعوثاً للفلاح الروسي. فقد حلم بإقامة نوع من الحكومة النيابية وطلب من ابن قس قرية لامع إسمه سيباتسكي وضع دستور لها. لكن حروب نابليون قلبت الأمور وأحاله سافله. وقد سجن سيباتسكي مكانه في هذا البيكسندر مسجداً لا يقل عن بيترو أو كاتالين. وادعاه أهل «فلاد» «قله» أيام شتاء. كما أُنقل كاهن الفلاحين بعينه جديد إذ فتح مستعمرات عسكرية فيهم نظامها على أساس عقوبات بربرية، ولم يته حكمه إلا وأكثر من نصف مليون فلاح في تلك المستعمرات.

تحدث اليكسندر كثيراً عن طيه التخلي عن العرش ليصبح راهباً أو مواظفاً بلا منصب في سويسرا. ويبدو أنه قرر تنفيذ ذلك في سن الثامنة والأربعين حيث ذهب إل تالكاتروج وهناك أعلن أنه يعاني من مرض الملاريا. وقد ذكر طبيباً يدعى ولي أن جيلاته كان يرفض بشدة أية معالجة طبية. واستدعى قساً لإقامة الصلوات الرومانية لمدة واحدة فقط برغم أن اليكسندر «توفي» بعد أربعة أيام. وقد أجري عشرة أطباء فحصاً عاماً على جثته وكتب طبيب البلاط الملكي التشريف تقرير الموت. وجاء في مذكراته أنه امتنع عن توقيع التقرير برغم أنه يعمل توقيعه. وهذا ما يدعو للاشتباه أن فارووف قد نسي أن يوقعه أو أن أحدًا زبر توقيعه. لقد بقي التقرير موضع شك فحالة الأعضاء الرئيسية لليكسندر اليكسندر لا تطابق وحالة مريض مات بالملاريا وليس هناك تضخم في الطحال على مسيل الشال. ثم دفن جسد اليكسندر بأقفاصه والقبيل الذين أتحت لهم مشاهدته قالوا أن شكل القبر تغير إل حد بعيد. إذ كان لون ظهوه وبخاصته احمرأً أوجوانياً وهو شئ غريب لقبر ابطن البثرة.

مقتوفس الرأي العام أن اليكسندر وضع نجمة على جملته التي هي له
الاستثناء. وبعد مضي أحد عشر عاماً، ظهر في سويسرا راهب ينادى فيكتور
كسش عليه الناس قديماً. وتوفي في سنة ١٨٦٩ عن عمر يناهز السابعة والثلاثين
وهو نفس عمر اليكسندر لو بقي حياً. لقد شيع في آخر سنة من حياة هذا
الرجل العجائز أنه اليكسندر الأول بعينه وهي إشاعة قبلها المزج (تضليل)
الذي كتب عن حكم اليكسندر. كما كتب (تولستوي) قصة عن الراهب فيكتور
الذي أيد فيها فكرة أن مبدأ الإخفاء طريق عقل اليكسندر وهو يرقب
مشهداً في لانتاروخ يجلس فيه رجل على الموت. وكانت في الرجل شيء كبير
الغموض، ومن الجدير بالذكر أن اليكسندر هو الذي من قانون عقوبة الخلد

حتى الموت بواسطة تحرير جزء من الذرع على الجسد المحكوم في مستعمراته العسكرية. وهذا يفسر الكدمات التي على الجثة لكنه لا يفسر سر ذعاب القيصر إلى ميناء منزول مسي مثل تالكاتروج، مما يرجح القول أن القيصر خطط لإخفائه سبباً.

تم في عام ١٨٦٥ ومرة أخرى خلال عشرينات هذا القرن فتح كفن اليكسندر فكان خالياً من جثة الرجل المكدم الذي كان يعاني من مرض السفلس (ومعروف أن اليكسندر كان معافى من هذا المرض) وربما حدث ذلك نتيجة تواطؤ الدكتور تارازوف.

يرى (موريس بالبولج)، الذي كتب سيرة حياة اليكسندر الأول، في ليدور كمش ليس بالقيصر ويؤكد أن اليكسندر مات في دير في فلسطين. من هنا نستدل إلى نتيجة مفادها أن «القيصر الغامض» - ناهيك عما حدث له - لم يمت في تالكاتروج سنة ١٨٢٥.

لا تغدو قصة نهاية اليكسندر الأول أن تكون غير نموذج روسي اعتيادي، فذاك (إيمان الرهب) مثلاً قد مات راعياً برغم أن مراعيه تحولوا لراعي جرت وهو مختصر في غيبوبة الموت. إن الروسي وليس سواء قادر أن يبدأ حياته كمصلح فرجعي غيظه قسوته ثم ينتهيها كمستأثرته مجهول الهوية، ويبدو أيضاً أن الروس يتحنون دائماً ما يبدأون. جاء العرش بعده يقولوا، شقيق اليكسندر الأصغر وكانت أول مهامه قمع ضباط انتفاضة ديسمبر، وتولى بنفسه، كياقي الغياصرة الرومانوفيين، استجواب قادة الثأمر بلطف مبالغ به أرفع بهم جميعاً وأدانتهم بقسوتهم وأمر بقتل خمسة من قادتهم: إن هذا اللطف والقبولية على المرافعة لإحدى الصفات التي تميز بها العديد من القياصرة الرومانوفيين بها في

ذلك آخرهم.

يبدو أن سخرية القدر وافقت التاريخ الروسي فحيثما تظهر بوادر إصلاح من جانب حاكم ما يظهر فرد ما لوأدها وأعاد خلفاً عفاريت الساعة وهذا هو ما حدث مع نيقولا الأول. فلم يأت عصبان ديسمبر إلا بمزيد من القسوة والامبرورية إلى روسيا. ورواه هذه الواجهة القمعية تكمن اللاكفاءة والكلل الروسي - (وقد عبر عن ذلك (غورغول) أحسن تعبير في روايته «النفوس المائتة» (مفتش الدولة)، لقد كتبت الرقابة الأمان الحرة وربما وقف هذا القمع وراء ولادة العصر الذهبي للأدب الروسي. إذ كان اليكسندر طاغية مهزوزاً فيما كان يهولاً عسكرياً أحفاداً من نفس طراز القيصر المقشول (بول)، إنها الحفاة التي وهبت روسيا أعمالاً رائعة لـ (بوشكين) و (غورغول) ومسرحيات (لاوستروفسكي) و (أوبرا) (غليكا).

خلف نيقولا الأول اليكسندر الثاني الذي كان عسكرياً أيضاً ولكن بأقل عنادية. أن تاريخ الرومانوفيين هو سلسلة متصلة من القياصرة فيهم من هو ماضي العزم وفيهم من هو واهي المزينة. ويبدو أن نهاية اليكسندر الثاني استت أقل مأساوية عن نهاية حفيده نيقولا. فقد استهل حكمه بالرغبة في الإصلاح والتخل في هذا الشأن خطوة جسارة ألغى فيها نظام القنانة، بيد أنه

(١) غورغول (نيكولا) : Gogol : (١٨٠٩ - ١٨٥٢).

كاتب روسي له العديد من الخرافات والروايات.

(٢) بوشكين (اليكسندر) : Pouchkine : (١٧٩٩ - ١٨٣٧).

شاعر روسي من رواد الأدب الحديث، تقي ليلته السيامية. له قصة (أوجين أونيفين) صور لها الحياة الروسية مطلع القرن التاسع عشر.

(٣) أوستروفسكي (اليكسندر) : Ostrovski : (١٨٢٦ - ١٨٨٦).

مؤلف مسرحي روسي.

الاعتناق لم يكن إلا وجعها أخيراً للعبودية. فهو أجاز الفلاح شراء الأرض التي يعمل عليها وسهّل ذلكها برفع سعر الأرض ليحرروا الفلاح من نعمة ملكيتها فحدث أن حصل الفلاح على نصف الأرض بدلا من أن يزوج كل الأرض لسيده وبأخذ منها قوته للعيش. ولم يدرك الفلاح أن هذا التحرير ليس سوى شكلا من أشكال الاستغلال فهو يزوج نصف الأرض ليأخذ محصوله منها مع إضافة جنيء مالي عليه.

تعرض الإسكندر لأولى محاولات اغتياله بعد صدور قانون تحرير العبيد سنة ١٨٦١ مباشرة، عندما حاول شخصي ما إطلاق النار عليه وهو في غربته عائدا من الكريّة. كما فشلت الستة الثائشان هذوتني اغتيال وأوشكت محاولة اغتيال أخرى قام بها طالب في ذكرى اغتيال لنگولن على التبراج حين إقرب من القصر. الذي كان يقوم بجولة اليومية. مضوا عليه سلسلة لكن عابر سبل اغتيال المحاولة.

وحدثت محاولة اغتيال أخرى سنة ١٨٦٧ عندما صوب شخص سلسلة إلى القصر وهو في مركبه في باريس بمدينة نابليون الثالث ومثلي بروسا والمصاحبة لكن الرصاصات الأولى أصابت أحد الجياد ثم انفجر المدس في يد المهاجم وجرحها.

شرح المتألمرون عن حيلة القيصري باستخدام الديناميت بعد أن جربوا الرصاصات فكان أوفس في ذلك إرهابي يدعى «إليابوف» الذي وضع حيلة من الشرطيين على خط سكة حديد ليشتطم القطار شذرا مدرا. لكن حرية الموت وقطعت سلكة الإتصال فلم يحدث شيء عندما ضغط «إليابوف» على زر التفجير. ثم حاول ذات الإرهابي محاولة أخرى فحفر لنفسه ملجأ بممر فياير

أبيه ووضع المتفجرات تحت خط سكة حديد فتفجر القطار الذي لم يكن يعمل للأمت سوي متابع القيصري الذي غير موعد سفره ووصل موسكو قبل حدوث الانفجار. وبعد مرور شهرين وتحديدا في شباط ١٨٨٠ حدث انفجار هائل هدم قسما من القصر الشدوي للقيصر الذي كان القيصري سيناول فيه عشاءه لولا الآخر وصول أحد الضيوف. ثم أدخل تجار بالشر حيلة ديناميت يصل وزنها ستة قنطاريات إلى القصر الملكي وأدخلها في موقف صالة الطعام والتي دعت بالحدادها لدى أهل شارع بطرسبورغ الذعر. لا حرصاً على سلامة القصر بل على سلامتهم ومن حيثها تحبوا الذهب للأبرار إلا إذا توفوا أن القيصري أو غيرها.

مؤقت محاولات الاغتيال تلك لحظية القيصري وتعاظم معها تشديد الشرطة ومراقبة الزقابة. لكن القيصري كان يحمل يوم قتله في الأول من آذار سنة ١٨٨١ حلة إمبراطورية مقارحة كحطوة أولى على طريق إقامة حكومة نيابية. لقد ألقت الحلة في اليوم السابق لقتله. القبض على الإرهابي «إليابوف» مما أشاع السكينة في نفس القيصري. لكنه سلك عند عودته لقصره من جولة تفشيشية لأحدى القصر في العسكرية. طريقا غير الذي تعود المرور فيه. فيها قام أدهان «إليابوف» من طلب الإحتياط أيضاً. برز عملائهم في جميع الطرق المؤدية إلى القصر. وادمرت حرية القيصري التي أخذتهم بتبيلة خففت باب العرية وأحيات مرافقه العباس وعاملا معه فخرج القيصري جزوا من العرية ليرى خارسة الجريح. والمتفجرات قنبلة أخرى وراءه صرعت الخشال وقطعت سلكي القيصري وبعد مرور ساعة ترويا أسلم القيصري الروح في قصره بين أفراد عائلته.

ليس من العريب أن يشرب مشهد موت كهذا الفسحة في نفس إته الإسكندر الثالث رفض منعها أية فكرة إصلاحية. وكل ما نجح فيه المتألمرون

تعميق القوة عليهم فشن القيصر الأمرين وكلف رئيس الشرطة (ف.ك. فون بيلهف) - الذي أحتل لاحقا بقبلة- بتمشيط البلاد والقضاء على جميع التنظيمات الإرهابية في روسيا. وأعلن اليكسندر إيمانه العميق بعبادي الإحتداد المطلق في مذكرة كتبها الديني الرجعي (بوييد ونوستيف) والذي أضحى الكرونيال الأنشيب^(١٦) للقيصر. وأخذ نظام جديد للرقابة ثلاثي معه أدنى يصبح أمل الإصلاح. كان التزارفيتش اليكسندر رجلا جبارا قوي الشخصية، كما يصفه بيرس، جلد الفكر العام بيد أنه عاش مسكونا برهاب الإحتجاز فقد إعتل أبوه السلطة وهو في الثالثة عشر من عمره، كما يعطي الجندي جبلا متصدها ورأى أبيه طيلة الثلاثة عشر اللاحقة وهو يحكم بمصا من حديد، لكنه عاش دوماً شيخ الحروف على حياته فامضى حياته سجين قصره. أتاح اليكسندر الثاني لأعدائه فرصة النيل منه بتجواله منفردا بين صفوف العامة وعدم تشده في إقامة نظام أمني صارم، لذا عقد إنه العزم على أن يكون مصنا فماش محاطا برجال شرطته الذين كانوا أشداهما يتمتعون بسلطة قمع وكبح أي بادرة تمرد. وأسس قوة أسماها «قيطان الأرض» في المناطق الريفية والتي لم تكن، في الواقع، إلا تشكيلات شرطة لها قوة بطش ولديها صلاحية قمع أي عصيان، مهما كان ضئيلا، بقسوة بالغة. ومع ذلك لم توقف هذه الإجراءات محاولات إغتيال القيصر في فترة حكمه. فقد خرج الفطار الإمبراطوري، سنة ١٨٨٨، عن خط سكة الحديد في ظروف غامضة. ورغم إعتقاد الكثير من المؤرخين أن هذا الحادث تسببه رداءة عوارض الخشية للسكة الحديدية، فإن جاولس لرو يسجل في كتاب عن اليكسندر الثالث قائلا:-

(١٦) - مصعب ربيع المقام في البلاط الروسي.

(١٧) التزارفيتش: هو وريث العرش.

(١٨) الحوف الرجعي من الاماكن الخلفة أو القبيلة.

تفاوت عزبة القيصر أشلاءا مبعثرة وتزامن تدمنه المختلفين على الأرض بين ميت ومعتصر وعندما طالت عينا باحة عن أطفاله وفي نفسه خشية عظيمة على حياتهم... ملوخته إبتته الصغرى بلذاعيا وهي مدعورة قائلة: «أم يا إله، مياتون الآن ليقتلونا جميعا».

ليس من المعقول أن دمارا مأساويا كهذا نجم عن رداءة عوارض خشية. لذلك حبس القيصر نفسه في القصر الذي قتل فيه بول الأول خائفا من تناول أي الخدمة لم يطبخها طباطخه الفرنسيون، عروما من ممارسة أي نوع من أنواع الرياضة ومدمنا بالمقابل على تناول الوجبات الثقيلة لذا فليس من الغريب أن يموت قبل أوانه سنة ١٨٩٤ وقد حطمته محاولته الياسة للهروب من التاريخ «الفار المحترم».

كان ابن القرية كريكوري راسيوتين ولما مات اليكسندر الثالث جوالا في صبيبا هيئة «ستاريز». وقد حضر تيفولا الثاني ذو الوجه المصفر والخلق الدمث والمثليذب مراسم الجنازة مع فتاة جميلة حزينة العينين مبيتزوجها لاحقا، وكانت محجولة، عصبية، متدبة وعرة لزوجها بنفس الإخلاص في الحب الذي يجعله هو الآخر لها.

استعد آخر مشهد للمأساة أن يبدأ قريبا. ومن الأجدى ل.د.س. شاركه إن يسمي هذا الفصل عن تاريخ روسيا «جصاد الرياح».

الفصل الرابع

كان الله في عون روسيا

كانت مدينة بطرسبورغ - حينما قدمها زاريفين سنة ١٩٠٥ - مدينة
مستعمرة للوحش والعاقة بأشباح الماضي ماغتالاته واضطهاده ووحشته . وها
هو المستعمري بطل عطيا في روايته «أوديل» عمدا حورا نابضة بالحياة عن هذه
المدينة قبل أن - من قرآن من الزمان مرور الخلق - . وبطرسبورغ واقفة على
حالة الماوية عياقة في مستطع الوحشية تعلم بقوة لا يكتفها حذا ويجدلا
وال . . . فتمردت البلاط القيصري والإمبرالات والإنصارات والإعدادات
الدموية انتفضت وكأنها لم تكن إلا إفعالا وقتيا حقا عليه القدر .

لقد استغلت ضعف النساء فأبليت في سيرة أمور الحياة .
تفرد صغير أمم وأكلها في المضاع الساحة المشوبة بالعش والغرام . وسار
حجارة وأقدام شباب تتحققهم همهم بعد أن ترك الحفرث والكليج على أيديهم
التي لا تصحح ليرتقوا سلم العزيم ويقاسموا السلطة . . . ويتدثروا في تنقع
الملكات والشغلب في ترفهن البيزنطي . . .

كانت بطرسبورغ حياة قلقة ، باردة ، متحمة بكآبة موحشة تعج بليالي
الصيف الضيقة ، الشهوانية ، المحنونة وليالي الشتاء الآفة بين طاولات القمار

١٩١ «بطرسبورغ» هي مدينة لستراة تم استعادتها منها في عام ١٩٩١ وكانت مدينة القديس
«أوديل».

المختصين وحشاشة الذهب والموسيقى التي يدور معها الرافضون من خلف
الرافض وعربات التريوكة^(١١) والخجر الوافدين والمبارقات التي تجري مع إنبلاج
الصباح

تأسست في الأعوام العشرة الأخيرة شركات ومؤسسات كبرى أخرجت
في وقت قياسي رؤوس أموال بسلالين الروبلات، وأصبحت مصارف وصالات
موسيقى ومساحات تزلج ومسالك عمومية من الكونكريت والزجاج وفيها
يستغل الناس أنفسهم مع الموسيقى والنساء العاريات والضياء والشمباتيا . . .
ومررى في المدينة وباء الانتعاش فعمت المحاكم بشوة مصابات بالمستيريا يستمع
بالهبة الى التفاصيل الدامية للشعة للجرائم، وقد كل شيء سهل المال . . .
النساء والأغنياء . . . شامت الفاحشة والرفيلة في كل مكان.

هنا وصل فلاح امي ذو عينين ساهيتين وقوة رجولية هائلة الى أعلى
ممراتب الخطوة لدى القيصر مقتربا من العرش الإمبراطوري، ماخرا
ومشهورنا وشارعا في حيله الشائعة على روسيا بأكملها وكأنها لعبة في يديه

لم يبالغ تولستوي في قوله إلا قليلا، فهي قد تغيرت حتى ليجد من
شبهها (بطرس الكبير) صغوية في التعرف عليها لو بقي حيا وربما صحت طرفة
فليمصور^(١٢) في أمريكا على مدينة بطرسبورغ فهو يقول أنها الامة الوحيدة التي
اجتازت مرحلة البربرية الى مرحلة الانحطاط دون المرور بمرحلة التحضر.

اذركت بطرسبورغ نشاطاً فنياً ملحاً، وبلغ فيها الأدب والموسيقى

(١١) عمرة روسية تحملها ثلاث جياذ مزودة.

(١٢) ليمصور (جورج) Clemenceau (١٨٤١-١٩٢٩) صحفي وسياسي فرنسي. شغل
مكتب رئيس الوزراء سنة ١٩١٧ - واحد مهندسي انتصار عام ١٩١٨ - لعب باي النعر. وقع
معاهدة فرساي سنة ١٩١٩.

الروميين أوج عظمتها لكن نهايتها أثمرت (زاهير غربية وعلومة، فأغلب
أعلام الفن الروسي قد قادروا الدنيا أمثال دوستوفسكي، تشيخوف،
تورجنييف، تشاكوفسكي، ميورجيسكي، وبورودين ولم يبق من الألفاظ إلا
أشبان هما: تولستوي وريمسكي كورساكوف وكلاهما شجع الميل الصوفي
والواقعي لأهل الفكر في بطرسبورغ، فتولستوي قد شهر فلسفته التي تعتمد
اللاعنف، فيما ساند ريمسكي كورساكوف هذا الميل بطبيعة أوبرا الأحياء المساة
«مدينة كيشن اللامرئية» التي بلغ فيها ذروة التصوف محبرا فيها هن أصدف
الخلجات الروسية . . .

من جهة أخرى يرفع جيل الشباب من الكتاب مثل كودكي انفلايون
استعاضون، برغم ان أغلبهم قتلوا بانفسهم انفلايين في الفن فانعمروا لهذا
السبب في رمزية مبهمة وثأوية حاملة خيالية. ولعل اليكسندر سكريبين كان
الأكثر جدلا في عصره والذي آمن أن الموسيقى ستتحده يوما ما مع مختلف
الأشكال الفنية الأخرى لتخلق تجربة فنية عظيمة القدرة، يصبح الناس بفضلها
لغة أو أشياء الآفة بمجرد الإنصات اليها - لكن موسيقاه في الواقع لم تصل الى
هذا الحد من الإبداع وعنايتها دليل على ذلك : قصيدة نشوة، قصيدة الهبة،
قصيدة النار. فهي موسيقى تخلق نشوة حالة مستمرة أشبه بالرغبة الجنسية
المحمومة التي لن تصل الذروة أبداً . . . موسيقى شهوانية، موهبة للأعصاب
والفرى الحسية. وسكريبين نفسه كان شخصا أنانيا متساهلا الى حد بعيد
وعلى ما لم يمر نباتية وانتهت حياته في ١٩١٥ بنبية بشرة على شفتيه .

كان أندرييف وإرتسيباشيف من بين أكثر الكتاب شعبية في روسيا وطبع
أدب كليهما بحسبة تشاؤمية معبة. لكن الأخير افتتح سجله الأدبي بتأولية
أشبه ما تكون بتأولية بطل نبشته في رواية «سائين» الذي يزدي الأخلاقية

اللاصحية لمعلم الروسيين ويدعو إلى فلسفة تعتمد الصراحة والبسوح الحسي.

كان لهذا الكتاب المطبوع سنة ١٩٠٦ أثر كبير على الشباب الروسي الذي كان تواقاً لوضع أفكاره موضع التنفيذ. وهو الكتاب لا غيره الذي فتح عليه المسؤولية الأكبر في شيوخ الفاحشة والرفيلة. لكن أرتسيباشيف نفسه كان نموذجاً للإنسان الروسي الذي سحر منه «ماتين»، فيما ساء الانتحار والخسبة الكسبية في ثانياً روايته الايتين الحقيقيين، أن أرتسيباشيف لشخصية غريبة الأطوار تستحق اهتماماً كبيراً مما لولته إليها البلدان الناطقة باللغة الإنكليزية.^(١١)

أما ليونيد أندرييف فكان أكثر تشاؤماً وأشد تعبيراً عن الروسي النموذجي من أرتسيباشيف. وفي ذلك اسهب غوركي في الحديث عن جدل أندرييف الشهير وولعه بفكرة الانتحار، ونوبات المرض التي كانت تتليه لأيام عديدة والمداخلة عن إضرابه في شرب الخمر. وشرذاته مع المؤسسات والتي لم يكن يجرها إلا نوحاً من عقاب الذات. لقد نطق أندرييف إلى الحياة فوجدتها جرد مراب وهزيمة. . . فما هي إلا لعبة باللغة البرية صياغتها المعجزة منذ خابر المعجزة وكان على الإنسان الصادق مع ذاته الإنسانية الثابت الخطي قتل نفسه سكرًا للتعبير عن امتناعه ورفضه لهذه الخديعة.

طاف أفطيل وصف ليترسبورغ عندما جاءها راسينونين لدى (ألمود) في رواية «عشيرة القديس بطرسبورغ» الصادرة سنة ١٩١٣. والتي تعالج قضية صراع بين أب بيروقراطي وابن إرهابي: حيث يلقى الابن أواخر بقتل أبيه ثم تسير أحداث الرواية في جو من التسميم أقرب إلى الكابوس. . . . لتنتهي بشلة موقوف مرفوعة في علة مردين. لقد استعان الكاتب كثيراً بالمعص

الأسبوي العنيف واللامعشائي المظلم داخل الشخصية الروسية حين اتج إلى انتشار الأب والابن من سلالته السمار وليونيد في هذا قول نابليون: «أعدهش روسيا وسوف يظهر لك بشخصيته الثائرة» أن خلف بطرسبورغ واسورين حياة أخرى توشك على الانفجار في أية لحظة . . .

ليس من الغريب، تحت ظروف كهذه، أن تكون بطرسبورغ يقولاً الذي مدينة الاحتلال الخلفي والخسبة المباحة ورغم وجود غدار كبير من الفوجة المصونة التي عجلت بدورها في هذا الانتحاط. فهي تقسم عنصر اللاأخلاقية ومثلها لذلك المفكر الديني الأكثر تأثيراً حيث (ف. ف. روزانوف) والذي كان صريحاً سياسياً أيضاً فهو قد أهدى السياسة ليست يضي شأن قراء يكتب لصحيفة المحافظة مقالاً بإسمه الحقيقي ثم يكتب مقالاً ثورياً تحت إسم مستعار. . . نتيجة لذلك عدا الخلق القوي ضرورة حياته يمكن الاستغناء عنها بسهولة وبسر .

لقد تحولت بطرسبورغ في نصف قرن، من مدينة البيروقراطية والنظام العسكري الصارم إلى مدينة الفن والشهرة الخلفي، فترحلت بالآثرياء الذين يستأثرون بها فيما كان ليونيد بيلاييف الذي مول الموسيقار مكرياين، وموسيقوسها الصير المتخصص للآثري والذي روج لفيردور شاليابين، أعظم مدعي أوروبا في العصر الحديث، وكان هناك أيضاً نيرجي دياكليف الذي بدأ بتكوين التي بطبيعة جديدة فنية باعطة التمن والذي يعود الفضل ليليته في إعطاء صحن فني جديد لروسيا. اكتشف دياكليف موهبة ناصيل لريمتكي شومسكوف يدعى مترافيتكي وأول بعد هذا اعتماداً وتشجيعاً أكثر لنييرجي برافوميسه. وهو المسؤول عن تقديم الراقص المبدع فاسلاف نيجيتسكي إلى بلدان العالم الأخرى .

(١١) اقرأ أيضاً (قوة للأعلام) و (الجنون الدافع الجنسي).

إن قصة حياة نيجينسكي توضح بشكل دقيق أهم ميزة لبطرسبورغ في العهد الأول من القرن الحادي: يتحدو نيجينسكي من عائلة فقيرة لكنه حصل على زمالة دراسية في المدرسة الإمبراطورية للرقص، فوجد نفسه في أواخر سني صباه متدجماً بالحياة الاجتماعية الصاخبة للعاصمة. وفي ليلة ما، زار نيجينسكي وصديقه انتول بورمان قصر الأمير يوسيفوف والد الرجل الذي قتل راسبوتين في النهاية، والذي حوله الأمير إلى صالة قمار وناد الفنانين - ويبدو أن الحكومة أبدت قيام مثل هذه المؤسسات الخاصة بدافع توفير وسائل الريح السريع لهذهة الوضع الشعبي الفلّح - ربح بورمان ونيجينسكي خمسمائة روبلا واقترح الأخير إنفاقها في دعوة بعض الغنائيات للعشاء، فالتقطا مت مواسات فذرات ذهبا إلى مطعم مشواضع حتى لا تشعر النسوة بأن المكان أرفع من مستواه. طلب بعدها نيجينسكي عشاءاً فآخرأ من خارج المطعم. إنقضت النسوة على الطعام بنهم بالغ مسبب غشيانا لنيجينسكي وبورمان فامتعا عن الأكل. وما أن اكملن طعامهن حتى يدأن الاغواء وعندما رة بورمان إحداهن حاولت ضربه بزجاجة الحمر لكن نيجينسكي إلتزمها من يدها. ثم وزعا ما بقي لديهما من المال وهربا. سأل بورمان صديقه عن سبب إصراره على دعوة هؤلاء المؤسسات قاجابه برغبته في مشاركة ثروته الجديدة مع يؤساء الناس الذين كثيراً ما كان يشفق على حالهم وهو في طريقه للمسرح، لكنه قال في النهاية بأن الأمر كان عظيماً وأنه لن يعيد الكرة مطلقاً.

غفل عن عدم تماس غريب بين الطبقتين العليا والدنيا في المجتمع الروسي لم ترأب صدعه حتى التوايا الطبية، وهذا هو السبب الأكبر وراء إندلاع الثورة في روسيا. قريباً احب الروس قيصروهم وديا عبدهو لكنه لم يكن اليهم قريباً كحالة بعض ملوك إنجلترا.

لم يلتق نيقولا الثاني - ولسوء الطالع - حياً من غير افراد عائلته، بل أقول ضده حتى لطفه ورقته وسحر جماله والتي غلب فيها غيره من القياصرة. كان أبوه مستبداً عصياً لكن وزرائه عرفوا في أقل تقدير على أية أرضية يتعاملون فيها لم يكن نيقولا قوياً ولا ضعيفاً بل استلاباً مع شيء من الصلابة والعتاد. كتب يوزي. قاتلا:-

لقد زرع في وزارته حين يستقبلهم انطباع وضاء التام عما يفعلون، وهو انطباع يجعل منه سحر شخصه القريد فتاعة لديهم. ولم يطق مرة وهم بمعينه يست شقة قد تعكر صفوهم ثم تأتي المفاجأة الكبرى حيث يتلقون رسائل إقالتهم من مناجيهم عن طريق البريد. بعد هذا اللقاء مباشرة ...

ثمة حكاية تحسد تلهذب شخصية القيصر: كانت روسيا تحاول تسديد قرض فرنسي. وهنا زار مصرفي فرنسي يدهي (نيتزلين) القيصر وأوضح له أهمية إجراء بعض التنازلات للشعب ليتجنب ثورة مستتلع بلا ريب. لقد سر نيتزلين باستقبال القيصر له واللطف الذي احتضنه به فظن انه نجح فيما فشل فيه الآخرون. لكنه لوجي: يتسن القيصر قانوناً يؤكد فيه سلطته المطلقة بدل إحداث إصلاحات شعبية، ولم يفاجأ وزرائه بذلك فهم لا يتوقعون منه غير هذا.

وقع نيقولا وهو يافع في غرام (اليس) أميرة «هيس» وحفيدة الملكة فكانوريا. كانت فتاة رقيقة خجولة ولها مسحة حزن. وقد تزوج الإثنان رغم المعارضة العائلية الشديدة فأصبحت الأميرة اليس، التي نشأت كأمراة إنكليزية، السارينا اليكسندرا. لكنها لم تتوافق تماماً مع حياة البلاط: فهي أقل ثقة بنفسها من قلة ثقة القيصر بنفسه، مزاجية وعصية ويتحول خجلها أحياناً إلى هستيريا.

(١) السارينا: لفظة مشتقة من (التران) وتعني زوجة القيصر.

قياسي، وربما سمعت عينة أصلها في أول مني زواجها مملها الصوفي هذا لكن الخيانة الدينية تسري في هائلتها إذ أوجدت أختها اليزايت، المتزوجة من الرحشي نصف المختون الغرائدوق سرجيسوس. نظاماً أصبحت بموجب رئيسة دير للرهبانيات عقب إغتيال زوجها. ولم يمض وقت طويل حتى امتد إهتمام التزارينا بالذهب الروحاني وبجلسات تحضر الأرواح بفضل تشجيع صديقتها ميليتسا وأناستازيا. لكن جدوة الرقعة هذه مرغان ما تبددت لظنها فيها إنما لا يرضي الرب بينما زاد إهتمامها بالجانب الصوفي الخاص بالبحر والتنجيم.

أنجبت التزارينا بحلول عام 1906 أربعة إناث، دون أن تلد وليداً ذكراً للعرش القيصري، وبدأت هذا الموضوع للقيصر وزوجته التداخل الأكبر لتفكيرهما. وظلت التزارينا أن أعداءها قد اتخذوها لهذا الأمر مدعاة للسخرية. وهنا دعت الغرائدوق ميليتسا «صالح معجزات» فرنسي يدعى فيليب نيزير فأكوت وهو ابن قصاب قرية المظنة ميليتا عندما كانت في «كومين» وتأثرت بقدرته الفائقة على الترويم المغناطيسي فأقنعه بالقدوم إلى روسيا. وهي قد عرفت على أثر عيجه لروسيا للقيصر وزوجته بصفته «الرجل القلنس المخلص». لم يكن فيليب طبيباً بالمعنى الفعلي لكن ميليتا أقنعت القيصر أن يمنحه لقب الطبيب العسكري ومنشأ الدولة لتكتسب عنايته الطب في روسيا صفة شرعية. قالت له التزارينا أن يكون في غلام فأخبرها أن لها أن تنشئ ذلك وسيهبها إياه باستخدام قواه السحرية الغامضة. كان يملك في الإياه قوة حملت معها التزارينا حملاً وهي فانتشخت بطنها وأرقت لأجل ذلك أثواب الحسل. بيد أنها لم تر وليداً الموعود ثم أخبرها طبيب البلاط بعد أن فحصها بأنها لم تكن حاملاً أساساً لم يخدم هذا الإخفاق سمعة التزارينا في روسيا واتخذ أعداؤها مبرراً لتزعم بأنها هستيرية تماماً. وانتهى الأمر بإعادة فيليب إلى قريته ليؤم عملاً

بالهدايا - فالقيصر وزوجته كبنا على جانب كبير من اللطف والعطف يجعلها لا يعملان أي ضريبة له - ثم توفي بعد ذلك بقليل

غرس بلاط القيصر بعضا من المعجزات والعرفان فظهرت امرأة ممتوعة اسمها «داريا أو سيبولا» خالوا في توارثها ومفوها من وحي الله. وكان هناك أيضا رجلا «ميروكا» آخر، أخرجاً بتور الذراعين وذا حنك مشوه اسمه «ميتيا كولياين». جاء من منطقة دير «اوتسا يوستين» والتي وصفها دوستوفسكي في «العمى» (الأشوة كاساروف). وقد لاحظ قصة القصة الدير أن هذو يأتيه (وهو في ثورة صرع) أشبه بالتيومات. توفي ترجمتها قتلت اسمه «ايفوروف» أصبح فيما بعد رفيق كولياين.

وصل كولياين البلاط وطلب إليه أن يتأ نصيب التزارينا من إجاب ريث للمرش فخاب متشياً في عالم آخر ثم شرع بصراخ مبهلعا للتزارينا. لكن ايفوروف أوضح الأمر قائلا بأن الوقت لم يحن بعد للتنبؤ بموضوع كهذا. ومع ذلك استمرت التزارينا في لقاءاتها بكالياين ومجلت آخر مقابلة بينهما في عام 1906.

فساق الأسقفان هيرموجن وتيوفان ذرعاً بطولان الشعرة الذي بدأ يغمر البلاط القيصري وأدركا أن الوقت قد أوف ليده محاولات إعادة التزارينا لإخلاصها القديم للكنيسة الأرثوذكسية. لكن الأمر يستدعي وجود قنيس «مسي بخلق معجزة». فاقترحا واحداً يدعى «سيراقيم» من «ساوف» سبق وأن ساء في بواكير القرن التاسع عشر بأحداث نالت إعجاب الرومانوفين. ثم اقترح

(٩١) قتلت: رجل وظيفته العناية بالكنائس وبأرضها وإنجازاته.

الضباط ميرافيم إلى قائمة القديسين وحدث ذلك فعلاً فتحول، ورغم معارضة الكنيسة الشديدة، من الناسك ميرافيم إلى القديس ميرافيم من ساروف. حدث التبرار بنا بعد ذلك وانجبت ولداً فتصغرت مكانة القديس لدى القيصر وبدا الأخير من حينها أشد المخلصين له والمعتقدين بقدوته. ومن الأدلة على ذلك إرسال القيصر ميداليات تحمل صورة القديس ميرافيم لجنوده إبان الحرب مع اليابان مما حدا بأحد الظرفاء لئن يقول: لدى اليابانيين وصاوص ولدى جنودنا إيقونات. نستشف من ذلك أن القيصر قد فقد الملكية الواقعية التي كانت ستجعل منه قائداً قديراً.

بروي «وت» قصة تجسد القول أعلاه. إذ اقترح سفير روسي أحق في القسطنطينية أن تحمل روسيا مضيق (البسفور) بعد أن نسج لذلك عدة حرائق كذريعية، ثم ترسل أنباء هذه الحوادث لا للقيصر أو لحكومته بل للمثالي روسيا الإقتصادية في لندن لتسويها بشكل ما وأن يعثروا برقيات مستعجلة (لأوديسا وسيفاستبول) حيث تتعلق منها أساطيل صغيرة لإحتلال المضيق. لقد جهد «وت» حتى أقع القيصر أن عاقبة فعل كهذا حرب أوروبية لا عالة، وعندما تحدث «وت» إلى (بوييدونستوف) - ذلك الرجعي القديم - علق قائلاً: «ليكن الرب يعمد روسيا».

طغى التخطيط واللاكفاءة على السنوات العشر الأولى من حكم نيقولا دون أن يتحفظوا عن نتائج خطيرة. لكن الغضب الشوري كان آنحداً بالفوران، واستند من قضية عام ١٨٩٧ أي بعد تزويج القيصر بعام واحد مدأ له. تمت بقدر الفضيحة حين احتفلت الشرطة برثاسة (بيليف) فتاة جميلة قطفت من محررها العام الثامن عشر تدعى (ماري فيتروف) بتهمة افتداء بعض الكتب «الممنوعة». وذلك ليست بالتهمة الخطيرة ولا تستدعي، في الحالات العادية،

أكثر من نفيها مؤقتاً عن بطرسبورغ وتركين قيدها في الجامعة. لكن الشرطة سمحت ماري فيتروف في حصن بيتروبول لشهرين كاملين دون أن يعرف أحد شيئاً عن مصيرها سوى ما شاع من قول حول إغتصابها وتعذيبها على يد قوات الشرطة. ثم نجحت أخيراً وساطات أصدقاءها في الحصول على إذن بإطلاق سراحها، لكن ماري إلتحرت قبيل إطلاق سراحها برش بأوراقين أخذته من فاصل الإضاءة في غرفة حجرتها على حافات قرائها ثم أشعلته ورمت بنفسها بين أحضان ألسنة النيران الملتهمية. وعاشت بعد هذه الحادثة يومين فقط لم يتم خلالها إبلاغ والدها بالحريق حتى توفيت في الثاني عشر من شباط سنة ١٨٩٧.

لم يدح الثوار تلك الفضيحة قمر سدياً، فأحسنوا استفلاها فيما كان الظرف المحيط بها جرد مغرغ احتاج منهم لتأجيجه قليلاً من الترويج. فالفتاة عاشت ليومين بعد محاولة الانتحار ورغم ذلك لم يتم إغلام أهلها. فلم هذا التكتيم الشديد؟ إنها الخشية أن يفقه والداهما بما جرى خلال شهري سجنها. ثم ما الذي دعا فتاة جميلة موهوبة للانتحار قبل إطلاق سراحها بقليل؟ قامت الحركة الثورية بشوزيع آلاف الكراسيات إتهمت لجها الحكومة بالإرهابية ولم تغلق كل محاولات الشرطة في إيقاف انتشارها. وقد قال الكونت (بول فاسلي) معلقاً على جريبات الأمور قبل إندلاع ثورة أكتوبر ١٩١٧: «إنها بداية الإحصار الذي سيؤشك على الإطلاحة بعرش الزماتوفين».

بدأت بعد ذلك فرق إرهابية صغيرة بإغتيال رجال شرطة ورجال دولة آخرين عشوائياً. ثم اندلع فتيل الحرب الروسية - اليابانية في عام ١٩٠٤.

كانت روسيا تتجرف نحو أوار الحرب مع اليابان لعدة أعوام خلت ولم يأروا (سرجبوس وت)، أحد أبرز رجال نيقولا، جهداً في تخدير القيصر من

مخفية الوقوع في حرب مع اليابان، لكن جهوده ذهبت أدراج الرياح، فكان الصراع دائرا بين روسيا واليابان حول كوريا ومنشوريا، ليعد تمرد «يوكر» سنة ١٩٠٠ استغلت عدة دول قسعت الصين فاحتلت روسيا منشوريا في محاولتها السيطرة على الشرق الأقصى بعد إنشاء مكتة حديد ترانس - سيبيريا وهنا طفق نزاع بينها وبين اليابان حول كوريا الشمالية والذي لم يكن فيه الروس على حق ومع ذلك رفضوا العدول عن موقفهم، وعليه قدم بطرسبورغ رجل الدولة اليابانية الكبير (إيتو) وفي جعبته حلة للنزاع سلمياً، لكنه لم يلق من الروس إلا الاهانة والتوبيخ. لذلك شرع اليابانيون بالتقدم نحو كوريا الشمالية وأعلن الروس الحرب التي لمعدمت فيها الكفاءة لجنرالات روسيا لفتنازولوا سريعاً أمام ضغط الجيش الياباني عن ميناء (آرتش) ثم (هاكندن) فيما صدرت الأوامر للأسطول الروسي بتدمير الأسطول الياباني والانتصاف على نصف العالم. وقد أوشك الأسطول الروسي على إشعال حرب مع إنكلترا بفتح النار على أسطول سيد بريطاني قرب ضفاف «دوجر» ظاناً أنه أسطول تابع للبحرية اليابانية. ثم وصل الأسطول الروسي أخيراً إلى المياه اليابانية لكنه سحق وأبدي في توشيا على يد القوات اليابانية. بعدها أرسل القيصر «ت» لعقد هدنة مع اليابان فتجسحت مساعيه برغم توقعات الكثيرين بالفشل... ولم تحصل روسيا على موطن قدم لها في الشرق الأقصى.

(١١) روت عن (الجزء والآخر)، الذي أرسله «البريد اليومي» للتحقيق في حادثة ضعة دوجر إحدى المعلومات العرفية عن حامية نظام البحرية الروسية ذاتها أنه وجد في (فيكتور) في إسبانيا شيئ من الضباط الروس الخمسة الذين كانوا حاضرين الحادثة وقد شرحوا له كيفية حدوث الانقسام بين الأسطول الياباني والأسطول الصيني الإنجليزي بسبب الضباب. أبق (والاس) كتابة الضابطين بسرعة لموسيا فصدت له الأوامر بمواصلة رحلته إلى (تاتيكين) المياه التالي (ميكو) والذي تتوقف فيه البحرية الروسية - لأجل الحصول على تفاصيل أكثر عن الحادثة وهناك اكتشف بأن الضابطين اللذين أخبرا عن الحادثة قد أهدما وألقيا لمعا لجنان البحر.

إن من بين من تقع على عاتقهم مسؤولية تشويب الجيوب رئيس الشرطة (بيليف) الذي قمع الحركات الثورية المناهضة لحكم الكسندر الثالث وربما كان أكثر رجالات الدولة بغضا في روسيا. فقد اعتقد أن «حرباً ناجحة قصيرة الأمد» ستمنح القيصر شعبية وقام بتلقي عدد من التهم ضد «ت» المعارض للحرب ووزر وثائق سرية تدية بالإنتهاء للحركة الثورية. لكن الحظ أسعف الحق ففقد ألقى أحد التوار بقتلة تحت عربته وهو في طريقه لمقابلة القيصر حول هذه الأكاذيب مزقته أرباً أرباً، حتى تطلب لم أشلائه المتناثرة ثلاثة أيام بعد الحادث الذي وقع في تموز ١٩٠٤.

وسرعان ما تصاعد الهياج الثوري وساور القلق السلطات من معية إتخاذ أي إجراء عنيف من شأنه أن يؤلب العالم عليها ويكبح جماح الشوار في أرجاء روسيا فاعطية. لكن الحجة خذلنها فلجأت للتأمر مع قس كميل عرض لها بدعى «جايون» والذي عدا المستحدث الأول عن مطالب العمال. وافق جايون على قيادة عدد من العمال المتشددين للتفاوض إلى قصر القيصر الشوي حيث يقدمون التماساً. ثم قام جايون، في الثاني والعشرين من كانون الثاني ١٩٠٥، بقيادة صفوف العمال في داخل العاصمة وقد انضم إليه كثير من العمال والنساء والأطفال، ولكن ما أن وقفوا أمام بوابة القصر الشوي متشددين «أباهم الصغير» (القبصر) حتى قشعت عليهم الكناش الحكومية نيراناً ممزقة الصفوف ومقتالة الجميع بما في ذلك الأطفال الذين سحقوا تحت الأقدام... ثم لاحقت فرقة من القوزاكيين الراجلة المدنين العزل وضربت بالسيوف اءاقهم. بعدها أطلقت المدفعية نيراناً لتصيب ما بقي من الحشد في نيكسكي». كان نيجينسكي حينها طالباً في سن الخامسة عشر، وقد كان ذاهباً إلى مدرسة الرقص عندما جرفه الحشد المتلاطم ثم أدرك بأن الجنود القوزاكيين يلاقون الناس على سهوات حيادهم،

ومع اخشاش نظري سوطاً أفضده وعيه. قام نيجيتسكي لاحقاً بمساعدة أحد رفاقه في المدرسة في البحث عن جثة اخته بين أكوام الجثث لكنها فشلا في العثور عليها. كان ذاك اليوم أحداً تطلع بدعاء مائة وخمسين قبلاً ومائتي جريح. وحين طرقت الأثباء مسامع القيصر سأل مثلها: «هل أنتم وأنثرون أنكم قتلتم من الناس عدداً كافياً؟». وهذا ليس بغريب على القيصر فقد كان دائماً مؤبداً لاستخدام العنف والقوة لتوطيد دعائم حكمه، حيث علق قاتلان «رفاق جيبون» مادحاً كتية (الفنانا جوريتس) التي أطلقت النار على العزل من العمال. وربما يكون هذا القول مذهباً من تعليق القيصر على تقرير عن موقف حكومة في حوال البلطيق قدم شكوي عن ضباط كان يدعم الناس دون محاكمة: «أوه يا له من رفيق جيد».

كان أمراً مقصياً أن يتغاضم الاضطراب في روسيا. فقد عمد طاقم البارجة «بولكين» وقتل ضباط السقيفة الخرية. وتقمص (ايزنشتاين) بعض الوحشية التي جاءت بها الشرطة للمتطرفين في قلم له عن التمرد الروسي سبياً في الحادثة التي أبادت فيها الشرطة المدنيين على مدرجات (وديسا لتغديسهم الطعام للمتطرفين. من الأهمية بمكان هنا أن نشكر أن حوادث كهذه كانت تتكرر يومياً على مسرح الشارع الروسي. وقد كتب أيضاً (أومينايف) عن هذا العنف في عهده «حكايات عن الثورة» كانت حكاية «الناشر» من أبرزها وتحكي قصة مدير مدرسة هاديه الطبع بمالم العشر أصابته قسوة الجنود ووحشيتهم بسعار جنون، فنظم أهل القرية في صفوف كل يرقب لحظة اعتقاله... ومع نفسه أن تتأخر ساعة وداعها يعد أن تودع أهالي القرية جميعهم. لكن كتب التاريخ فقلت، لوضوحيتها الشديدة. عن ذكر هذه القصص. ول سوء الخط كان القيصر جده كشم ضد هذه الحقائق المريعة وهذا فقط ما يقصر الفسوة اللاهبالية لرجل

ليس قاسياً في طبيعه.

عنمت أرجاء روسيا المتفاضات خذت أغلبها حذو قمر (ميتكا وأزين) و (بركاشيف) حيث يغتال الفلاحون أصحاب الأراضي وعرائلهم ثم تتحرك بعدها الفرق العسكرية لسحق التمردين عبر أشبع الأساليب. كان قمر التاريخ الروسي مستغير لو شاعد القيصر بأمر عييه إحدى هذه المجازر، فهو سيدرك ثمن إستمرارية إيديولوجيته البالية الذي يدفعه الإنسان الروسي من خلال عدايه. لكن نيقولا اعتصم في قصره ودعا بعض قادة العمال لشرب الشاي وألقى عليهم محاضرة جديدة قاسية. فكان رد السوار على ذلك قتل عدليه الدوق الكبير المشرحي (سيرجيوس). لقد لازمت اليزايت -أخت القزارينا- زوجها طيلة أسابيع عديدة على أمل أن ينقل وجودها زوجها من القتل المحتوم. وكانت عمقة فيها ذهبت اليه حيث ذكر الإرهافي (كالييف) بأنه كان على وشك قذف فتيلة على عربة الدوق لكنه احجم عن ذلك عندما رأى (اليزايت) يجانبه. وشاء القدر، فيها بعد، أن يتجول (سيرجيوس) في يوم ما أمام البوابة الأمامية بمفرده فالتى (كالييف) قبله التي أحدثت انفجاراً هائلاً، هزعت لشده (اليزايت) خارجاً لتجسد زوجها وقد انفصل رأسه عن بقية جسده على الرصيف، ولملت أشلاء منه من على صفوف الجيران ووجدت أصبعاً له على سطح «الأرسنال». هذا قصص اليزايت بمحذوها ميلها الذي إلى كالييف في سجنه وعرضت عليه إنقاذ حياته إذا ما تأسف على إغتيال زوجها، لكنه رفض وقال أن حياته لن تخدم فضبه الأكبر أكثر من مماته، ثم سار للمنشفة والنق الخطى مرفوع الحامة لا يهتر له طرف. لقد رقب البلاط سلوك اليزايت بكثير من الريبة. فالجميع قد عقت سيرجيوس الذي كانت سوء معاملته لزوجة ذلك الممن في البلاط.

طمع القيصر. وقد لاحظت له في الألق بدور ثورة شعبية، في مشورة

(سيرجيوس) الذي هو رجل خرج من بين صفوف الشعب أصبح أكثر وزراء القيصر ولاء وأكثرهم للقيصر عليه اعتماد. بيد أنه تحمل بحسب الذات مع شيء من الكبر والخت في شخصيته. لقد أخبر القيصر أن أمامه للقبضة حين لا ثالث بينها: أما أن يوطد نظاماً عسكرياً دكتاتورياً أو أن يمنح الشعب قدراً من الدستورية. دأبت فكرة الدكتاتورية عقل نيقولا كثيراً وفكر أن يأخذ بتلايينها الدوق نيقولا الذي أبى أن يكون دكتاتوراً حتى لا يموت بقتيلة مروقة وهذا يقتل نفسه إذا ما أجبر على ذلك. وعليه وافق القيصر على مقترح أن يمنح الشعب شيئاً من الدستورية. وأصدر إعلان تشرين أول سنة ١٩٠٥ الذي منح الشعب حرية الكلام والتعبير والمقالات والاجتماعات وحرية انتخاب ممثليه في مجلس نيابي سيطلق عليه اسم «الدوما الإمبراطورية».

أثبت تنازل القيصر شعوراً بالإستهزاء والسلام بين عموم الشعب . . . لكن الإعلان لم يكن سوى غيامة خفيف لمصرعان ما أدرك الشعب أن «الدوما» لم تكن في جوهرها مجلساً نيابياً . . . فالحكومة بقيت على حالها وعملت على عرقلة «الدوما» لم تكن مجلساً نيابياً بالمعنى الحقيقي . . . فالحكومة بقيت ولم ترق كل سبيل من شأنه عرقلة «الدوما» في ميديا فكان غرض ذلك أن تقسم التقدميون إلى قسمين رضي أحدهما بوائع الحال وعارضه الآخر. ركب «وت» الذي شغل منصب أول رئيس وزراء في روسيا المصاعب في معامه التوفيق بين الأحزاب وعاءاهة حسب رضا الجميع، لكنه رجع بخفي حنين وأثار عليه حتى القيصر الذي شعر أن «وت» بدأ يفقد سلطته شيئاً فشيئاً، فأقاله لذلك من منصبه ثم حل نيقولا «الدوما» في «نوبة استياء» وأناط به «جبروميكن» منصب رئيس

(١) الدوما: المجلس التشريعي في روسيا القيصرية.

الوزراء والذي كان حياً بين يداً القسرت منهته في البلاط على إطراء القيصر عن طريق التأكيد المستمر له على أنه ما زال الحاكم المطلق لروسيا.

هنا هنا ظهر على مسرح الأحداث أحد أعظم رجالات روسيا ألا وهو «نير ستوليپين» حاكم «ساباتوف». كان ستوليپين رجلاً محافظاً وملكياً لكنه كان في الوقت عينه رائداً من رواد التقدم . . . رجل اجتمعت فيه الشجاعة والجرأة والعظمة والذكاء. طاف بعد ثورة ١٩٠٥ في أرجاء روسيا ليعيد إليها استتاب الأمن والنظام بقوة شخصيته ومقدرته على الإقناع. وفي إحدى القرى النائية، أطلق الفلاحون النار عليه خشية أن يعطش بهم فسار يحزم وسط الرصاص وترجأهم ألا يطلقوا النار حتى لا يضطروا الأمر استخدام صلاحياته العسكرية ضدّهم، ثم أمسك أحد الدواب بكم سترته متحدياً فطلب منه ستوليپين برياسة حاش راحته أن ينزل يديه ففعل الشار واستمر ستوليپين في سيره، القى بعدها القرويون السلاح وتلقوا من المغالبة الشفقة والراقة.

شغل ستوليپين مكانة عظيمة في السمات القليلة اللاحقة وربما أجرى جميع الإصلاحات التي طالب بها البلاشفة. ومرة أخرى أخفق الثوريون في ادراك أن الرجل في صفتهم، وشرعوا عليه بعدة محاولات اغتيال. وقد نجم عن إحدى تلك المحاولات تفجير منزله فأقعد إيته مدى الحياة وجرح ابنه وأصاب أربعين آخرين بين قتل وجرخ دون أن يصيب ستوليپين بأذى. ولم تغير محاولة الإغتيال هذه من شخصيته ولم تجعله من رجلاً حقوداً ياحثاً عن الإنتقام بل استمر في معية التقدمي. وربما كان أهم إنجازاته إصدار مشروع قانون يتيح للأحاديث المطالبة بتسليمهم في القرية التي يقطنون. عارض الرجعيون القانون بحجة أن الفلاحين أغنى من أن يستثمروا العراض. لكن ستوليپين تثبت موقفه الذي أثبت صدق رأيه لاحقاً حيث شرع أكثر الفلاحين ذكاء في إقناع

الأخوين وإقامة مجديء الموعي السامي . . . فكانت المحطة ولادة ثورة هادئة
وشرحت القوى هي نفسها لمحة الإدارة الثانية وهي تصور لروحية جديدة في
الأهداف والطموحات. وقد وصف بيزن هذه النتائج قائلا:-

مع حلول عام ١٩١٤ أصبح في روسيا ٨٠,٧٥٠,٠٠٠ من السكان
ومستوطنين ومشحونين بحفالية المالك وبالنسبة قوية في الضغط العام. وفي
الرجال في المزارع الجديدة بطاقة جديدة كانت هي أقرب إلى دفع العمل.
وبدت الماشية أكثر صحة. . . وأثمرت بدور التعاون في كل مكان. . .

يقرب هذا الوصف من وصف سوفيتي للمزارع الجماعية. لكنه لم يكن
إلا وجهاً جديداً لروسيا القيصرية. لقد اكتسب روسيا حلها الجديدة قبل حلول
ثورة ١٩١٧ ولو أن القيصر والشوار أدوميا قابليات متوليين وطموحاته التقدمية
الشجيرة لما كانت هناك أية ضرورة للثورة أساساً.

خامس القيصر لسوء الحظ، شعور باللاحقة تجاه متوليين الذي شغل
أذلك منصب رئيس الوزراء وهو منصب إله الشوار عدواً للتقدم إلى ذلك
السلطة. وفي يوم من أيام أحد الشوار ويدعى (دوكوف) في كتب ثورة
التي بدأ بإعلامه الكشف عن مؤامرة للشوار فضحت الشرطة بطاقة حضور عرض
لجمعية أرمسكي كودسكوف والتي سبحتها القيصر ومتوليين. لقد
أعطى القيصر نفسه بحراسة شديدة وأهل متوليين الذي لم يجد الناظر بوركوف
صعوبة في إطلاق النار عليه وإصابته في صدره.

وقعت تلك الواقعة سنة ١٩١٦ ولما اكتسب زامبوتين مستظلاً في البلاط

١١١ سنة إلى اليوم وهو بلاط صغير يمتلك أرضاً فيها مساحة أحد الدواخل طاعة من
مستشار مالك الأرض الأحرار في ألكندرا

القيصري. لقد كتب متوليين بعض التواريخ لأفرو طرد (الستاريز) خارج
علم مسيرج. . . . وتكهن بارتياح لهذا العداء بين التواريخ ومتوليين - قائد ثوري
بلغ من العمر واحداً وأربعين عاماً يدعى (غلامبير أولياتوف) فأصلاحت
متوليين الحامية بالأرض والفلاحين منسحب البساط من تحت أقدام البلاطة
والأمر الدلاع قتل الثورة.

بعد أن هذه الأحداث جميعها ليست إلا فترة للقبضة. . . فحالاً صدر إعلان
١٩٠٨ كتب القيصر في يومياته قائلا: «التقيت رجلاً مؤمناً اسمه كريكوري من
السواحى نوبولسك». وهنا تنقلت قوة جديدة أهدأت السياسة الروسية. . . لم
يأج في الأفق من أبعادها شيء إلا بعد مضي ثلاث سنوات.

١١٢ غلامبير أولياتوف: القلم اعنوه يقهنة الأثبات في الحياتل الجيوش الثاني. وقد اكتسب
مستشاره المكون في الحزب (البيجين)

الفصل الخامس

مدينة الأحلام

وطأت أقدام راسبوتين في عاصمة شهرتها الروحانيات والرمزية والتمسك
اللاعقلاني بأعراف وفنون وتقاليده القرون الوسطى... عاصمة كتب عنها
شاهد غيان أنشاك قائلا:-

«لو طاف بصرك العالم أجمع لما وجدت فيه مدينة تنعّب فيها الروحانيات
دورا كذاك الذي تلعبه في بطرسبرغ، فالعديد من المنازل الروسية الفخمة قد
سكنتها أرواح مألوفة حيث تعرف أبدا خفية على البياض عندما يحضر احد أفراد
العائلة بغض النظر عن عمق اعتقاد المحضر أو المختفئة»^(١١)

ويورد الكاتب نفسه إشاعة مفادها أن وسطاء روحانيين أقنعوا القيصر أن
يغرض عساكر الحرب الروسية - اليابانية فلا غرابة إذا ان يشعر بعض الشباب
الثوري مثل (مكسيم كورني) أن عجايب أسكرا أمام الحكم في روسيا.

وصل راسبوتين مدينة بطرسبرغ في مطلع عام ١٩٠٥ وحلّ في شقة
صحفي يدعى (جورج بتروفش ماسونوف) وقد فاسمه السكك عدد آخر من
الناس. أكثر راسبوتين تردداً على منزلي (المونتكرينات) ميليشا وأناستازيا تدفعه
رغبته في الوصول الى البلاط سيما وأن ميليشا قد تقررت منزلة لدى التزارينا منذ

(١١) برايلي مودجيس: البلاط الروسي في القرن التاسع عشر.

أن عاجلتها في مرضها لكنها فقدت لغة التارينا في آخر زيارة لها لبطرسبورغ
للباين وجهات نظرها حول قضية الروحانيات، وربما بسبب اهتزاز إيمان القيصر
في امكانيات وقدرات الومطاء الروحانيين بعد اندحار روسيا في الحرب مع
اليابان . . . أو أنه لم يعد يشعر بالحاجة لاستدعائه روح والده واستشارتها
النسبحة كعادته في بدايات حكمه. وعلى العموم احتفظت (المونتسكينات)
بجاسنهن الشديد ومقدريهن البارعة في استحضار الأرواح فيما فقدن، من جانب
آخر، رغبة البلاط القيصري بقدرتهن.

احتضن الفراندورق نيقولا (زوج انا ستازيا) راسبوتين بحرارة مشعرة
سيما وقد أشفى له راسبوتين كليه. لقد تجلى اعجاب اللزوين براسبوتين حين
دفعوا عنه تكاليف اجراء عملية لزوجته حينما شكت من مرض داخلي في
بطرسبورغ.

طرق صيت (راسبوتين) أبواب العاصمة في زمن قصير على أنه صانع
معجزات. وقد كتب جاسوس من الاوكرانيا في تقرير له في الثاني عشر من
نيسان سنة ١٩٠٥ قائلا: فتتجمع الحشود امام منزل راسبوتين ويضطر الناس
للاستظهار يومين او ثلاثة حتى يحصلوا على اذن بالدخول ومقابلة التامك ولم
يسأل احد في ملاحظة تداعيه التبوية ومراهبه وقبلياته في اجترار المعجزات.
ولاحظ الجاسوس الى ذكر بعض معجزات راسبوتين مثل تحويله حقة من
الزباب الى زهرة قواحة وعلاجه امرأة مشلوله أن أمرها بالوقوف والسير
فحسب.

من المحتمل أن راسبوتين شرع حينئذ في إرسال بعض الهبات التي كان

(١) الاوكرانيا: جهاز المخابرات الروسي في ذلك الحين.

بملفها نظير اعماله الخارقة الى بوكروفسكو مما مكن زوجته من شراء المنزل الكبير
في شارع بوكروفسكو الرئيس. وهو قد أعذر كثيراً من ماله المهدى اليه من
معجبيه مع حفظه على قوة الأصره التي تشده لعائلته آخذاً بعين الاعتبار ألا
سبب احراجاً لجنرانه في بوكروفسكو للحال الجديد الذي أسست عائلته تعبه.

عاش راسبوتين في مشعل وجوده في بطرسبورغ يهدو نام لإدراكه ان
الشرطة تراقبه عن كثب مما ولد لديه شعوراً باللاإسباح لازمه قيل أن يعتقد
عابده. لكنه لم يدرك في حينها ان عبون الشرطة كانت تلاحقه بسبب انتباهه الى
اتحاد الروسيين المخلصين ولم يكن مسؤولي الشرطة بعاجزين عن استغلال ما
يترعرع لديهم من المعلومات وصباغتها بالشكل السياسي المطلوب. لقد تحققت
الاوكرانيا من كل حقائق الأمور في البلاد فحاشياً مع عملها الذي انطوى أن تنقله
دقائق الأمور في كل مكان. بيد أن من طبيعة عملها ألا تعلم - في أحيان
معينة - الكثير عن هذا الشيء أو ذاك. وخير مثال على ذلك عندما طلب من
(راشكوفسكي) مدير الفروع الفرنسي في امن الشرطة الروسية الذي فصل من
مصبه لأنه أدرج في تقريره عن (الطبيب) المزيف فيليب أنه مشعوذ ودجال وأنه
نوعين مرتين في فرنسا بتهمة مزاوله مهنة الطب بدون إجازة . . .

اعتاد (راسبوتين) مرور الوقت على رقابة الشرطة في حركاته ومكاناته بل
انه نجح أيضا في تكوين صداقات مع جواسيسها واستغلهم في أداء مهامه.

واخيرا جاء اليوم الأول من تشرين الثاني باللفاء الذي حلم به راسبوتين
كثيرا . . . اليوم الذي كتب عنه القيصر في يومياته قائلا: لقد تعرفنا على رجل
الله - تيريكوري - من اقليم (توبولسك)، وقد تم اللقاء في منزل ميليتا.

ليس من المعلوم على وجه التاكيد لمن يعود الفضل في ذكر (راسبوتين)

لدى القيصر فالتفت بعضه بعد ان الدوقة الكبيرة (أناستازيا) هي التي طلعت بأمره
لكن رأي معظم الكهنة أن (أنا فيروبولد) الصدوقة المقررة للتراثية هي المسؤولة
عن معرفة القيصر بـ (أناستازيا) برقم أن (أنا) نفسها لم تلتحق (أناستازيا) إلا بعد
سنتين من انشائه بالقيصر وفقاً لاعتقاد يروس في هذا الأمر.

تتمت قصة ولوج (أناستازيا) البلاط القيصري بالاقامة الحقة في نفس
الروايات التي تتفق عليها سبباً وولادة ليبيان التي تذكر أن (أناستازيا) قد اعتلت
بها غابات النجر في (نوفانيا دريفيا) على جوفى النهر حيث يغني ويرقص
معهم . وفي أبنية التاسع عشر من تموز سنة 1907 - التي بعد عامين من ذكر
أسسه في يوميات القيصر - أنقل (أناستازيا) في شرب الخمر داخل معسكر القيصر
فيما كان التروايديش يصارع الحصن التي سكنت جسده ثلاثة أيام عجز معها
الأطباء الإمبراطوريون عن علاجه منها وأعلنوا اليأس من نجاحه . . . وفي تلك
الليلة بالذات تمت (أنا فيروبولد) باسم (أناستازيا) في اذان (التزارينا) التي
أبسلت من حاضنها رسولاً يأتي القيصر به . ذهب الرسول إلى (نوفانيا دريفيا)
وأعلن : باسم القيصر . . . هل من أحد يدعى كيريكوري (أناستازيا) ؟ خرج
أناستازيا إلى الرسول الذي أمره باعتلاء صهوة جواده والتغلب إلى مكان حدث
له لكن (أناستازيا) وقد انحلت منه الحسرة كل ما أخذ رفض المشول لأمر رسول
القيصر وطالب بأعلى صوته أن يستمر الرقص ويتحالف الغناء . ها هذا عرف
رئيس العنجر على حامل . رسالة القيصر فترجى أناستازيا الإمشال لأمر
الرسول . توقف (أناستازيا) لأول وهلة صامتة لا يمس بيت شقة وقد أجمع أن
في له ساعتها - كما تحب ليبيان - أن شيئاً ما قد تغير فيه ما كان أملاً . . . والى
السلام وتطلعت هيئته بكفها يريق غريب على ما هو أمامه . . . ثم سلط على
ركبته وصل وأكعباً همرت وعدة غنية في الجميع الساكن . بعدها فأن (أناستازيا)

الرسول : لقد حلت له ولا جوفى عليه . . . وما إن انتهى من حديثه حتى
سبب حل صهوة جواده ونهب الجواد متوجهها إلى (أناستازيا) . كلف
(أناستازيا) عن الشرب والرقص لكنه ظل وأكعباً على ركبته مصلياً وبينما هو
في تلك الحال بدأت محطة التروايديش بالتحسن إلى أعلى (كما أخبر (التزارينا)
عندما رأها . دخل (أناستازيا) غرفة المريض وركع على ركبته بقرب سريره
وأغلق غيائه لكن وجهه الحاد اكتسب بسمة الحذية حتى تسمر القيصر وزوجته
بالصمت . ثم غنى أعزاً وقال : «إن ليك أيتها الأم الصغيرة بنام سلام
الأمر . . . وفي تلك الليلة كتب القيصر في يومياته قائلاً : «تعرفت إلى رجل
قادم من كيريكوري من إقليم غريوليك وقد أخذ الحبيب البككي من براثن الموت
معدلي صلواته»

أما ولادة قناريت ميلر فأطلق حاساوية من رواية ليبيان . فظهر يذكر أن
الدوقة الكبيرة (أناستازيا) تمت باسم أناستازيا في أذان (التزارينا) ورويت لها
بعد أن حوت من التروايديش (أناستازيا) في أذان (التزارينا) في أذان (التزارينا)
وباشارة بركاته (أناستازيا) كما ستذكر لاحقاً فأن حدثت قبل عدة سنوات
والحدوث (في عام 1903) . أرسل القيصر رسولاً له (أناستازيا) (لكن فلولوب
ميلر لم يحدد المكان الذي وجد فيه الرسول (أناستازيا)) وجاء (أناستازيا)
البلاط القيصري بعد مضي أربع وعشرين ساعة (ولم يفسر ميلر سبب تأخر
أناستازيا) . ثم دخل جناح المريض وتوجه للقيصر وزوجته بالسماعة عريضة
رسم إلى صدره الأفسسة الحديدية لروميا وأكملها وزوجته وفيلها قبله حذرة
لحدث (أناستازيا) بعدها يصرح المفضل المريض وروي له قصصاً عن سيرها تبعها
مختبرات حراوية ، فبالقدت حاسة الطفل ويجلس على فراشه . وأخيراً غادر
أناستازيا القصر بعد أن عهد بالعمدة في اليوم التالي وقد استكت (التزارينا)

سوق يدي القوي وقتلها.

بيد أن (الآن موهيك) لا يكفي بمرضى (الترافيتش) سبب لدخول البلاط القيصري. فالصبي لم يكن من العمر آنذاك إلا خمسة عشر شهراً فأهلك من غياب أي دليل أن (راسبوتين) نجح في كسب ود القيصر وزوجته حتى بعد عامين على أول لقاء له بهما في أقل تقلير. وعليه فإن خلاصة روايتي ليسان وميلر أنها متشاكات على قدرة (راسبوتين) على الهام الأساطير. ولم ترد عبارة ليسان بلقط الخبيب الكبي من برائن الموت بفضل صلواته. في وصف القيصر لأول لقاء له مع راسبوتين «رجل الله من إقليم توبولسك». ليس هذا فحسب، بل أن ليسان غير تاريخ دخول (راسبوتين) البلاط القيصري بستين.

كانت الفترة الممتدة من ١٩٠٥ حتى ١٩٠٧ فترة خصية للقيصر ولروسيا إذ تشكلت (الدوما) الأولى التي سرعان ما حولت لقرار بخصن بقرمبا للحكومة التي رفضت تقديم استقالتها وهو ما أثار حيلة القيصر خشية من سقوطه المطلقة فحل (الدوما) في أقل من ثلاثة شهور أي في تموز ١٩٠٦. ثم اندلعت ثورة في موسكو في شهر كانون الأول من تلك السنة صاحبها امهال صف واقامة مشايخ في الشوارع والرافة كثير من الدماء دون أن يؤثر ذلك على ولا اجند للقيصر فاجهضت الثورة في مهلهل. حاول بعدها نفر من أعضاء الدوما الأولى الذين هربوا عبر الحدود أن يفتكروا روسيا من غيرتها سببان أصغر من هناك. إلا أن البيان لم يلق من يصغي اليه في شعب استوفت الثورات طاقته وتركته ليخبط في ضيقه. ثم تشكلت في عام ١٩٠٧ (الدوما) الثانية بعدها وفي خريف العام نفسه تشكلت (الدوما) الثالثة ونجحت في الاستمرار خمس سنوات يات فيها راسبوتين الرجل الأقوى في روسيا. ورغم أن شهرته كغليب مشافي قد تناقلتها الأخبار منذ عام ١٩٠٦. إذ سبق وأدعوا

الترافيتش على مسئولين خدمات راسبوتين حين دمرت قبلة منزله وبجرحته أطفاله. لكنه رفض عرقسها ولم يقابل راسبوتين حتى سنة اغتياله في كيف وعري بنا هنا قتل بعض من وصف مسئولين لذلك الملاءم.

التحقيق بعينه الناصين متبعاً المهيم من كلمات المخطوطات المقدسة تعذر حتى فيهمها ثم حرك يده على نحو قريب أشاع في نفسي تقوياً من هذا حشرة الجداس فيالتي. ولكنني أدركت رغم ذلك أن الرجل يمتلك قدرة الترويم المفاطيسي التي بدأت تترك الوا تقوياً لتي لا أقله غير أثر الامتصاص

ويضيف (روزباتكو) الذي ذكر هذا الوصف قتلاً: «إذا ما تمسك راسبوتين مع هذا التأثير على الإرادة الخيلية لسواين في عصر الترافيتش أد يعمل بطبعها الضعيف أمام قوة كهذه».

ومع ذلك، تبقى الحقيقة أن راسبوتين لم يكن بحاجة لتوظيف قواه في الترويم المفاطيسي مع الترافيتش التي غلبها لغتها للتصديق به فهو لها خلاصة قوة وزاهة اللامع الروسي. من حيثيه عامل راسبوتين القيصر وزوجته بالأكيف من السلوك. فزوج ليسان تطياً لها لا لا قيصر وزوجته بل الناس عابدين وهو ما كان الاثنان بحاجة قلبية اليه وخامسة الترافيتش التي كانت تشعر انها بحاجة الأحقاد والمكائد. يقول الكاتب المجهول لكتاب «مقطر الجاحزة»:

بدأ في هذه الفترة (١٩٠٥-١٩٠٦) السلوك العزيب للإمبراطورة الكسندرا جلياً لفت إليه النظر من حيطها. فمعادتها لم تنوء الظهور إلى العامة ولم تكن حاشيتها الخاصة إلا على مقضى وفي أمر طاريء. طالعت نتيجة ذلك السلوك جميع الاستقبالات في البلاط. وفي تلك المناسبات التي يتحتم فيها على

القيصر أن يقدم مادية عشاء أو حفلاً تستخدم المعجزة الهيبة الإمبراطورة (ماري) وهي إلى جانب أنها لشحية لحياتها. وعليه لم يحظ في رؤيتها إلا حلقة البلاط القسيفة وسرت اشاعات كثيرة عن تحفظاتها الخاصة تلك، فحظهم قال أنها لحسن البطانة فاتبعت نظاماً المائياً، خلافاً لمتاح طيها، في محاولتها إزالة الشحوم وهو ما تسبب في انهيار جهازها العصبي. وقال البعض الآخر أنها تعاني من اكتئابا عصبية تغطي في حالات الإزعاج أحياناً، وجهها وبديها فتمسك عن الظهور إلى العامة... وآمن البعض أن التزاوج لم تكن سرى محبوبة بلهاء... .

شعرت تلك المرأة المحبولة مرضية: أنها زوج غريبة في بلاد جاهلها العدا... ثم ظهر لها راسبوتين... مجبدا القروي الروسي ومؤكدا لها حب البقاء من الروس وأن البلاط وحده الذي يكن لها الكره.

وعليه امس راسبوتين أباً ثانياً لها وفي تلك الفترة بالذات من عام ١٩٠٧ جرح اليكسي نفسه وتدهورت حالته الصحية. لم يشهد أحد علاج راسبوتين لمارافيتش ولم يعلم أحد على وجه التحديد تفاصيل ما حدث برغم أننا قد نأخذ بعض ما رواه ليبيان وفولرب ميلر عن دخول راسبوتين البلاط. أنها الفترة والثقة بالنفس والطيبة وحس الجير قد أشع بها راسبوتين. فكانت تغطي بحضوره اغلب هواجسهم ومخاوفهم من القدر ويستعيدون إيمانهم أن إرادة الإنسان قادرة على التحكم بقدره... فلم الخوف من القدر ساعة وجود هذه القوة الإنسانية الحارة... ٢٢

«قدرايت راسبوتين»:-

نصل الآن إلى مسألة في غاية الأهمية عن حياة (راسبوتين). ألا وفي قدراته الشارقة على شففاء المرضى التي غفل عنها الكثير ولم يولها أحد الاهتمام الذي

تستحقه. فإذا ما كان راسبوتين يمتلك فعلاً هذه القدرات وإذا ما كان عضواً كما هو مرجح على الأغلب في الطائفة الخليستية فليس من الغريب إذن أن يستعد راسبوتين بنفسه أحد أفراد الخليستية الذين تتجسد فيهم روح المسيح... وهذا تحديداً مفتاح ذو أهمية قصوى للشخصية المركبة لراسبوتين. من جهة أخرى يؤكد اعتدائه بأنه (محقق) معجزاته بمعونة طبيب يدعى (بامبايف) وهو مغربي زعم أنه قد درس الطب في إقليم التبت وبدأ قادراً على صنع أدوية ناجعة من تركيباته العشبية. ويذهب أحد الكتاب إلى الاعتقاد بأن راسبوتين أعطى لبامبايف مالا مقابل صنع الأخير جرعات خطبة من السم لعلاج التزارفيتش وتركها في حجرة المريض لكي يستخدمها راسبوتين عندما يأتي للصلاة من أجل انقاذ حياته. بيد أن أحداً لا يستطيع ولو علم بالحياة الأسرية للعائلة المالكة أن يأخذ هذه القصة على عمل الجند وهي إنما ذكرت هنا لتوضح وجهة نظر معينة حيال راسبوتين: أنه الموقف الذي يرى راسبوتين دجالاً فعلاً مؤثراً في سلوكه.

هناك أيضاً منعتنا أن راسبوتين لم يكن بالقدوس الذي آمنت التزارينات. أيمنك إذن أن يصنع بقدرات عبقرية قادرة على صنع المعجزات؟ وثمة حادثة وقعت عام ١٩١٢ وتصلت بالتزارفيتش فشل في تشريحها وتبريرها حتى اعتدائه. حين طرد راسبوتين من البلاط لكأنه تسجها له رئيس الوزراء كوكوشيف. ففي أيلول من ذلك العام وبينما كانت العائلة الملكية تتمتع بعطلة في (بيلوفيشكايا) بالقرب من كروندو فقد التزارفيتش توازنه وهو يقفز خارج زورق وكدم ركبتة مما نتج عنه نزيف داخلي ثم تسبب في الدم، شكتت بعدها الحصى جيد الصبي لأيام عديدة أعان فيها الأطباء عن بأنهم المطلق من إنقاذ حياته. وقال فيكتوروف، رئيس أطباء القيصر أن شبح الموت لا يبارق الصبي إلا باستخدام جرعات قوية من دواء شديد التعالية لكنه لا يفوق حالاً على إعطائه للصبي قبل

أخذ مواءمة التوازن التي طليت في تلك الأثناء من مبدئها (أنا فيدوروف)
 الرجال برقية لراسبوتين في بونكرافسكو نشأته فيها الصلاة من أجل وليتها
 ومرجان وما وردتها برقية يقول فيها راسبوتين : « ليس مرض الترافيش خطيرا
 كما يبدو ، فلا تدعي الأملياء يسلبوه راحتهم » . وما إذ وصلت
 البرقية حتى غائل الصبي للشفاء وتخطى مرحلة الخطر .

إن ثمة ثلاث تقاسير هذه الحادثة : يتعلق أولاً باستخدام فيدوروف
 والدواء قوي الفعالية الذي اعتقده ضرورياً للشفاء ، يد أنه اجتمع عن ذكره
 عنه ما مثل واكتفى بالخروج من العزقة ولكن أمر المعقول أن يتناول
 فيدوروف عن ونام شرف لو كان حقاً من أئمة حياة الصبي ؟ . أما ثانياً فمفاده
 أن هناك شخصية المطلق بقداسة راسبوتين قد تحدث إلى الصبي الذي كان غاملاً
 صالحاً بالخروج ، وهذا تفسير ممكن أيضاً ولكن موصول ، رئيس المحكمة
 العليا ذكر أن الصبي كان في حالة ذهيان نسب الحسن وليس من المعقول أن
 يكون قد علم بأمر البرقية إلا بعد شفاؤه .

أما التفسير الثالث فيقتضي أن راسبوتين اغتم صراحة شفاء الصبي عمداً
 بكل احتمالات عودته لشرف المظلة في البلاط القيصري - أو أنه أمر بفقرته حل
 علاج الصبي من على بعد البقي ميل تقريبا .

يغيب الدليل لصالح الاقتراض الأخير . لراسبوتين لم يخلط بين قدراته
 الإيحائية وبين قابليته في التثويم المغناطيسي برغم أنه قد فعل ذلك في بداية
 مشواره . فهو قد أشفى . في صنام ١٨٩١ ، زوجة صاحب خزان من داء الزوب
 بالصلاة قرب مرزها ووضع يده على جبينها - بقي في الحالة شهرا وعندما
 فنانو شفتت المرأة تماما . إن داء الزوب مرض جلدي نفسي وربما كان قابلا

للإثر بإيماء التثويم المغناطيسي . غير أن راسبوتين لم يترك في وقت لاحق أمثاله أبداً
 من تلك القوى ظلاله على علاج الأمراض تنبع من مصدر آخر . ويبدو نجاحه
 في شفاء الترافيش بواسطة البرقية دليلاً على زعمه هذا .

يتفق الجدل القائم أن راسبوتين ليس بقليل وإنه لذلك يفتقر إلى القدرة
 على صنع المعجزات جهلاً في مبادئ العلاج . ففي الوقت الذي كان فيه
 راسبوتين حياً في أرجاء سيبيريا كانت أماري بيكر إيدي تعلم تلاميذها في
 أمريكا أن يستطيع أي كسوف أن يقدم علاجاً لو البع عليها . وهي قد تعلمت
 تقنية هذا العلاج على يد رجل يدعى (فينس كويمبي) الذي تعلم هو الآخر
 المبادئ من فرنسي له القدرة على التثويم المغناطيسي يدعى (بوز) . اكتشف
 كويمبي حقيقة مهمة هي أن إيمان المريض بأهمية العلاج هو الشافي للعامل من
 الشاء أكثر من الدواء . ثم ذهب كويمبي إلى القول الأبعد أن ضرورة الطب
 لعلاج الأمراض ليست كما نعتقد فتضع المريض بهالة عقلية وعاطفية معينة
 مشبعة بالفرح والحياة والنشاط لأقل على التخلص من المرض . حضرت كويمبي
 السعادة باكتشافه هذا وعندما أشفى رجل بين سويدي قال فيه أنه : « بعد
 معجزات الأناجيل » . ذكر كويمبي بشدة استخدام أي قوى فطوعية أو اجتماع
 أي معجزة . مؤكداً أن أدوية كانت طوعية وعلمية وأن أي فرد يستطيع تعلم
 الطريقة إذا ما بذل جهداً سواء أكاداً يتمتع بقابلية على التثويم المغناطيسي أم لا .
 وقد أثبت كويمبي نظريته هذه أن تعلم طريقة العلاج لإتباعه الذين لا يمتلكون
 قدرة التثويم المغناطيسي . وعليه الذكر كويمبي في نهاية المطاف أهمية التثويم
 المغناطيسي برغم أنه بدأ حياته متعلماً لها . لا كان يطلق على التثويم المغناطيسي
 آنذاك المعجزة أو سحر الحيوان .

جند (ليست تولد) في مسرحيته (غاري بيكر إيدي) اللقاء بين كويمبي

والسيدة (إيدي)، وأقل متاجزاً من المرحبة فهي توجز على نحو رائع الطريقة
والأفكار التي استخدمتها طلبة السيدة إيدي وربما استخدموها وإسبوتين:

الوقت: السيدة (إيدي) كويمني عام ١٨٦٦ وعمرها واحد وأربعون عاماً.
وقد كانت مصابة بوسواس مرض هستيري وتعالى من ضعف في العمود الفقري
وشال في يديها وساقها مع ثوبت إغراء مخشي في فترات متقاربة.

كويمني : أعطني يديك

ماري : لا استطع فيها مشاولة

كويمني : (أخذاً بيديها) : أنظري في عيني

ماري : حسن-

كويمني : كيف تشعرين الآن؟ أنا سأقول لك.. أنت تشعرين بالم مبرح.

ماري : نعم

كويمني : ليس باستطاعتك النوم لاثلك تعانين من تشنج عليك طوال
سرات.

ماري : اجل... اجل

كويمني : لقد أخبروك أنك مشلولة... لقد أخبروك أنك مشلولة. لقد
قالوا لك أن كمال جسدك مسموم وأن مرضك لا شفاء منه... وأنت قد
سدت بزم هؤلاء الأطباء الجبهة الذين لا يعلمون شيئاً عن طبيعة الرجال
والنساء. فما جدوى عنجر الجراح لو قطعت جسد المريض فحسب! أن المرض

ليس بشيء من الجسد بل هو مرض العقل الذي يؤثر على صحة الجسد. وبغليه
فإن من يرفع من الأطباء عن المريض هم العقل سينجح في شفاء جسده. فالعقل
يعيد الصحة للمرضى من الناس... فهو المعالج الشافي.

ماري : العقل هو المعالج الشافي...

- كويمني : أنت تجلسين فيايشي وتظنين إلى فلا ترين أحداً غيري. أنا
لحسب. التركي العالم وراء ظهرك وأشي كل شيء... الأطباء الجبهة وعائلتك
وناصحيك وكل الأذى الذي تعرضت له. وأشي حبوب الدواء والأطباء
الشفاء فانا جالس أمامك وأنا الذي أعالجك.

ماري : إن... أنت... أنت... عا... الخفي.

كويمني : (يقمس يديه في الماء ويشره عليها):

أنا اغمس يدي في الماء الذي وارشه على جيتك. أنا اشعر أن أملك ينتقل
إلى يدي أنا... أنت لا تشعرين الآن بأي ألم.

ماري : لا اشعر... بأي ألم

كويمني : كلا... أرقمي يديك اليمنى

ماري : ولكنني لا أقوى على رفعها

كويمني : اقلتي أرقمي يديك اليمنى.

ماري (ترفع يديها اليمنى) : أوه يا الهي.

كرويسي : انفعلي بذلك البشري

اماري : ارفع يدي البشري ونجش بالبكاء

والآن انهي

(تحاول اماري النهوض ولكنها تقبل وتعود للجولس)

كرويسي : انهي - انت ترفزين لي النهوض، انت تستطعين النهوض.

(اماري نهضت)

كرويسي : الآن امري امري امري. والآن امري الى هناك اوقال

لقد حدثت معك : انها فعلا تستطيع السير

الموسيقى : انها المعجزة...

كرويسي : تقولون انها معجزة؟ ان علينا البحث والسعي حتى نفهم

وتدرك ماهية تكويننا. ان من يتحدث من الناس عن المعجزات هم من يدرك

من قلبه العقل التزير البشري. فليست في الكون معجزات وكل ما فيه يسير وفقاً

القانون الطبيعية وما علينا الا ان نتأمل والبحث.

عاشت السيدة ايندي طريقة كرويسي في العلاج وعلمتها لتابعها برغم انها

اكثر عليه فضله في تعليمها. ولكن اتي جدي مستجيبها وهي ما فتحت

تعرض لوباء مرقية بين فترة والفترة ولا تترى احداً في علاجها غير

الرجل الغامر على ذلك من بعد، فحظاها، بنفس النتائج ولا يكن بقرها⁽¹⁾

(1) اقرأ كتاب (السيدة ايندي) لولاه ايتون فـ، فيكون، الكتبة المائلة، ص 14.

كان كرويسي رجلاً نزيهاً من رايه حتى الحزن قديمه، حاجبه العمل وان

لغماً في بعض ما فعل سيؤكد انه قدسياً في طيقته. اما السيدة ايندي فلم تكن

لذلك من سحبال القديس شيئاً فهي مستيرة، قائمة الشك في نوايا الآخرين،

عجبة للإشفاق. لا يعاقب لسانها إلا بالأكاذيب ومليئة بالرياح جسداه حتى

وهي في العقيد البنادين من حصرها. كانت تعتقد كرامسويل، ان الله مبع

قدورها على علاج الأمراض ومعه نفاذ بصيرتها في المخطوطات المقدسة، فها

بغالضها معتمدا كرويسي ايها هذا فهو يقول بأنه عثر على اكتشاف - أكون في

فرتنا الحالي بحوث (ج. ب. راين) في علم التكهين النفسي - يرى ان عقل الكائن

البشري يمتلك قوى اطلقت عليها قرون الماضي صفة: القوى طيبة.

ان قراءة لي حياة كرويسي يتحدث الناس عن المعجزات لأهم لا يقفون

من قدرة العقل الا التزير البشري، سيؤكد لنا الآن صعوبة فهم اي تفسير سطحي

لظاهرة القوى الخارقة - اي الفراسة والشحاطة ونفاذ البصيرة وصنع المعجزات

... الخ - لكن الأمر يستحق المحاولة.

بلغ الأستاذ (أيموند هومرل) مطلع القرن العشرين حقيقة ادراكية مهمة

تفتضي أن (الادراك) البسيط أمر لا يحدث على الأغلب، فلفت اذا وضعت هذا

الكتاب على ركبتيك وطاق بصرك ارجاء الغرفة انزيا هذا الأمر تأتلك ترى

وتسمع فحسب كل ما يحصل حواسك بيد ان عقلك مستمر في واقع الأمر على

التحليل والتخمين وتفسير وتعميل الأشياء واخياناً على خلطها وتشويها. لقد

سمعتاً جميعاً من نسوة مستدمات يعتقدن بانهن تعرضن للإغتصاب او عن

(1) هومرل (Edmund Husserl) (1859 - 1938). فيلسوف الماني. تساهله من العلاقات بين الحواس

والشعور الذاتي والفضة والادراك الحسي بطور الأشياء ومن ثم حقيقة العباد والاشياء. أبين

منعقد الظواهر التي يدرك ان العقل لا يدرك الا الظواهر فيكون معنى الحواس

رجال دين متمسكين بحال لهم أهم وأو المسيح والملائكة يسرون غير السماء .
 لكن الجسم المباشر في حالات كهذه أنها مجرد مراب أو حقيقة إن يكون سليماً كما
 يرى . (نحن جميعاً نفعل نفس الأشياء طيلة فترة مسجوننا كل يوم) . وعليه
 يحصر الإدراك الحسي الوحيد الذي لنا وصفه يد (النقاء) في الأسوات التي
 تفرق مسامعنا ونحن بين الصحو والوسن أو في الأشياء التي نراها والعقل فارغ
 من كل فكرة .

إن من الصعب اصطلاح العقل في ظل ظروف طبيعية ، وهو مشغول في
 خلط وقرز الأشياء فهناك الخداع البصري الذي قد يمر عن وجوده بتأرجح
 خطوط ، كأن يبدو خطان مستقيمان خطين منحنيين بسبب وجود بعض الخطوط
 المشعشعة أو عندما يتحنى خطان إلى الداخل ويبدوان أقصر من الآخرين عتئين
 إلى الخارج وهذا إن دل على شيء فأنها يدل على أن العقل يعتمد كثيراً على نوع
 من الاختزال وموئناً أنها حقائق لا جدال فيها . غير أن الفضل وسيلة لدراسة
 قدرة الخلط والتشويه لدى العقل الإنساني هي من خلال دراسة علم النفس
 الجنسي والذهني لأن اقوى قوى العقل تكمن فيها^(١)

اختراع (هوسرل) تقنيات دراسة قوى الخلط في العقل وأطلق على طريقته
 اسم (علم الظواهر) وهي بلا شك أهم الطرق الفلسفية في القرن العشرين .

إن أول الخطوات إذن لفهم راسيوتين هو ادراك وجود قوى تفك خلف
 حبة الوعي وإنما تتداخل باستمرار مع طريقة رؤيتنا للعالم الذي نعيش فيه وهي
 رؤية أقرب تشبيهاً بحالة أمة تعتقد أن لها صحافة حرة مطلقة وهي تعلم بوجود
 هيون ترقب كل شيء يظهر في الصحافة . إن رؤية الأشياء كما هي لا يتأتى

(١) اقرأ لي (أمنون الدافع الجنسي) المؤلف .

بمجرد أن تفتح عينيك وتري . بل هي مسألة تدريب فلسفي طويل وقاسي .
 ويطلق هوسرل على فرضية (الادراك) اسم (نقطة الاستشراف الطبيعية) . وإن كل
 ما كتب عن راسيوتين كان مصدوره نقطة الاستشراف الطبيعية دون أن نشهد
 محاولة تأخذ بعين الاعتبار القوى العقلية الكامنة خلف حدود الضمير والتي لا
 يجب خلطها مع (اللاوعي) الفرويدي برغم وجود مناطق تداخل ونشأته
 بينهما .

نستنتج من ذلك بأن (الادراك البسيط) هو مغالطة بعد ذاته ، بل إلى جانب
 التحامل الواعي الذي ندرك أننا نفرضه على العالم من حولنا ثمة الف تحامل لا
 واعي نفترض به أمراً واقعياً .

غير أن العقل (بضمي) دوماً (صبغة) أساسية للعالم الذي يرى ويمكن أن
 ندعوها مسألة اثبات الأشياء ونفيها . فالواقع يمكن رؤيته من خلال النقطة
 القصوى لمصروف أو في هليان امرء شديد الإثياب من الآخرين وفي مئات
 الطرائق بين هذين البعدين فالتجربة المشتركة توجد في نقطة ما في وسط الطريق
 بينهما لما هي إلا مطلباً في ناحية النفي .

وليس من اليسر تحديد مسألة النفي . أو الاثبات تحديداً دقيقاً فلما أننا
 نتقبل تفسير أموجتنا بين فين وآخر بصفته أمراً حتمياً ، كتقبلنا لسوء هضم في
 المعدة أو شره على الشقة .

يد أن قدرة العقل على تلوين تجربته قد ينير الوصول إليه أحياناً . تأمل
 مثلاً هذا المقطع من رواية (عائلة كوفليوف) (لشريدان) وهي إحدى أكثر
 الروايات تشابهاً في الأدب الروسي :-

كانت تقضي جل يومها كسيرة فتجلس على كرسياها وتشر على الغزالة
اسمها مرقا المسح ويغليها النعاس حيث تم تستيقظ وتطر وتطبل النظر من
النافذة ثم دوما فكرة تشغلها... تحول بصيتها في الحفول الواسعة الممتدة
على مد البصر. لقد كانت (توكوزيلكا) ككية... ليس فيها للمعين ما يسمع...
وما من شواخص تزين مرقعها... لا حقيقة فيها ولا ظلال ولا مكان
للاسترخاء... وحتى الألية خلفها ترحي بالخراب... وتمتد حولها من كل
جانب حقول متوامة الأطوال... حقول تجزوت من الشجر.

لا يبدو ان الروائي يطرح هنا أي تفسير لم يحاول بلوغ نسط لكرامهم
شعرى في الاقدام فالمنظر شاحب كاستامه الله وفي المشهد مسحة موحشة وهو
جند عادي، لكن الروائي يغوص في أخفاق وصفت فيقول:-

أطالت نظراً إلى الأفق... ونطلعت إلى القرى العارقة في الطر والتي بدت
كسحيم سوداء على الأفق... وإن الكنائس البيضاء في المقابر وإلى رقع الظلال
الملونة التي كونتها القمامات على السهل.

يثير وصف الروائي للقرى العارقة في الطر والتي بدت كبقع سوداء على
الأفق لدى القاري الذي تغلب عليه الوصف الكئيب وتأثر به قليلا، ومشة
مسطرة من مصفات الحياة... انها واضحة المنظر على الطرق البليلة ومتعبد
لذ الذين كل ملاح وروائع قرية ما في يوم عطر... ويستبدل للقطعة الجدران
الوهمية التي أريست دعائمتها أحاسيس الروائع ومتفجرح عنها زائفة الحياة
الحقيقية لتدرك حينها اننا كنا ضحية نوع من لعبة الثقة... لعبة فارسيها
فانيا. مقلنا عن طريق احتشادنا الفكري على ملاحقة حوائث معينة فقط من
الحرمشتا وصل إطلاق العنان لهذه الحوائث في تكمين أمزجتنا. اننا ندرك بان

السهل العادي الكئيب الخالي من الشجر ما هو إلا جانباً واحداً من الحقيقة. وما
يرى (خالد كوخ) هذا الوصف مشوها بقوة الحياة او ملتصقا كجوهرة فريدة. به
اما سفضل عن روح الفيلسوف إذا ما اعترضنا بقلنا ان نظرة الزاهد في الدنيا هي
النظرة المصرفة واللاواقعية. ان ما يحدث عند قراءة عبارة الروائي فكري عارقة
بالطرا والتي تخلق خرجا معينا في العقل هو ان (الجواسس يستفتح) وتقبل من
الواقعية أكثر مما ستدرك في الحالة الطبيعية وتستغنى القربة الشد ارتباطا بالواقع،
بدلا من ان تظل متجنية ونسط جدران لا مبرية، ان العقل مبرمج على بناء
جدران لامرئية وعن التخيال وعزل ما يراه... فما اشبهه بجوهر متعلق مع
الريح وعليه ان يوقف عند اشارة حمراء. ان النظرة الشمولية للأمور توحي من
فعاليتها، ومقارنتها على البيضاء، وبالتالي المتخاطرة واحتمالية مستقبلية لا (وهي
شعولي). يشد ان الإنسان قادر، ورغم أنه (متكهن) في حدود حواسه الخمس
كما يشير بليك، على الخروج (من هذا الكهف إلى ضوء) (أبواب الادراك)
ويشعر قرابة الواقع الخارجي (أو غيرته)... ولا أرى أن من الصواب تماما
الافتراض ان الإنسان قادر على الخروج من محدودية حواسه إلى ضوء فالأمر
يتطلب نظاما عقليا شبيها القوة او يتطلب استخدام عقليات معينة مثل
المسكاليين، ومع هذا يبقى يعتقدون من يدرك أن نقطة الاستشراف الطبيعية
ليست هي الحقيقة المطلقة بل هي ظرف فحبه، الخروج وقفا يشاء والتحرر
من قيود حواسه.

ان إحدى فرائد نقطة الاستشراف الطبيعية لدينا، باعتبارنا كائنات
اجتماعية، هي شئى موقف نظري على انعدام خيال العالم من حولنا وفيما هي
ليست بالبرية المطلقة التي غطت المراجيات الكئيبية لذلك كوخ عندما كتب ان
يتقوى البرص... فانها بعيدة كل البعد أيضا عن المجابيات الحياة التي نراها في

رسوماته او في بعض من أوراق النثر التي كتبها نيته.

أما «الامكان» فيصل الى اكتشاف على جانب من الأهمية مفاده انعدام
ثقتنا في العالم شعور مبالغ فيه على الأرجح. كتب هـ ج. ويلز قائلا:-

«إذا ما حطم الإنسان الجدران الزوقية لظروف حياته اليومية... تلك
الجدران الوهمية التي تكبل أغلبنا من المهد الى اللحد، فيكون قد فعل صنيعاً
جديداً. وإذا ما غدا العالم كتابة فإن توسعت قلبه».

ان أولى الخطوات هذا الرفض التريزي لثقافة الاستشراف الطبيعية هي
التصميم على هجر الطمأنينة التي اعتادها الإنسان... وسيضيء، طبعاً، من
يشي هذا القرار نابذاً للعالم وجوالاً يتشد الحقيقة.

صحيح ان «المثالية» لا يمكن ايجادها في العالم الخارجي وأن كثيراً من
رومانسي القرن التاسع عشر قد كتبوا اعمالاً يكتفها اليأس ينتهي فيها الجوال او
السائح بالإنسحاق او الموت من شدة الإحباط. لكن حكمة منهم حاولت ان
يتمسك وقع ان يكون المرء جوالاً ورياً اكتشفوا أن مجرد تجوالهم في أحقاب
«المثالية» سيحلب لهم بعض التغييرات ويمتد قدراً من الحرية من سجن
الشخصية الأولى. ان تلك الدعة والطمأنينة يغلق يدها شعوراً صحياً لبداهة
جديدة وشعوراً بالتفوق على من ظلوا مكسرين يرداء الحرف من الحياة كما يخاف
الناس من الغيد، ويطلق الوجود كله عنقاً ودفاً جديداً.

يبدو ان التغيير الذي يمكن ان يحدث، نادراً ما يكون عميقاً ومتواصلاً اذا
ما بقي بعيداً عن الدين لأن ما من شيء يتمتع تكون شخصية جديدة قائمة على
اللاطمأنينة المادية على ان تكون هذه الشخصية الجديدة بالضرورة أدنى من

الشخصية القديمة في جوانب معينة، فمثلاً مرغان ما يدرك «الجوال» او
«السائح» أنه يدفع في السريعات الأول من رحلته، ثمناً ليهجة وحرية انشغاله
بمئات القلائل الصغيرة. أين سينام؟ وكيف سيتدبر وجبة الأكل القادمة؟
وسيتخط في شعور الضياع فالعالم الخارجي يتطلب الآن منه اهتماماً أكثر من ذي
قبل. وهذا التفاقم في الإهتمام للعالم الخارجي يتطلب اهتماماً متكاملاً له في
الجوانب الذاتية، لأن شعور الضياع يستوجب توازناً مضافاً له بالعودة الى جوهر
الهدف من هذا الترحال في أعماق الوعي وهذا لا يتم تخفيف إلا بالصلاة او
التأمل. ان الصلاة نبتة للشخصية الواحية. وبينما ترجع صلاة المتدين الجاهل
بدواخل الإيمان خارجاً وكأنها موجهة الى سلطة ماء تنجيه صلاة المؤمن نظرياً الى
الداخل... الى نوع الهدف الذي يخرق الوعي والضمير كخندق شديد العمق
ولي حانة كهله يصعب على الشخصية الجديدة الشقوق في صدقة محنة
وسينواصل معها الدافع الجوهري للحرية.

ثمرة هذا الموقف الجديد حيال العالم الأكثر أهمية هي انها تطور «الدافع
الزهملي» حيث تبدو الأشياء (مختلفة) عن سابق حالها لسبب بسيط هو تشرب
الأدراك الحيبي بمزيد من الفعلية. و (ستستفتح) الحواس ومشتك مزيلاً من
الطاقة في تخزينها وسيولد عن الطاقة المخزونة عدم ثقة لمواجهة طوارئ الأمور
وكل هذا سيحرر ويتطلق. وسيديم ومسوح الغاية العقل الذي سيهدأ ويكون
غاضب هذا التنسي بين المخ والأعصاب والجسد درجة جديدة من الصحة.
وبدرك جميع الأطباء أهمية الموقف العقلي للمريض تجاه المرض فعن يظن الموت
عاقبة مرفقة يكون قد خسر نصف المعركة والعكس صحيح. وهذا ما يفسر
منصة رامبوزين القوية والثابتة التي تصل الى حد يصبح فيه مجرد وجود قادراً
على منح القوة لشخص مريض.

ليس من الغريب إذن أن تتحس زوجة راسبيوتين التغير في زوجها بعد وفاته من أول زيارة له للسلطين. فمعظمنا يعيش غمار تجربة تغيير كبرى في الشخصية لا غير عند العبور من المراهقة إلى دور البلوغ والتفج، وتبقى الشخصية ساكنة مستقرة بعد ذلك. أما راسبيوتين فقد تجع في المرور بلوري دائم في حياته واكتشف أيضا ما تجلت له صيغة حائية لإحداث تطوير جديد في الشخصية وهي الصلاة ونبت متاع الحياة. وكان راسبيوتين -يجد في الصلاة والتسجد قوة لا نظير لها وأمضى حياته لا مباليا وعازلا عن الرغبة في امتلاك عظام الدنيا.

من كل هذا تدرك الآن سر امتلاكه لسطوة عظيمة كهذه على القصر والشرار والبلدان طاردهما المخاوف من القدر المصحح المشؤوم ومن عناية حكم سلاطينها، فقد ظنوا الأمر مقتضياً أن يطاردهما القدر يسوء حظهما وهما في موقفهما هذا قد جاءا بسوء الحظ على نفسيهما. لقد أقافت عليهما الحنائق (نقطة الاستنزاف الطبيعية) طيا جسد وجود راسبيوتين اتكأوا للقدرية ورفض الانسان للمهزيمة النهائية. وبينما كان كلاهما عصياً، أمك راسبيوتين بزمام أعضابه، كان هو في قمة السيطرة على زمام أعضابه. وكأنا مدركين لقصورهما وعجزهما قشر اما هو فقد كان يعتقد بان احساس الانسان بقصوره وعجزه ما هو إلا تقليداً اعسى لا واعى. . . مجرد عادة قابلة للتغيير كبقية العادات يا فيها عادة الخوف من الموت. وبات القصر وزوجته في حضوره أكثر ثباتاً فهو مصدر طاقتهما. وبينما كان عقل كليهما نصف نائم يخلط الاحلام القلقة بالواقع، كان عقل راسبيوتين في اقصى درجته الصنوخة:

غارجييف:-

لا تملك، تشديد الأسف، قصاصة ورقة كتبها راسبيوتين بخط يده في اولى سنوات ترحاله كما لم يتحدث عن شيء منها لأحد. لكننا نملك من الوثائق ما يكفي عن اشخاص نهجوا راسبيوتين، سيما معاصرة جورج ايفانوفيتش غارجييف، الذي سيدعم الفاء القوية على حياته بعض ما يقال عن راسبيوتين بشكل أو بآخر:-

ولد غارجييف في الوقت عينه الذي ولد فيه راسبيوتين تقريبا في (الكساندربول) في اقليم (ارمينيا) وأمضى طفولته وشبابه في (كارس) التي كانت جزءا من روسيا ولكنها الآن ضمن الأراضي التركية. اهتم منذ نعومة اظفاره بالسحر والقوى الخفية للعقل وقد شاهد في صفوه الدراويش وهم يقومون بأعمال بطولية خارقة بواسطة السحر وشاهد أيضا طفلا يزيدا لقد القدرة على عبور الدائرة التي وصفت حوله. تلقى غارجييف تعليمه على يد عميه الأكاديمية العسكرية في كارس الذي اعتقد بإمكانية غارجييف العقلية على التطور. وما ان أدرك غارجييف ذلك حتى قرر التحول مسعياً وراء اجوبة لأسئلة أفلتت مشجعه تشغل شخصية الإنسان وحدود قدرته وحجم إمكانياته. وقد روى بعضاً عن رحلاته تلك في كتابه «اللقاء برجال جديرين بالإهتمام»، وفيها سافر لأستراليا والتبت حيث غدا معلما محضوفاً للقي (داليه لاسا)، وذهب في بعثة لصحراء كوبي المهجورة بحثاً عن مدينة مطمورة. استغرق في تحواله زهاء بقارب ما استغرقه راسبيوتين في تحواله، ثم شرع على مدى النصف الثاني من تسعينات القرن التاسع عشر وبواكير العقد الأول من القرن الحادي بالقاء الخطب في موسكو على مجموعات من التابعين المختارين كان بينهم (ي. ي. آريشكي) الذي التقاه هناك انعام ١٩١٤ وبات تنفيذ التايغ.

على غارجيف سراوياً بين بطرسبورغ وموسكو وموزعاً نشاطه هنا وهناك وقد
اجمع كل من الشقاء على امتلاكه صفات أعدت إلى ذكورتهم صفات راسبوتين
وهنا غير (السيولون بوز) عن ذلك بقوله : وفي وجوده سحر قريب يترك أثراً على
الأمعاء على نحو غريب .^(١) وأطلق على تلاميذه صفة (الأنث متوترة
مغناطيسياً) . كان (روم لاندو) من أوائل من قارنوا غارجيف براسبوتين ،
ووصفوا لقاء له مع غارجيف قائلاً :-

« كنت حذراً ألا أنظر إليه وأن أجب عن عيني نظراته إليها لأطول من
دقيقتين في أقل تقدير وسلخت طول الوقت أنظر إلى الصبي بيد أن شعوراً
بالضعف بدأ يتسلل لأحيائي شيئاً فشيئاً .

كنت يقظاً وواعياً لما يجري في داخلي وكنت أعرض هذه التجربة الجديدة
المثيرة وأنا في أشد حالات الإدراك . كنت المتعب برغبة شديدة محتاج معدني
بلغت يوماً درجة الألم الجسدي والحرق . لم يبر هذا الضعف إلا معدني وساقني
اللسان لتخللها إحساس أشبه بإحساس المرء قبل دخوله قاعة المحكمة ، لذا كنت
واقفاً إن ساقني سيخذلاني إن حاولت النهوض .

وبرغم ادراكهم أن حياتي المريبة التي أعيشها الآن ناجمة عن تأثير
غارجيف فقد بقيت ساكنة الزرع حتى عذمت على الخروج منها أن ضاعفت
من تركيزي على سير الحوار بيني وبين الصبي وشيئاً فشيئاً انخفض الإحساس
بالضعف وبدأت أعزى إلى حالتي الطبيعية مرة أخرى .

إن لتجربتي الغريبة هذه تعليقات عديدة... قريباً كانت صبيحة من صبيح
التويم المغناطيسي أو حتى التويم المغناطيسي الذاتي الذي اثر ، لسبب ما ، على
الحركة السفلى من جسدي... أو ربما شكلاً من أشكال القبض الكهربائي التي

يقال إن راسبوتين يمتلك منها ما يفوق بكثير . يبدو هذا التعط من الإضعاف
فأعلا حتى لو لم يكن مالكة مدركاً وواعياً لوجوده وينتمي إليه كما تنتمي بعض
الغطور والروائح لبعض الأعراق .

غير أن تفسيراً آخر لتجربتي الغريبة تلك لما يزل عالفاً . فربما يشعر اختصار
العراف عن نتائج (عمالة) لنتائج تجربتي - طبقاً لأراء العراقيين - وما هو (دودلف
ستيز) قد تلمح للناس بهذه الطريقة أحياناً والتي تلخص أن تتطلع العينة إلى
روح المرء بدلاً من جسده^(٢) .

لقد انشغبت المقطع الأخير طاملاً هو يشير إلى القدرة ذاتها التي قيل إن
راسبوتين يمتلكها ، وهي قدرة القدرة إلى «أهياق» الناس .

ولنصارن الآن تعليق لاندو عن غارجيف مع وصف يوسوف اللقاء مشابه
له مع راسبوتين^(٣) .

«أمري» (الستاتيز) بالاستلقاء على الأريكة ، ووقف عيالي وأطال النظر
إلى صبي . وأخذ يقرب بخفة على صدري ورقبتي ورأسي . وعلى حين غرة
وكع وشرع «كما يبدو» بالصلاة واضعاً يده على جبيني . ثم أطرق حتى لم أعد
قائداً أن أرى وجهه .

ظل على هذا الحال حيناً ثم قفز فجأة وبدأ يقرع العرة ذهاباً وإياباً . وبدأ
حين المعرفة بطرائق التويم المغناطيسي ، وقد قابلية عطفي على التويم
المغناطيسي . فقد أحست أنها تقهرني وتشيع الدفء في كبالي فأخذني الحذر وبدأ

(١) روم لاندو : الله هو مختارتي ، غير وقير ، ١٩٤١ .

(٢) فرانسوا لوديفيغ راسبوتين ، تأليف المارك واتشالو ، ص ١١٣ .

جسدي مشلولاً. حاولت الكلام ولكن لساني عصاني وشعرت أن النوم قد غلبني كما لو كنت تحت تأثير مخدر. ومع هذا تلاأت عينا راسبيتين كنسوة مسجودات، وأطلق من ثلبها شعاع اندمج مع الآخر وكبنا دائرة لأمعة براقه، تحركت بعيداً عني أوله وخلة ثم أخذت بالاقتراب مني أكثر فأكثر. وكنت أشعر في بطني أن أسير عليه والدائرة قريبة مني ثم لا يلبث أن يفلتني ويختفيان داخل الدائرة حين تبعد عني. لقد أدركت أن (الستاريز) كان يتحدث ولكنني لم استطع أن أميز أي الكلمات يتعلق.

هكذا كتبت حالتي وأنا جالس بل حراك لا أقوى كلاماً ولا أحرك ساكناً. يبدو أن عقلي لما يزل حراً وأدركت أنني كنت أقع تدريجياً في شباك قوة هذا الرجل الغامض.

لكنني مرعبان ما شعرت أن تنوحي الداخلي بدأت تفيض وتغامر بالتوهم الغامض بدأت حلتها وتماثلت قوتها في داخلي وفي وهي طالت في عقلي التواهي فكرة غامضة أن صراخاً عالياً يبدو رجلاه بيني وبين راسبيتين وأن شخصيتي، في معركتي غلبها، أخالت دون تزييني منه. ثم حاولت تحريك يدي هامديتي الآن، لكنني لم أغير من حالي فقد انتظرت امر راسبيتين بذلك.

وتحدثت الآن قليلاً أن أميز شخصه ووجهه وعينه فقد ثابت من أمامي الدائرة الرقبة... وقال لي: «حسن يا عزيزي، هذا يكفي لهذه المرة».

يتعلق الآن للحالتي كلها سؤال يتعلق بعلى تأثير التزويم الغناطيسي التالي في هكذا تجربة أو بصراحة أكثر إلى أي مدى ستكون في تلك التجربة غامض خيال. ومع هذا، ثمة الكثير من الدلائل المسجلة حول قدرة راسبيتين وفارجيف التي تعمل من هذه التجربة وسواها حقيقة لا ينوبها غبار. فقد

جرب (أوسيبسكي) أحد التلاميذ فارجيف، والذي يمتلك حساً غريباً متفوقاً قدرة استاذة التخاطورية بعد أن خسر عمر طويل. وقد وصف في كتابه في منزل البحث عن المعجزة هذه التجربة وقال: «استطاع أن يؤكد أن فارجيف لم يستخدم بشيء أي طرائق خارجية، فهو لم يعطي أي نوع من المؤثرات ولم يستخدم أي تعاط من التماس التزويم المغناطيسي المعروف». سمع أوسيبسكي صوت فارجيف: «في إصاقي صدره» وأجاب عقلياً على أسئلة فارجيف الذي كان آنذاك جالساً بعمية الآخرين في شرفته.

لم تكن فارجيف، مثله في ذلك شأن راسبيتين، نازلاً من الإمبراطورية من تلمباتاته. وثمة الكثير من الحكايات عن قدرته الجنية. وهنا يروي (دوم لاندو) طريقة عن مدينة اميركية هي (أحدى اعظم روابياتنا) كانت تعيش على طوافه قرب فارجيف وفجأة شح وجهاها وشارفت على الإغماء. اعترفت بعددوا اعتدقوها بأن فارجيف نظر إليها فتعرت فجأة بأنها اميبت في ضميم حسها الجنسي.

ولم تكن أساليب راسبيتين، وفقاً لما أورده فولوب ميلر، تختلف كثيراً عن طرائق فارجيف برغم أن سره (غنياً شكوكسكايًا) اختلف خصوصاً:-

سحبي لغرفة النوم عميقاً نومي... وما هي إلا برهة حتى استجأت وحشاً قاتمة رعبتها وأخبر ما أكثر، أن أسعفتي فأكثرت، أنه مؤن ملاسي الداخلي وقبضت البرهي بعددوا. وصحبت فارجيفت نفسي بملقاة على الأرض، ملوثة وجريئة.

لكن تلك كانت زنازتها الشامية وهي تحدثت عن قوة التزويم المغناطيسي التي اقنعها بالعودة إليه ثانية.

إن دراسة ألعق لغارجيف ورأسبوتين ستفصح عن مزيد من الصفات المشتركة بينهما، لكننا نقر هنا أن غارجيف يمتلك عقلاً النضج وأوسع من رأسبوتين. ويقود معركته ضد «حول العقل» سلاح الرعي النام. لكنه يحمل، مثل رأسبوتين وعكس تلميذه أوسكي، متديناً بالفطرة وكثيراً ما ردد عبارة «يعون الله» في كتابه «اللقاء برجال جديرون بالاهتمام». ولرأ أراد القدر أن يفتي القيسر غارجيف لا رأسبوتين عام ١٩٠٥ لغدا أقوى رجلاً وبغض رجلاً في روسيا، لكن حين طالعه أبعده عن دوامة السياسة فأحال من عمره ثلاثين عاماً أكثر من رأسبوتين حتى توفي في باريس بسبب الصخة بعد الحرب العالمية الثانية.

نستشف من المقارنة بين غارجيف ورأسبوتين جوهر المشكلة المركزية في شخصية رأسبوتين، وهي المشكلة ذاتها التي قلما بلغها كتاب سيرته الذاتية ويبدو هذا جلياً عند قراءة عنوان أحد الكتب عنه: «قديس أم شيطان؟». فغزلاء الرجال ليسوا مجرد دجالين أذكياه بل هم أناس ملكوا قوة حقيقية. فحق لنا أن نتساءل إذن: أي نوع من الرجال يمثلون؟ فيا كان أحدهم بقديس وما كان برجل خلاق. لو كنا نعني بالرجل الخلاق نوع الإنسان وبيع المقام. فكيف نحدد إذن هذا النوع الروحي؟

يسيطر (الدوس هوكسلي) اللثام عن مشكلة مماثلة في كتابه الموسوم «السمو الكبير»، الذي هو دراسة عن الأب جوزيف في باريس. ويناهل الكاتب: كيف يوسع الأب أن يكون قديساً وسياسياً متفلاً في آن واحد، بل وأكثر من ذلك أن يشدو المسؤول الأول عن حرب الثلاثين عاماً؟ لقد مارس الأب جوزيف مبدأ الزهد في ابتعاده عن العالم والإنغماس في حب الله وعمل في الوقت ذاته سفيراً ومستشاراً لـ (ويشيلز) ودفع بأوروبا نحو الحرب. وهو، كأغلب الساسة، لم يتلمس عواقب أفعاله في إطار المعاناة الإنسانية. وعليه أسى

لفعله هذا مسؤولاً غير مباشر عن موت نهاية ملايين نسمة في ألمانيا وحدها. ومع هذا، تبحت كتاباته أنه قد أحسن شيئاً في ذريب القداسة.

لقد غير شيئاً عن العالم الآخر - عالم السرمدية - لا يعقله فحسب بل بإطلاعه القلبي المباشر عليه.

ربما أصبحت القداسة كاصرة لهذا السبب، فالقديس أكثر اعتماداً بالله من اعتماده الممكن لبني البشر. وثمة شيء يجذب وناقص في طبيعته. وخير مثال لنا في (راماكريشنا) التي لو قرأها المرء لسلطه نفس الشعور ولترجى فيها عنصر الطهارة في تقواه لربه وإيقاً مسحة آتائية وحتى مخالفة مطلقة.

وتزداد المشكلة صعوبة لدى رأسبوتين وغارجيف. فقد كان غارجيف - على سبيل المثال لا الحصر - صادقاً بحثاً يرغم ما قاله أحد أتباعه أنه أصبح عباً للغير وأقل سادية بعد تعرضه لحادث على دراجته النارية عام ١٩٣٥. وقد عحص فصلاً كاملاً في كتابه «رجال جديرون بالاهتمام» للتعليق على أماليه في جمع المال والتي كانت تقطر للشرعية، ويبدو أنه كان يجد متعة في وصف ندالاته بينها كان رأسبوتين عازقاً عن المال لكنه كان عباً للفردية ومتججاً بتأثيره على الآخرين.

يلقي راماكريشنا في ملاحظة شبيقة له بعض الضوء على هذه المشكلة، فيقول إن الناس يجذبون للقديسين كما يجذب الديور للعسل لأن القديس يشع ولما يسمى في محاورته البطية للرسول المباشر للرب قوة تخرج منه دون أدنى جهد له.

وتستطيع رصد هذه القوة في كل يوم، فيا علينا إلا الذعاب الـ «ركن

المشجدين في (هايد بارك) وترقب بعض المشجدين وقد أحسنوا بلاء في بلاغتهم لكنهم ما لبثوا أن قبلوا تأثيرهم على الجمع المتجمع في اللحظة التي أوقفوا فيها الحديث . انهم يمشفرون للقوة التي تحدث عنها رامكريشنا والتي يكتسبها التدريب بظناً وبعد مير فلريل . فاذا ما تحقق له ذلك ضمنت له طيبة التدريب انه لن يسيء استخدامها .

لكن هذا القانون استثناءاته . فبعض الرجال يولدون وهم على تماس مع (البشره الداخلية) كما يولد بعض الأطفال برأسين . وهذا النمط من الرجال سيغدو لأنه اقتصر الى التدريب الأخلاقي الاضطراب بين الناطق الجنس البشري . وهكذا كان نابليون وهكذا ولد هتلر . وهذا هو نوع القوة الذي يعينه القرضويون عندما يقولون ان القوة تعبت في الأشياء فساداً . ويبدو ان قوة هتلر قريبة في نواح عديدة من قوة راسبوتين اذ استخدم تغيير التنويم المغناطيسي كثيراً في تأثيره على جمهوره . (يبدو ان مسدى هذه القوى مسخوع فقط عندما يكون الجمهور كبيراً ولا يظهر بشكل فاعل في الإتصال الشخصي المباشر) . ويتحدث (كبرت لوديك) عن بلاغة هتلر الخطابية فيقول :-

أليس لي أن أنسى عن سطوة قوته؟ انها تمسك بي وتؤرجحني لست أنا فحسب بل جميع من في الصالة . لقد أسرتني شعوره أن أغفل عن ارادتي لقيادته .

يبدو هذا التعليق كأن مقصوده احدي تلميذات راسبوتين .

كان راسبوتين وهزارجيف من هذه الفئة وان كانا أقل درجة بقليل من هتلر . وكلاهما سلخ سنين طوال يطور من قلوبته . ومع هذا فقد اكتسبها مير بينها لم يجاري تطورهما الأخلاقي تطور قدرتهما . وعليه فقد شرعتها بعض الشيء قدرتهما . ويبدو هذا جواباً لبعض تناقضات شخصية راسبوتين والتي

حيرت الكثير من كتاب سيرته الدابة ويستجذب عنها باسهاب لاحقاً .

تؤكد دلائل الأصدقاء والأعداء و (المراقبين الاموياء) أن راسبوتين قد ملك قدرات لا يستهان بها تنقسم الى نوعين مختلفين لا يجب الخلط بينهما برغم تماثلها المحدود :- انها اجترار المعجزات والتنويم المغناطيسي . وترتبط قدرته على التنويم المغناطيسي بقوة شخصية التي سفلتها سنين التجوال . غير أن قدراته على صنع المعجزات هي نتائج وجهة نظره الأساسية تجاه العالم . اذ يجد معظم البشر صعوبة في الاسترخاء من وجهة نظر دفاعية معينة حيال العالم ، ويتكون النتيجة يقاتلهم في حدود شخصياتهم المحيطة بهم بخط دفاعي . لقد ادرك راسبوتين وهو طفل أن حريته وحبه للخير أمران مقضيان ونظري موقفه من العالم على الاسترخاء والاتساع ، وهو الموقف الذي دعى اليه (فيس كريسبي) والسيدة (ايدى) . (لم تمشق السيدة ايدى أن المرض الجسدي هو انعكاس للمرض العقلي فتحسب بل علمت ان الخط العائلي وحواذته ليس إلا نوعاً من انواع المرض الذي يمكن تصديقه بادراك الخير الذي يجعله العالم لنا) . كان راسبوتين مكتشفاً روحياً لأنه لم يكن يخش الوقت في الآخرين ولا المداورة خارج الخط الدفاعي لحدود شخصيته . وقد علمت نتائج تجاربه ان حساباته لم تكن خطأ . لقد كان يشع الثقة بالحياة وليس في جوانب شخصيته اية شغوة . بيد ان هذه الثقة لم تكن من نمط الثقة الطفولية التي لدى القديس هرنسي او رامكريشنا . ولأنه كان قروياً ولد في بلاد عاملت القرويين كحيوانات لفرون عديدة . فقد حافظ على وعي طبيعي عميق ولم يتغلب على رغبته في السيطرة على عاية القوم . لكنه لم يكن زاهداً كلياً في يصبح قديماً برغم أنه . مقارنة مع معاصريه . كان النموذج الزاهد . لقد أفاضت شخصيته بهذا الوعي الطبيعي العدواني حتى سحقته أنز الخفاف .

الفصل السادس

ارتقاء السلطة

أثار راسينونين حياء ومطأت قلعه عداء الآخرين له، لكن أغلب من عاداه
ظهر في بطرسبورغ بين عام ١٩٠٧ وموته. ولا يصعب علينا معرفة سبب ذلك.
لمدينة بطرسبورغ كانت رمزاً للتدهور والانحطاط الخلفي الذي لم يترك ركناً
منها إلا وتخره.

لا يدرك معظم الناس قيمة الحياة إلا حفنة من الثمراء والمتصرفين. وربما
يدرك الحكوم بالإعدام قبيل زحف روحه فيسمة الحياة بأكملها. وقد ورد عن
قاطع طريق أمريكي يدعى جاري بيرجر قوله وحيل المشقة حول وقته: «إن
المنام جميل فعلاً... لكنه لم يدرك ذلك إلا قبيل الموت». لقد كانت حياته
شريطاً من المحمية والوحشية والغباء. والنية إذا ما ضلت حثيثاً لصاحبها ازاحت
عن عينيه غشاوة جعلتها مكشوفةً سابقاً حيث تتحد الخوارج مع الخيال ويبدو
مثل الإنسان منتهى العيت. وقد بلغت مدينة بطرسبورغ ذروة الانحطاط
والتفكك جسدها كتاب أمثال (أندريغ وارتمياشيف وبيلي وبريسوف). وبينما
كانت بطرسبورغ طاقية فوق بريق مشهور عموم في ظاهرها فإن باطنها ما زال لا
مبالياً كما صورها هكذا (كوكول وكوشاروف). فلماذا قد غير ملمس الأكف

(١) أعدم بيرجر في رليامسون كوتش، أيلينويس، في نيسان عام ١٩٢٨ وقد كان مهرباً وسفاحاً.
انظر كتاب بول انجل (النجوة للعظم).

سروياً) والنساء عند استبدلن شريك الليلة بغيره، وهذا كتب (كروت فاسيل)
الذي غير أربعة قياصرة بلهجة ساخطة قارلاً:-

احتفت الصالونات... وجش بدلا من النوة اللاتي كن جنعن وسحقن
السبعة الأحياء بارانن والمزحون لاء احتلن الصلوف المتقدمة بفضل
الزهر أو أوقا حنن وحرائن، واللان قمع حنن الكثير للعب البريدج أو
الاشعة الفة للزنج... أما في القول الذي بلغ ذروة الكمال في سالف الأيام
فقد للدرس، فلم يصحش المرء هناك المغازلة وله أن يتال ما ينقي دون مشقة؟
ويذهب فاسيل أبعد من ذلك، وهو يعلم من أين توكل الكنف، فيصف
أسباب السأم والأضطراب:-

سها تعطلت ذلات القياصرة... ومنها أمثالها في الأوسى البلاء، فلن
يكر أحد عليهم شتمهم... أما فبصرنا الخالي فهو سفين القياصرة الأول الذي
اجتمع فيه الضعف والاحزيم وهو أول من افشقت أغنية الوجود الذي رعاياه
الذين لا يكن أحدهم له نقضا ولا يفتنون له عاقبة.

ويختتم فاسيل كتابه بكلمات ذات نغمة تتم على نغمة حزينة:-

لم يشهد سفر التاريخ الرومي، ولكن أن تصدقني، حامي الميخنة خاية الله
القدر من يستحولا الشان... في السنة التاسع عشرة من حكمه العثار الحظ

كتب فاسيل هذا في عام ١٩١٣.

لند أسباب فاسيل الحقيقة في كثرة. فقد اعتاد الرومن على حكم قياصرة
مستاء. أما الآن فحاجتهم ضعيف. ولكنهم يرغم فلان أحسن حالا في

على حكم يستحولا الشان من حانهم أيام حكم إيبه. فأبناهم نصيب أوفر من
الخبرة. لكن الخبرة مسألة نفسية لا يمكن لها أن تضاهي مع السأم واضطراب
الحياة. وعليه نال سكان بطرسبورغ أقل حزية من أي وقت وفي هذا زمن
الرهيب.

ويصوب ذلك المزج المتهيب، قدم فلاح لا يلفه عن الحرية إلا نورا ولم
يكن من تحفة الذين سطوا من شأن الحياة وما كان يكش فناء لموض عصبي
واستهجن أن الحياة تحدهم عصره المزنة. لم يكن وجوده إلا إهانة لمن هم عرض
روخيا. وعليه أصبح عاجزا أن يخفي عنهم استعائهم منهم. لقد أهاجت
شيطانه رائحة الأجساد المدلة والعقول النافذة فألقى عليها في رد فعله. كان
قريبا في حالته هذه من (هاندل) في لندن عشريات القرن الثامن عشر مع فاروق
وحيد هو أن هاندل كان قادرا على التلذذ استغلاته عن المجتمع الحديث (برحم
انه كما يفقد حياته وفعله). ولأنه كان عبقريا خلقة فقد تعثرت اعتقاد الآخرين
أنه سيخطئ بالجل غيرة كتابته. لكن الأمان كان مائة راسيتين فهو مضطرب
للتحرك بينهم باستمرار. فكان من المستحيل إلا يشعر بتقدمهم وكرامتهم
وكما كانت استحيائه الخفية أن يكون أكثر عذاء مع من يكره من الناس. كما بدأ
يفقد للاعتماد. ولنا يتق بهم. وهذا الجوع للصدقة قد أبهم في سقوطه.

كان راسبوتين عبقريا في احتيازه الصدقات، وكان أحدهم يهوديا منهم
الحجم اسمه (أرون سيناتوفيش) يعمل جواهريا النقاء راسبوتين في كنفه وعالج
إبه في شوارع (فيتروم داتس). وهو نفسه سيناتوفيش الذي كتب سردا مشرا عن
حياة راسبوتين فقط لجأ إلى الواقعية. جاء سيناتوفيش شارع بطرسبورغ في عام
١٩٠٢. وبعد أن ما أصبح جواهريا النراوينا، والتي كانت بجانبه كثرة أمويوا
بخرولة أضافت بسلاها مسقة مطيبة على القصر الملكي الروسي. وقد اعتاد

سيانوفيتش بيعها المحوهرات بحساب مفتوح هو نوع من نظام التأجير- البيع بسحر مخفّف. وربما استعاد خسارته مع التزاوي من أعضاء البلاط الآخرين فقد سجل قائلاً: «إن السبلاء الروس يجهدون تماماً لغة الأعمال». تكيف سيانوفيتش، بخلاف راسبوتين، على جو بطرسبورغ الخاروف وعلى عكائذه فأنعم في فيه جدلاً مستغلاً كل فرص تحصيل المال، لذا سرعان ما أقام نوادي ليلية وحفلات فمار وأماكن دعارة. وربما تبرر ميرة حياته وجهات النظر المناهضة للسياسة التي تبناها اتحاد الروسيين المخلصين، آخضين بنظر الاعتبار أن يهود روسيا لم يتألوا من حقوقهم قطعاً رغم أنهم ليسوا أقل عدداً من أعدادهم في باقي بقاع العالم. كتب بيرس قائلاً: «لا تعلق القضية بالخقوق التي لا يتمتع بها اليهود بل بحقوقهم بالوجود أصلاً». استوطن اليهود مكرومين في أطراف المدن وحرم عليهم استخدام خدم مسيحيين وإرسال أطفالهم للمدارس. وقادت الشرطة في معاملتها لليهود (وفقاً لتوجيهات عليا) ولم يتألوا لذلك انصافاً قانونياً وأجبر للشرطة إدارة (خدد حماية) إلى الحد الذي كان سيدهش (آل كنوف)، فلا عجب أن يهودي مثل سيانوفيتش أن يتجرد من وخز الضمير ويستغل مجتمعا منعداً.

أصبح سيانوفيتش، بشهادته، قوة معلم راسبوتين السباني. وهو قد أعدّ المتابعة، شأنه في ذلك شأن من كرسوا أنفسهم لحياة المكائد، مما لا يرجى منها فائدة. وهو ما أضفى على إعجابه براسبوتين مسحة الاندواء. ويتذكر كيف ونج راسبوتين بين الحين والآخر كطفل ليغطي انطباعاً أنه كان (السفينةكالي) يقف خلف السفينةكالي. ولما يقول الحقيقة فراسبوتين لا يعرف شيئاً عن السياسة وقصة حياته تؤكد تعلمه القليل منها برغم معولة سيانوفيتش.

غالباً ما عمل سيانوفيتش وسيطاً بين راسبوتين وبين مبيدة أخرى من

سيدات البلاط تدعى (آنا فيريوف)، ابنة (البيكندر تاتيف) رئيس القضاة الإمبراطوري ومؤلف موسيقى من الدرجة الأولى. غدا تاتيف أحد مقربي التزاوي بسبب ولعها بالموسيقى، فكان قادراً على كسب تأييدها. كما أحببت التزاوي (آنا فيريوف) لطبعها الحميم الصريح ولاخلاصها الديني المعوق (عولجت آنا في طفولتها من مرض خطير على يد جون من الكرونستادت بأن حلى قرب فراشها ونثرها مقدساً على جبينها). لكن آنا كانت غيرة غيب الحسز واللحم ومترمة إلى حد بعيد وكان هذا سبباً آخر لحب التزاوي لها. سرعان ما شرع القيصر وزوجته بالبحث عن زوج للبطنة القبيحة. فوجدوا ضابطاً بحرياً يدعى (فيريوف) وقمعا آنا للزواج منه برغم ثقتها الشديد. ثم أصيب الضابط باضطراب عصبي في شوشيا فأصبح سلوكه متوتراً. لذلك قررت آنا انتشار صديقتهما الدوقة الكبيرة ميليسا فأشارت عليها بمقابلة راسبوتين. الرجل الذي يعرف كل شيء. وعليه حضرت آنا فيريوف إلى منزل ميليسا في نيسان ١٩٠٧ وقابلت الفلاح راسبوتين الذي ترك عليها أثره حين حدّق فيها للمعطة ثم أخبرها أن قدر زواجها الفشل... وحدتها عن تفاصيل أخرى فجلت صريحة بعدد. أصابت الذعشة آنا وعيزت عن تقاؤها للتزاوي. لكن تحضررات الزواج قد تمت ولم يعد هناك سبيلاً للرجوع. فأصبحت في الثالث عشر من أيار عام ١٩٠٧ العروس الكاذبة للضابط فيريوف. لم يجعل الزواج السعادة التي كانت تشفقها لكن موقف التزاوي تركها فريسة الحيرة فقد أبدت قهرتها على آنا. كان طبيعياً أن تذل وسعها لعيني صديقته لكن سلوكها أثار غسوة زوجها الذي شعر نفسه شخصاً ماركواً. وأخيراً وبفضل تقديمات التزاوي

(١) يجب عدم خلطه مع ابن أخيه سيرجي تاتيف الذي كان مؤلفاً بارزاً. كتب أوبرا تدعى (أوريسنيا) بثلاث مقاطع. أشهر سيرجي تاتيف خارج روسيا لأن زوجة تاتيف وقفت بصراره وبقيت هل حية سنوات عديدة فكانت الشيعة كتاب تاتيف (سونا الأوبرا).

ثم لعين فيروبيوف على متن سفينة ليوبيو العالم فذهب الى الكرستافت. وقد اكتشف عند وصوله ان السفينة ستأخر بضعة ايام بسبب عطل في المحرك لذلك فقل راجعا ليرى زوجته في قصرها في يتزهوف (المزل الصفي الصغير). لكنه ادعى، بالمكان غائبا بالجورن وليس بوسعه رؤية زوجته لأنها مع التزارينا. انظر حتى وصلت التزارينا لكانه فوجيء فاذية ان ليس بوسعه الدخول وهنا قد غلقه ودخل القصر علوة. بعد وقت قليل خرجت زوجته صاخخة وقعت الى الارض الصفي لاجلة التزارينا هناك ليس المتوقعة بعد ماذا اتبعها زوجها لكن غضب التزارينا بلغ الزبي فاصرت اليده باجراءات الطلاق فوراً واتهم زوجها انه في وقت بعد ظهور قلبه. فتشقت ليوبيو واسيون حول مصير رواجها كلها قال.

اذن من المحتمل ان تكون أنا هي اول من هنس باسم راسيون في اذن التزارينا بعد شهر عندما مرض التزارينش مرضاً شديداً. ورغم ان راسيونين كان قد انظر القصر مرة قبل عامين فإن زيارته (تزاريسكوبل) هي الاولى أو الثانية في ذلك الحين. وهذا قول يصحى الى الاستدح ان راسيونين لم يلق بنا إلا في عام ١٩٠٧ رغم انها كانت الصديقة المقربة للتزارينا منذ شباط ١٩٠٥.

لنا قد وصفنا ما حدث في غرفة التزارينش عندما كان مريضاً في الفصل السابق او استنتاجاً من تعليقات (قولوب فلير واسيان). اصبح راسيونين ومذ حينها استشار الروحي للتزارينا والصديق المقرب لانا فيروبيوف. فيما دأبت الشائعات في بطرسبورغ ان كان خبيها. لكن هذا الزعم لا يتجسم وطبيعة انا، ونقدر ما نعرفها. ومذ حينها أيضاً قدت اتاحفة الوصل الرئيسية بين راسيونين والعائلة المالكة ودائرة البلاط. فاذفا ما تعرضن لهجوم الزلاء الناقمين او الاتهامات الكنيسة والعريضة. كانت أنا فيروبيوف حاضرة على الدوام ومؤكدة للتزارينا ان ما

هذا الا مكر الماكثرين وان (صديقها) ليس الا رجلاً مقدساً كأي قديس في التفرير الروسي. يخالف المعية وخشى التفكير بها.

كلما تعاقلم انو راسيونين في البلاط زاد عدد معاونيه وشركائه مثل العليوب الغريب الأطوار (بيتر اليكساندروفيتش بادمايف) وهو طبيب اعشاب وكبير راسيونين بعشرين عاماً تقريبا. درين اللغة الصنية والتغولية في الجامعة واصبح بعدا محاضرا وعادياً مديناً. تعلم بادمايف، مثل تسابته الرضية مدام (بلاغاتسكي)، اسرار الطب في السبب، لكنه كان عكس راسيونين. يتشع بعض سياسي جيفي وضعه في خدمة التزار كلما احتاج القصر الى تصيحة في الشؤون للتحولية. وقد افزع القادة المغرلين ابان الحرب الصنية بدخول الحرب الى جناتب روسيا وقال بخطوة التزار. اذلك بادمايف ان راسيونين جدير ان يصبح حليفه قباناً صديقين وشكلاً خلفاً مغزاً، فهذا بادمايف بخا، متعة في الخديعة السياسية وكثيراً ما كان يستل تقوده مع القصر لثمان مواهيد لأسفاته الذين كان أغلبهم موهضاً السابقين. وكان هو الذي اتهموه جهالة المطاف بتدبير مرض التزارينش اتيح راسيونين معالجته.

كان اكثير شركاء راسيونين امنية بعد (سياروفيتش) مغامراً مشهوراً يدعى (حياتاسفيتش مانيلوف) وهو يهودي صغير عمل في وزارة الداخلية مغرط الالة على الدرام. لقد كان هذا اليهودي مكرراً بالظرة مثل بادمايف. وبدأ مسيرته على سلم القوة ان تحسن بجملة امير قديم لديه ميول جنسية شاذة يدعى ميشيرسكي الذي هو صديق دوستوفسكي. وقد كيف ميشيرسكي السبب بالمعجبوت، كما وصفه بيرس، مريضه المفضل على حب الترف ثم أرسله لبطرسبورغ بصفة جاسوس تابع لليوليس الروسي. وحسن في بطرسبورغ لاجاعا منقطع النظر فأرسلوه للعمل في باريس تحت اسم (راشكولسكي) - الرجل

الذي طرده من منصبه مبراحته الشديدة بخصوص الغيب قلب . وربما كان هو السب في طرده واشكوكسكي فقد اتهم بالتجسس عليه وأرسل ماتيلوف الى روسيا لرشوة القنصل . ثم عمل تحت امرة (زيلهف) لمدة سنتين وأمر ضد علو (زيلهف (وت) . غير انه عمل أيضاً لحساب (وت) الذي استخدمه وسيطاً بين وبين القس جايون الذي قاده المسيرة نحو القصر الشوري عام ١٩٠٥ . ثم تمت مؤامراته بقوة عقلتها حتى ينعيب وصفها وتفسيرها باخضرار . كان عبيلا مشوقا ليلهف ووت . انضم الى الثوار ثم خاتم ثلثي الشرطة التي عدها هي الأحرار في مكنتف أمروها لدى الثوار . سبها الشار الدافع الصيت (بيرستيف) الذي قال له ميخيلوف جهلاً : «انا زجل لا أم لك قسة . . . أعيد المال وأقدس الحياة» . (مساعد يمدح بيرستيف في الحزب من السجن ثم من روسيا يكملها) . لقد حصص من سلوكه المعتقد هذا مالا وفيراً تبعد منه مريعاً . وقد سرق . ايان الحزب الياباني ، الشيعة اليابانية فكوكه بمنحه وسام فلاديمير

سرعان ما أدرك هذا الزيش الموسيقي الساخر قائلة زامبوتين الكافية . لهذا حرص ألا يكون مبتدلاً . وربما كان في ثقافته شيئاً غريباً تضرها درجة تقربه لدار زامبوتين . فهو قد زار زامبوتين كل يوم تقريباً وفي كل مرة استقبله الأخير بالأحضان بعد أن يكون قد قطع لقاءاته ان كانت لديه . ثم يفردها في حجرة منعزلة يهاهسان لساعات طويلاً أحياناً .

انه سوء الحظ الذي أوقع زامبوتين بعد أن هذا قريباً الى البلاطياً صدقاء هم أسوأ الناس مكرراً وأكثرهم أنانية وأشدهم رجعية . ويبدو ان القدر قد صمم على ان تكون قدراته بحظ التعليقات الرديئة المثبتة . لك ان تحب زامبوتين وتثق فيه ، لكن عملاً أن يكون لك هذا مع معانوته ما خلا بنادساييف الذي يبدو رجلاً حراً الخلق طيب الطبيعة (ويهدد الثورة التي القبط على يادساييف وأنا

ومنا ييلوف وهم يحاولون الهرب من روسيا لكن مساندة خائف يادساييف ومبراحته جعلت من سجنه مسدداً له . أما أنا فكانت ظاهرة في القباء والكذاب وقد اعلمت في مذكراتها ان (زامبوتين لا له والسياسة ناعة ولا جمل) . وكان ماتيلوف عتلاً وسعياً ولذا بل وعلمنا لأقرب الناس اليه . كان يتر في القصر حارساً في اقامة مباحث منظمة حيثاً وجد فيها غاية يشدها . اما سيانوفيش فكان عتلاً وغياً للهمز الماكر الذي يشكل جزءاً منها من كشافة عن زامبوتين . منصف لاحتيا (سترومر) الذي اعانه زامبوتين على أن يكون رئيس وزراء والذي كان ربما كارثة حقيقية .

لم يكن زامبوتين يعترف عن السياسة الكثير عندما جاء بطرسبورغ وكان كاذباً للمكاذب . لكنه أمسى بغير قصد وفي غضون خمسة أعوام مركزاً الثامر في بطرسبورغ . فليس من الغريب ان يزعم اعداءه براهم نظرين انه كان كسار رجال أمثال كاتيلوف وسيانوفيش في عيهم بيتاً . كان لرجال الخلق مثل بوسوف وودزبانكو جيداً لا يطلق .

لكن كيف توطد زامبوتين في مؤامراته بطرسبورغ ان لم يكن مهتماً بالسياسة ؟ منهل الجواب في حقيقة ان رجالاً أمثال كاتيلوف وسيانوفيش لم يهدروا الوقت في اقتاعه باستغلال تأثيره في البلاط وانه كان من نعم الرجال الذين ما فتأ المحتاجون يترجون منه بطلاً وهم متجهزون امام عتبة داره . كان رجلاً ذا نفوذ وتأثير في بطرسبورغ عندما حلتج الثوارين عام ١٩٠٧ على تأثيره لم يدعخل حقل السياسة . لقد قصده الناس لأنه مشابهة لأنهم عرفوه بقلبه على كشف المستقل . وتادراً ما يفيض ولاية من قصده . وعندما علم الناس بزيارته المدة القصيرة في ليزايفسكي ساروا كان من الطبيعي ان ينجاه المسجونين مستخدماً تأثيره وعوده في التماس ان يندمج كشافة في المختبرات ار اناروم

للخدمة المقتضية. وهو رجاء كان موقوفه رجل مثل جون من الكرونيادات أو حتى الراسب اليهودي. فطريين أنها أضعف من أن يستطيعا من يد العون لهم. أكل راسبونين كان هـ. ولسه الخطه ضاعفاً أمام حاجه الآخرين له. وإذا ما صرحت بطرسبورغ بزياراته السرية وأصبحت حديث الناس فله أن يتحمل وزر عاقباته ففد كان مادجا ذا روح مفتوحة لم ير ضميراً في إفساد سر زيارته. وحالاً ذلك أنه يتسلسل تأثير يفسد له تقاضات صغيرة دون الحاجة لالاح القصر أو الصاريه. استخدم ذلك العود بكرم مثلاً فوق الأموال التي قد يحصل عليها

لم يدرك راسبونين إلا متأخراً أن موقعه الجديد كمنقرب للثزار والتزارينا جلب عليه عدا. وحقد رجال بطرسبورغ ليس بسبب معرفته الشخصية بالمائلة المالكه بل لانتقاله موقعاً يؤعله معرفة كل المعلومات السرية. فمن أن امتنع الثزار والتزارينا عن هذه حركات البلاط الحصر عند الناس الذين ينظمهم بمجموعة صغيرة كان أقلية أعضاء من الرزاة ورؤساء الكنائس وأمثالهم. ومنهم هؤلاء لا يستقرون على رأي. ثم يفكر الثزار فهو جد مقلد، سريع التأثير والشخص الذي يحدث اليه وكثيراً ما يغير رأيه بين لحظة وأخرى. من ناحية أخرى ثمة عدد قليل من رجال الخاشية الملكية لم يرض الثزار أمامهم لسانه المشاك. رئيس الخاشية وسفير القصر وأنا فيروف والاميرال تيلس والجنرال زلمان وسنة المخلصين آخرين. لقد كانوا جميعاً في موقع متقد واستحدث حتى سفارة معلوماتهم الكثير من المال بالنسبة للموظفين وأصحاب البنوك وأصحاب رؤوس الأموال.

حدثت المعلومات سلطة شباغ وشباغ ومنحان ما أركن بعض المعلومات المعلومه وبأحدهما وحصلوا على الأرباح. وكان على رأسهم الأمير المتحوص اندرونيكوف الشاذ جنسياً الذي وصف نفسه أمراًقة للموتيه. مبار اندرونيكوف

في جو من الغموض غلفه نفسه غاملاً حقبة احتوت عادة على شخص قديمة وأقصى الزامه متروداً على الزوارك للهمز والهمز مقتضاً ما يجد في طريقه من معلومات. وكان المصدر الرئيسي للمعلومات هو رئيس حمية القصر الذي ارتبط معه بملاقة جنسية شاذة على الأريخ. وقد تفاشى اندرونيكوف وأبنا شهرياً من وزارة الداخلية التي لم يقطع عنها بالمعلومات وكان يدار هذا الراتب امور مالونه البسيط الذي تروى عليه أي أحد يستفيد من الثزار. فيما أدار صالونات مشابهة أخرى (بروديكوف) الذي أطلق عليها أسماء مثل (سيد الجواد) و (البلاطة الزوية). كان لكلا الصالونين مصدران للمعلومات في البلاط وتجمع كلاهما بالاهمية التي انتهى بها تلك المعلومات. وطهر أيضاً الشاذ أو ثلاثة صالونات مختصة بالمعلومات لكنها لم تحل أهمية الصالونات السابقة.

أراج راسبونين هي نفسه بخطوة واحدة غير مية كل منافسة في سوق المعلومات. ورغم أن اندرونيكوف وبروديكوف طلاقاً فثاريين على الأساسين السابقين الشا بيرة من مصائد الخاشية (كان بروديكوف يعتمد بصورة رئيسية على الاميرال يسيلوف والجنرال زابلس)، ظل راسبونين قبادراً ليس على المحرم بشوات القصر بل في التأثير عليها بفضل موقعه المتروذ. وهذا ما أجاج شيطاناً منافسة عليه وأجج بحريتهم على مستقبل دوميذ.

لكن راسبونين ظل لشهور عديدة بعد ولوجه القصر قوة مجهولة وانحصار المنع من يدلية الثزارينا. وقد أرح (بيليشكي) رئيس الشرطة (الذي لمقا مصحه سم تدخل راسبونين واستخدمه لاحقاً جهه ا. بدلية قوة راسبونين يستهل عام ١٩٠٨. وبد أن راسبونين كان آنذاك زافراً يومياً للقصر لما يهازو ستة اشهر أقام له فيها علاقات غيبة النطاق وقوية الأساس مع الثزارينا وبقرة المستطه فكلية بسبب الزارة

أحسن راسبوتين بالملل والنأم حتى في شهور نفوذ الأول. فقد أعجبت التزارينا لكن لم يفته ملاحظة أنها كانت مستبدة وهشيرة. وتوضح صور ريعها حالاً حزيناً كئيباً اختفى أغلبه من على ملامح صور أخرى التفتت لها لاحقاً لكن الحزن يبدو كأنه جعل من وجهها شمعاً تقطر أسى. كانت تجربته لأحبها لذلك راسبوتين. وما كان هذا القول ليقال لو كانت التزارينا مجرد مقيمة من ميدان بطرسبورغ.

كان مرقف راسبوتين حيال التوار نفسه مزيجاً عجيباً من الإحترام والإزدراء. وقد وصفه بـ «رجل بلا دواخل» وهو ما يعني «رجلاً بلا إرادة حقيقية»، شديدة التأثير بالآخرين فيما طغى التناقض على تقسيم التزار لراسبوتين. فهو قد أدرك قدرات راسبوتين ولم يساوره شك في قداسة «الستاتيز». وكان يصغي لمن وشى به من الوزراء متلهفاً لم يطلب منه تقديم أدلة دامغة. ربما كان قسباً من هيام زوجته براسبوتين سيما بعد قرأته لرسائلها التي سرقت من راسبوتين بعد عدة سنوات وقدمها له وزير طائش بدلاً من أن يعطيها لزوجته.

تطلمح نيقولا إلى راسبوتين بنظرة مليئة الكره والخوف والإحترام وبلغ أحياناً كثرة خيفة أن يسحب البساط من تحت أقدام راسبوتين. وتلك هي الأحيان التي أخذ فيها راسبوتين التمرد أن استخدم إحدى معجزاته الأخرى (كما سيوضح ذلك لاحقاً). أحاطت المشاكل علاقة راسبوتين بالتزاريفتش الصغير. فقد صورها معظم الكتاب على أنها عبادة عاطفية كان فيها الصبي عابداً للطلولة المتجسدة في شخص راسبوتين. لكن معلم الصبي (كيليارد) يشير بعرضة إلى أن اليكسي مقت راسبوتين وهو احتيال وإزداء وأكثر منه احتيالاً أن راسبوتين وجد فيه طفلاً مزعجاً. كان الأجنبي باليكسي أن يصبح قديماً بدلاً من أن يكون طفلاً مدللًا لا يكبح له جناح. فقد نشأ في عائلة تقومها امرأة

تتصرف بالذنب لمرضه. المضافة لذلك عارض نيقولا تزومت أبيه فأعطى لذلك ابنه ما شاء أن يطلب. ووفقاً لتعليق كيليارد، كان التزاريفتش طيباً بطبعه وقد تجلبت طبيعته هذه عندما توصل لأبيه أن يعيد طامباً طرد من وظيفته. ويضيف كيليارد أن الصبي كان يرتبك عندما يركع أمامه بعض الفلاحين وهو يتلذذ بمعية معلمه. لكنه اجتاز مرحلة الإثبات هذه إلى مرحلة تمتع فيها بالإحسان بسلطته. كتب الأمير (بول قاسيلي) جانفاً:

كثير من الشكايات كتبت عن مرضه... أن هذا الواقع حزين الليم لا يحتاج لمبالغة تزيد الطين بلة... لقد سأم التزاريفتش سمعاً أن وجوده أثمن ما يملك والداه وأن ما يهوى جناب في الحال. لذلك شعر دوماً بأهميته وأدرك سريعاً حقوقه لكنه جعل واجباته، كان مغروراً بطبعه وقد شجع الجميع القروية هذا بدلاً من تشجيعه. فلا أحد يستطيع كبح جماحه أو حتى معارضته. كان يضرب الخرافات ويستأسد على خدمته وكان يهده المتعوس الذي يحاول تصحيح سلوكه بكل أنواع العقاب:

يتطري تعليق الأمير قاسيلي على تعامله بخفية ومع هذا تبقى وجهة نظره جديرة بالملاحظة. لعلها تصحح وجهة النظر المألوفة للطفل الملائكي الساوي الذي صرخته مصاصات الثوار مبكراً. ويعيد قاسيلي قصة مشوقة عن وزير الخارجية (إيزفولسكي) الذي كان ينتظر مقابلة القيصر. فبينما كان إيزفولسكي جالساً يتحدث لشخص ما من التزاريفتش الذي لم يتجاوز بعد سنه الخامسة أو السادسة دون أن يدرك إيزفولسكي ذلك. سار الطفل إلى مجلس الرجلين وقال بلهجة إمبراطورية «عل الوزراء النهوض عندما يجاز وريت العرش الغرق». أوتيك إيزفولسكي لا سمع وربما انتابه الرغبة في صم أذنيه ولم يتفوه بكلمة يقولها. طرقت هذه الحادثة مسامع التزار (وقد نقلها له إيزفولسكي

بعضوبة بالغلة) فقال فيها: «اجل، سنجد لاحقاً ان التعامل مع ابني اصعب من التعامل معي». وقد علق الأمير فاسيلي بقسوة قاللا بان اي أب اقل هيأما يابنه كسان قد عاقب الطفل لإهانة رجلاً جديراً بالاحترام.

وروى الأمير فاسيلي قصة أخرى تناقض ما روى كليارد عن الفلاحين. جاء فيها أن الصبي أحب أن يلقي الجنود التحية حيثما حل. لكن الفرق العسكرية دائماً ما تجاهلته لو حضر بعبعة أبيه وحيث بدلاً عنه الزوار. وهذا ما جعله أن يعدو قبيل أبيه في الاستعراضات العسكرية ويفوز بتحية الجند. لقد سبب سلوكه هذا ازعاجاً كبيراً لقادة الجيش وقد اشكى الدوق الكبير نيولاً لدى الزوار أن فرق الجيش لم تعد تعرف من تحمي. لذلك أمر الزار وريث العرش أن يلتزم بجانبه في السير مستقبلاً.

هنا نستطيع القول أن نصف الإشاعات المأكرة بحق مزاج الصبي وسلوكه أو صدقت خُصلت روسيا على قيصر آخر على شاكلة أسلافه المستبدين^(١١).

ادرك كليارد مغيبة هذا النضج والدلال وتوصل للقيصر أن يمنح الصغير حرية أكثر. كان الوالدان جد حاسسين للموافقة على طلب كهذا ويرغم أن الصبي قد سقط من على أريكة وجرح ركبته وهو ما تسبب في الأذية المرضية مثلاً يشير لذلك بيرس - لم يحاول الوالدان إوم المعلم على ما حدث ولم يعدلا من قراءهما يمنحه مزيداً من الحرية.

يزعم الأمير فاسيلي أن التزاروفيتش كان يضرب إخواته. وهذا ادعاء لا

يستند على أساس من الصحة البتة. بيد أن الفتيات الأربع الجذيلات عشن حياة ليس كما يعتقد العالم الخارجي، فلا حياة بلاط ولا حفلات رفص ولا قرص لمقابلة ضباط شباب. لذلك كن يعضون جل وقتهن في التزاويكو سيلا في القصر الشتوي... أربع اميرات في برج عالي. وتذكر ماريا راسبوتين انها كانت ترى في اليوم الواحد وجوهاً أكثر مما رأي في اسبوع.

كانت اولغا وهي اكبرهن سنا جادة ومثيرة على القراءة فترأها تحمل كتابا انكليزيا عاده. (كانت الإنكليزية لغة العائلة لان التزاويتا نشأت في بريطانيا وتحدثت الروسية بذكاء شديد). وكانت قراءتها بلا شك عرضة المراقبة. اما تاتانيا، وهي الأهل، خلقت عليها غرورها وصليت من أبيها سحر جماله وطيب طيشه وهي كانت برغم خجلها هادئة الطبع وحية الخلق. اما الصغيرة اناسازيا المولدة سنة ١٩٠١ فهي أكثرهن حيوية وكانت تحب المقالب وتديرها لأخواتها.

فليس مفاجأة إذن ان يحب راسبوتين الفتيات الأربع اللاتي سرعان ما أصبحن قريبات اليه. وربما لم يكن اعتناهم بأولغا وتاتانيا المملطونيا صرفاً برغم انه لا يبدو قد عطف لفعل شيء معين. لقد تبنى لنفسه عادة اللعاب الى غرف نومهن لتقيلهن قبل النوم في الليل متجاوزاً أحياناً حتى أبواب طرق الباب وقد استكتت المربية مدام (نيوتشيف) للتزاويتا من هذا السلوك. لكن التزاويتا لم تدو ذرة شك في كريكوزيا المقدس فهو عرفع عن اللبا حتى مع الصبايا في ملاس النوم فسارعت في طردها. سرعان ما امشغل راسبوتين ذلك وبدأ بمغازلة واغراء عمة الف اميرات. وقد تحدثت الموصلة عن ذلك للمراهب الذي استمع الى اعتراضاتها ذاكراً ان الإغواء كان قد حدث في الحفلات. وأوصاها المراهب

(١١) أمير روجينسكو القيصر لاحقاً بأن الخجانات كانت المكان الفضل لدى راسبوتين لاغواء أتباعه من النساء وبأن الحمام المشترك كان إحدى عادات الخلية لأن راسبوتين إذن كان عضواً في هذه الزمرة.

(١٢) لم يكن فاسيلي من جهة أخرى دقيقاً في معلوماته كما يظهر - يذكر مثلاً أن التزاروفيتش لم يكن لديه معلم لذلك كان يعتمد على أمه وأخواته في تزويده بتعليمات. ويبدو أنه تعامل فأما وجود كليارد.

الذهاب الى التزارينا لتحديدها من تأثير هذا الشيطان^١. لكن ايهان التزارينا وراسبوتين لم يتزعزع للمرة الثانية، زاعمة ان الممرضة تعاني من ارتباك عصبي فاستلجها الى مصحة عقلية في كوكاسوز، ثم دافعت عنه امام القيصرة قائلة أن راسبوتين انما يحاكي (ايوسيلز) في حريته في تقبيل وضم الآخرين. لكن الممرضة حرصت على نشر قصة التأثير الشرير لراسبوتين في القصر الملكي في ارجاء بطرسبورغ. فدارت اشاعة تقول ان التزارينا وابنتها الكبيرتين كن عشيقات راسبوتين، وهي اشاعة صيرلضها علم النفس الادراكي. اذ قام تأثير راسبوتين على التزارينا على نظرتها اليه كقدس وهو قد حرص كثيرا ألا تخامر سلوكه في القصر الشكوك. وتعالى الحمر حتى امام (آنا فيروبول). لكن داماسكي، الوكيل المساعد للمجمع الكنسي، قال في سنة ١٩١٢ لروذيانكو بان التزارينا كانت فعلا عشيقة راسبوتين وقد سلم بهذا الجنود الروس ابان الحرب.

نرسخت في العامين ١٩٠٨ و ١٩٠٩ جذور نفوذ راسبوتين الذي اصبح الرجل البارز نجمه في بطرسبورغ. لكنه وبرغم ذلك لم يألوا جهداً أن يباي بنفسه عن كل منفذ ينسج لاعماله ضده وعليه كلما تعاضلت الإشاعات حول تأثيره في المنزل الإمبراطوري تعاضلت بالمقابل رغبة كل مضيفة في بطرسبورغ في حطسورة لحنفلاتها. وحتى عدوه اللدود رودزيانكو قد اعترف قائلاً:-

«كان يحصل على أتباعه وتلاميذه بلمح البصر، خاصة في المجتمع... سيما بين النساء اللاتي انجلبن اليه كما يتجلبن الدينوز للفعل»^٢.

انها عامما الانتصار الذي تسلى فيه راسبوتين ذروة النجاح. فقد علا نجمه مع النفي (جون) من الكروستادت في ١٩٠٣. لقد أمسك الآن بتلابيب الأسياد. كان قوي البنية وله ما يسمى بـ«الشخصية المغناطية». وطلعت

سمعته المشهورة كزهر ساء لدرجة أن اشتهت كل امرأة شجرة في بطرسبورغ. لقد أراد أن يظهر على غير اعتلاء. غير متصنع وغير مهين في ملبسه. قدمت له التزارينا وبناها قمصانا مزخرفة وأهدته معجساته سراويل ناعمة وجزمات جلدية. فاصبح لذلك غندورا شديد التألق ولم يشوان في استغلال ذلك. وظل سخيلاً يصرف ما يأتيه من مال على غيره بيد انه كان سعيداً بتقبل الهدايا من الثياب او الخمر المحلاة، حتى ابتاعته الغرائقة ميليساً بيتاً جديداً في بوكروفسكيو بطايقين وهو اول بيت بطايقين في المدينة.

غير أن سلوكيات راسبوتين ازدادت سوءاً. قال بيرس «كان يزدي الرفيع المنزل والغري من كلا الجنسين» ويتحدث سينوفيش عن اعاناته التي لا يحلها عقل. ويقول مراقب ساحت آخر أن راسبوتين كان يأمر بصوت عالي تلميذاته وانه وصف إحدى مبيعات المجتمع بـ«البقرة البدينة».

يبدو لشديد الأسف ان راسبوتين وجد مشعة أن يفرض ارادته على «المجتمع» وهو قول لا يعني انه نوع من عصاب التجبج. فبطرسبورغ كانت مدينة تجمع منحن جعل من جمع المال والزنى ونقل الشائعات اولى غاياته. رجالها يحكون المؤامرات وتساوفا هستيريات. وفيها كان راسبوتين مشير عن شخصه الحقد والكبر. وان كان غصبياً. غير أن الراهب اللايوني قد واجه شهرتهم المحمومة بحيريه المائلة وشهية المفتوحة للجنس وعطش للخمر مزوج مع قدرته على الإتران. كانت «العدمية» مفردة حديثة ليس في اطارها السياسي فحسب بل بصفتها انكاراً اجتماعياً لكل القيم المطلقة. وقد أعد قادة الفكر والفنانين المعاصرين والكتاب كل التبريرات لهذا الإنجراف الحاسي من الهدف. كانت هناك من جهة العدمية الوحشية لاندرويدف وارتسياتيف والحنين الى الصوفية لدى مختلف الحركات الدينية التجديدية من جهة اخرى. واغفل

رواية هذه المدرسة هي الملاك المتقد لبرسوف وهي اطلالة على القرون الوسطى البعيدة عندما كان الشيطان واقعا حقيقا، لم تكن لراسبوتين اية علاقة هؤلاء الناس. فالخيلة تسري فيه بقوة الى حد تجعله لا يعطف على عبث ويأس مشرسة اندر يصف التي كان دافعها الرئيسي هو الدم الكحولي. لم يمان راسبوتين من الخمار بعدما يذهب عنه السكر في ساعات قلائل معها أفرط شرباً. اما بالنسبة للصوفية وعلم الأخلاق المسيحي التعلق بالفضيلة بالذات وتعليب النفس فقد كان لا مباليا بها اطلاقاً. كان دينه مخلصاً ورغم كونه حيوياً وفطرياً قريباً من الشبهة النابونية التي وصفها نيشه في «مولد المأساة». كانت عبادة غريزية لغوة الكون ومغطقية بحيث ان يلعب الجنس دوراً فيها.

فد فقه هذا الرجل مخيرة «النجاح». فالتجاذع يعني العيش بين التافهين وان يقبل إعجابهم له وتحييتهم عليه وأن يتبصر من خلالهم غاياتهم في استغلاله. انه يعني ان تعيش دوماً في خضم جور من الحقد والضغينة والمعاذلة في أحياء أخرى من أن يهينك رجال أعدوا أنفسهم أعز من أن يتزلفوا للفلاح. ومع هذا أدرك طوال الوقت أن الأمر برمته يتم عن سوء فهم. كان بلا شك يمتلك هبة نفاذ البصيرة وقابلية على الشفاء. بيد أن قوته اتكأت على نظرية التوارخ له انه قدساً وعلى ظن التوارخ به «مسيحياً شديداً» (وقد افصح التوارخ هذه الملاحظة التي نقلها راسبوتين أسرع من البرق للراهب ايليو دور قبل شروع مشولين سواصراته لشعير سمعة راسبوتين). لم يكن راسبوتين برغم ملكتي الذكاء ونفاذ البصيرة اللذين أقرهما أشد أعدائه من كتاب سيرته قبل اصداقائه رجلاً فطناً قادراً على المصالحة بين غرائزه ومعتقداته الرهيانية. لذلك فقد سلاحاً كان شهره دفاعاً عن نفسه ضد صفات الماكر والدجال والمحتال التي اتهم بها الآخرون. وهو لم يسمع ابداً بنيشه ولم يكن ليقيم حتى لو سمع به. وعليه انطوى دفاعه

الوحيد ضد الكاليبات كهله على الأذراء منها. فليس غريباً اعتباره مقربيه من المشعوذين المحترفين امثال مايلوف وسيلانوفش وأن يعامل تلميذاته على أنهم حريم خاضعات له.

فيما الخمس راسبوتين يمزج موقعه ويقتو أكثر رجال بطرسبورغ مداراً للحديث. كان للقيصر مشاغله الشاغلة. فالوضع الداخلي كان جد قلق برغم ان يقولوا لم يشعر بشيء يخيفه في (الدومس) وواصل الساسة ورجال الشرطة يشتال أحدعهم الآخر، وأعلن البلاشفة تحركهم علانية وتجاهلت الصحف ما يمكن ان تجره عليها ضراحتها من غرامات ثقيلة، وغالباً ما أوقعت مطبوعاتها القيصريين بين الاحراج والحق. لكن الوضع الدولي كان هو الآخر سيئاً. فبعد بدأت اول دمدنيات الحرب العالمية بالظهور منذ عام ١٩٠٨ وقد اتفق يقولوا وكبير ويلهلم ان يدعم أحدهما الآخر. ولم يش كمبر تذكر التوارخ أن روسيا تريد وتحشاج مستبداً مطلقاً. وهو الذي حثه على دخول حرب مع اليابان مؤكداً له: أن مضيق كورناروسية ثم تغير تصيحته عندما تواتت البلايا. وقد حرص كمبر أيضاً على اطراء أكثر رجال الدولة لدى يقولوا وهو (وت) ودعاه لزيارته في نهاية الحرب اليابانية. ورأى كان لسقوط (وت) من السلطة علاقة بامشاة نيتسولا المتزايد من كمبر. الى الجانب الآخر حث (ويلهلم) يقولوا على توقيع معاهدة حلف لا يضم فرنسا في الوقت الذي كان يعمل فيه وزير الخارجية الروسي جساهادا لتحالف فرنسي - روسي وقد اجبر وزراء يقولوا الغاشيقين بها فيهم وت القيصري على انكارها. (ويبدو ان يقولوا كان قد وقع المعاهدة دون اعلام حكومته وقد أمر وزير بحريته على تصديقها بينما احتفظ هو بمحتوياتها لنفسه).

تتجر في عام ١٩٠٨ موقوف تخرج آخر يتعلق بثراث من ايام يساراك

والإكسندر الثاني. وقع الإكسندر الثاني قبل الحرب الروسية - التركية في ١٨٧٧ اتفاقية مع النمسا بحث النمسا فيها احتلال مقاطعات السلاف التي تشمل بوسنيا والمهرسك مقابل تعاونها في الحرب. لكن النمسا أخفقت في مساعدة روسيا لذا توجب إلغاء المعاهدة. إلا أن النمسا اعتنقت فجأة في أكتوبر ١٩٠٨ أن المقاطعتين السلافيتين ملك لها مما سبب هياجاً عالياً. اكتشف نيقولا أن اللوم يقع على وزير خارجيته، أيفولسكي الذي خدعه بمكر بالغ وزير النمسا. استشاطت بريطانيا والنمسا غضباً لأن روسيا كانت قد دخلت في تحالف معها قبل الحرب ولكنها الآن اكتشفت أن أيفولسكي قد تعامل سراً مع النمسا. أخذ الغضب مأخذه بشما من كبر ويلهلم لحق حلفاءه التساويين لكنه قرر الوقوف الى جانبهم بعد بعض التردد. توجهت حينها الوطنية وقد كانت «الدوما» وطنية كأشد الرجعيين تعصياً. قبلنا كل شيء كأنه يلذر بالحرب.

في هذه المرحلة بالذات تدخل راسبوتين. لم يعلم أحد ماذا حدث بالتحديد لأن راسبوتين لم يكن في تلك الحقبة رجلاً ذا تأثير ونفوذ سياسيين لذلك لم يتحمل أحد غناء التجسس عليه. لكنه حذر في عدة مناسبات من وقوع حرب مع النمسا لأنها، كما أخبر التزار، ستدلي النار على النهاية الروسية. وأما ردود أفعاله لاحتمالات حرب ١٩١٤ فإنها كانت أجدر بالتصديق. ربما لم يكن راسبوتين مسيحياً جيداً لكنه كان يؤمن بالسلام والأخوة العالميين. تاهيك عن ادراكه كقروي، ما مسيحية شعب روسيا من ويلات الحرب. كان ما يزال في أكتوبر ١٩٠٨ عالي المقام لدى القيصر الذي لما يزل يؤمن بقدرة النبوة. لذلك ارسل القيصر أيفولسكي الى لندن لشهده ب بريطانيا ثم الى برلين لمناقشة قضية المعاهدات والتحالفات ثم امقطت والغيت في النهاية، وسمحت روسيا للنمسا بالاحتفاظ بيوينيا والمهرسك. وكما اشار راسبوتين في مناسبات عدة لا

الفصل السابع

تكاليف الأعداء

يأخذ «المتن الروماني» المخلصين على كاهله معظم المسؤولية في تقويم راسيونين إلى مجتمع بطرسبورغ. فيها هو الآن قد قدما مؤثرا على العائلة المالكة وما هم قد تسببوا في الشك في حكمهم. لقد حرصوا وأصبحت أن ينفذوا لأستيفان تيوفان وغيرهم من خدمه لها و تجميعه شخصيات قلوبها إلى مؤمنين بتقديراتهم وتعاليمه حتى بدايات عام ١٩١٠. لكنه تحشم أقل عناء في إخفاء هذه مشاعر المراهب اليبور. فهو قد أحب إليفلور من حيث لا يدري وحتى له الشباب إليفلور شديد الانجذاب. بيد أن وأصبحت ظن به مترنأ. وهو قد تفهم لم ينحتم على الأسقفين أن يكونوا صرورين. فكلاهما طاعن في السن. أما إليفلور فكان ياعدا وهو لم يكن يأتي شكل الا جنابا الله شعر راسيون أن بين بطريرك من الرجاء الجنس من حياته يكون كمن يصرق غير واع قائلة في جميعنا كثير من القدر عن وجهة النظر هذه. فالزهد المسيحي غالبا ما تحولت فيه سيرة متليبية عتريئة. ولنا غير مثال في وليام جيمس الذي يصف حياة القديس (الريبي) من كدوتراجا الذي يذر نفسه للمعذرة في سن العبارة والذي لم يرفع نظره عن الأرض ليحتمي نفسه من الإغراء. بل هو رفض حتى البقاء وحيدا مع امه في خنصرة. ويشيف نجيمس قائلا: «لا أجد حياة» قال الذي واجده في قداسة أرمين، والمسلمة أن يترك وجهة نظره. ان من تسبب البحث الروسي والفكري

عقله حتى لم يعد لياقي الأشياء فيه حيناً له أن يتزوج معذوراً أن الجنس قد
ولاً. لكن الذي يعتبر الجنس شيطانياً، لأنه رأى شيطاناً يكون كمن دسّ نوره
بصفته انساناً. لقد تطلع راسبوتين الى القداسة فوجدوها ميرة الانسانية لا ابتكاراً
لها. وهذا ما حداه أن يمازج ايليدور حول عزوبيته. وحينئذ غنى راسبوتين لو
يضاف ايليدور صديقاً له مغرباً ونصيراً له في حته معاضداً. ولكن أنى يتأتى ذلك
وطريقهما للجنس حائل بينهما؟ لم يكن ايليدور من جهته جزءاً كما بدا عليه.
لكنه كان مدركاً أنه امام خيار صعب. وفيما كان من السهل على راسبوتين
الانصراف في بطرسيورغ، كان الاسقف هيرموجن جزار ايليدور الأحراب
وسيمافى مسامحة أى التحلل في سلوك ايليدور في نزارسين. وعدا ذلك كانت
صداقة هيرموجن وتيوفان مهمة لديه وقد اعتقد، خاطئاً، بان قوتها كانت
اعظم من قوة راسبوتين لو تضامنا.

التقى راسبوتين في الاعتصام ١٩٠٨ و ١٩٠٩ أكثر مما التقى هيرموجن
وتيوفان وقد أسهب كلاهما حديثاً في قضية عودة روسبا الى سابق قوتها
وسبابتها. وكلاهما ادرك الجواب: انها بحاجة الى قيصر أحسن من أن يرام
وأعز من أن يضام تدعسه كنيسة أقوى من أن تلام. لكن راسبوتين بدأ
يستعرض حينها سطوته وكثيراً ما حدثت وجهة نظره ايليدور. كان غالباً ما
يتحدث عن العائلة الملكية ذاكرة التزاويين على انها «علماء» وقائلاً عن ليقولا بأنه
«لا يستطيع النفس يدولي». ولعل راسبوتين وجد متعة مأكرة في التبع امام
ايليدور. إذ أعبره قول التزار فيه أنه «مسيحي حقيقي» مضيقاً أنه غالباً ما يخ
التزار. بل انه وصف -يرغم انها تبدو مبالغة من جانب ايليدور- تقبيل
النزارينا في غرفة ابنتها.

دها ايليدور راسبوتين عام ١٩٠٩ الى النزارسين وزيارة «القلعة الروحية»
التي ما زالت قيد الانشاء. وقد أمضيا وقتاً كبيراً في زيارة اتباع ايليدور في
يوسهم وفيها فرض راسبوتين تأثيره الشديد على الفلاحين البسطاء. بيد أن
ايليدور استشاط غضباً عندما أقدم راسبوتين على تقبيل اتباعه من النساء
وتضمنهن. وبمعتقد فولوب ميلر أن لدى ايليدور اسباباً اعنى من ذلك لشعوره
بالامتناع من ضيقه المهم. فبعد وصولها الى النزارسين بقليل جاء سائق عربدة
شاب وهو أحد تلامذة ايليدور طالباً المعونة فزوجته قد هاجمها الشيطان وقد
بدأت بالتلوي على الأرض في نوبات عصبية شديدة صاخخة وغتم بأشياء غير
مفهومة. اخذ ايليدور راسبوتين وقبضة من الماء المقدس ونثره على المرأة المهتاجة
مترها بترائيل. بيد ان المرأة لم تظهر عليها علامات شفاء. وهنا طلب راسبوتين
اليهم أن يغادروا المكان ويتركوه يغلو مع المرأة فأطاعه ايليدور على مضض.
ومضى وقت طويل ثم خرج راسبوتين قائلاً: «لقد طردت الشيطان خارجاً».
وعادت المرأة الى طبيعتها.

تكرر المشهد ذاته بعد عتي أيام قلل وفيه هاجم الشيطان ابنة اخ سيدة
تدعى (مدام لبيديف). عاشت الفتاة في طيبة بعد أن عانت من نوبات
عصبية. ومرة أخرى هجن ايليدور أن يفعل شيئاً وترك راسبوتين يغلو مع الفتاة
الفاسدة الرعي. أمضى معها راسبوتين اربع ساعات عاشها ايليدور لا يقر له
قرار فهو ما يرح يستذكر كيف يتصيد راسبوتين في الماء العكر. ثم طلع
راسبوتين معلناً اقتصاره فالفتاة ترقد بسلام وطلعت معه سمعته لتبلغ جميع
القرى المجاورة.

بعدها دها راسبوتين ايليدور لزيارة بوكروفسكو التي ما زالت بعضي فيها

وقدما كثيرا. وفي طريق حملتها كشف راسبوتين للزاهبة عن أساور الماضي دون حواجة توضيحاً أنه عاقر الخمر حتى سن الثلاثين، ولم ينشئ لذاته على سر من مغامراته الجنسية. لقد بدا كأن راسبوتين استمع في هذا السلب عتفاً أو أنه اكتشف فيه رغبة صوب النفوة أكثر من الدين وأراد أن يشف عمن أقيم الشبهة فيه. بدا راسبوتين كما لو أنه فقد كل وزع في بوكروفسكو لحظة العودة إليها. فلما ما كانت القبل التي أعدها على أتباع إليودور من النساء قد نقرت الراهب شديداً فالقبليات التي حث بها على أتباعه النساء قد أجرت إليودور حتى تسأل في نفسه مبهوراً ما إذا كانت بوكروفسكو حريم راسبوتين الخاص، وشول إليودور. كانت زوجة راسبوتين لأعالية خيانة زوجها المفضوحة ونقل منها قولها: «إن لديه من الطاقة ما يكفي لكل هؤلاء النساء» فيا ظل إليودور يتساءل: «أهو قديس أم شيطان؟». ربما لأن راسبوتين كان يقترئ إليودور لتفادرا الجنسية وعليه معنى إليودور كتابه يد «الشيطان القنصر» وهو أول مرة ذاته لراسبوتين تتمتع بالإثارة الحسية.

كان إليودور لراسبوتين احترام الشخصية لأستاده ودليلاً لذلك أنه ما فكر فيهم أن يجهده لهرسونج وشوفان. فاستفظ بوجهة نظره وبقي له صديقاً مثيلة ميثاقه بل ودافع عن راسبوتين عندما بلغت هيرسونج الإشاعات المقلقة عن الحيات) راسبوتين (وكانت حينها صحيف بطرسبورغ قد بدأت يشن حملة هجوم على راسبوتين). وهذا ما يقدم أحد أسباب الشك بمبالغة تعليق إليودور عن سلوك راسبوتين في بوكروفسكو. بدأ رئيس الوزراء ستوليتين يتوجس خطر تأثير راسبوتين على القيصر. لذا قرر بعد أن قناني بها ذراعاً التحدث بصراحة للقيصر. استمع نيقولا، كعادته، بلطفه المجهود إلى حديث ستوليتين الذي

يضع أن يفتح كتابه تقرير عن راسبوتين عن أنه يعرض على التنازل. وأما ليتولا على ذلك ويأخذ ستوليتين القصر واتن الخلق أنه نجح في كسر جناح راسبوتين. تقدم حينها (لوكياتوف) وكيل المجمع الكنسي المقدس (ليصب القراء) لم يستغرق الأمر تحقيقاً طويلاً لافتتاح لوكياتوف أن من ليس خارج الاتفاقيات بين معتقدات راسبوتين والدينية وبين سلوكه الجنسي. لقد كان راسبوتين عسوا في الخلية التي تشكل العريشات الجنسية حراً لا يتحرراً من طقسها. أجرت ستوليتين تقريره وفقاً لوثائق مختلفة مشكوك في صحتها وفعاله للقيصر الذي ومنه بظفرة ثم واه في أحد أذنيه وأخبر ستوليتين أنه يفضل لقاء راسبوتين بنفسه والحكم إن كان (الناشور) طاجراً مذكوراً وقد سبق أن ذكرنا تعليق ستوليتين عن أول لقاء له مع راسبوتين. وفيه اعتقد فعلاً أن راسبوتين حاول تنويعه مغناطيسياً.

لمست شتات نفسي وخاطبته بشديد العيارة أن لدى جليل أدللة بصفته عضواً في رتبة الخلية ثم أمره بترك مدينة اللديس بطرسبورغ فوراً.

لقد تجاوز ستوليتين تعليقاته بأمره راسبوتين مغادرة مدينة بطرسبورغ غير أن الذي حصل أن راسبوتين نفسه أخذاً ومظاً لكم العبداء الذي أتاه على نفسه وقد أخبرته عيادته أن خروجه قدموا الفرية وسألوا عنه. وقد أعطاهم الأب بيتره الذي لم يزل يتكبره راسبوتين كثيراً الكثير من المعلومات. ووصات التحقيقات إلى قهرخوتور لمعرفة ما إذا كان راسبوتين قد نزح إلى الخلية

(١) ثمة نقطة يصحح عليها أوقافنا هنا أن اعتقاداً لمة في روسيا تعرف الكثير عن الخلية لاد قصة الأخيرة حرصت على عدم نشر لمعالجاتها

وبدأت صحف بطرسبورغ بالتهجم على راسبوتين، غير أنه بفضل المغرامات التي قد يفرسها القيصر غير مبال على أية صحيفة تحط من شأنه، لقد دك ميء الأشياء مضاجع الراحة. ان زيارة مطولة ليوكروفسكو كان يمكن ان تلي مغالب ستولييين غير ان راسبوتين أدرك أنه سيظل تحت رقابة مستمرة هناك. فقرر القيام بحج آخر الى الأرض المقدسة فهذه الرحلة سنأتي بمنافع عديدة. فهي ستعزز من درجة وزعه لدى التزارينا وستعده بعض الوقت من جواسيس الشرطة من جهة اخرى وستعنه فرصة لتجديد علاقاته مع معارفه القدماء. لكن الأهم من ذلك كله انه سيسريح ليرة من حياة المؤامرات والمكائد التي بدأت تحيله الى متآمر.

بدأ راسبوتين رحلة الندم في آذار من عام ١٩١١ فظل طيلة رحلته على اتصال بالتزارينا. وجمعت إليه فيها بعد مختلف الرسائل والملاحظات وطبعته كعمل يدعى «صحيفة راسبوتين في حجه» ويتألف من ١٦,٠٠٠ كلمة. وكشف المطبوع الراحة التي عاشها راسبوتين وهو بعيد عن أجواء بطرسبورغ وأن الأديرة وحرقات «الأرض المقدسة» تركت فيه تارة أخرى عبق الأثر. فتمحست التزارينا كثيرا برسائله - التي غالبا ما كانت خريشات على ورق بالي - واحتفظت بها بمثابة تامة. انطوت معظم جواباتها على هيام زهدي بسيط اللام عن عمق التأثير الذي طبعه فيها راسبوتين. وهي قد استشاطت غضبا من ستولييين وطلبت من القيصر فصله. بيد ان يقولوا كان أعقل من أن يفعل ذلك فالزوجة الأكفياة قلة لكن تعامله مع ستولييين اضحى أكثر برودة وجفاء.

دامت رحلة الندم عدة شهور توجه راسبوتين بعند عودته منها الى بوكروفسكو. لكنه ظل للتزارينا شلوا ما سلاه فعها وأمنية ما فارق قلبها برغم

أنها أدركت أن حسن التصرف يحتم عليه ألا يعود الى مدينة القديس بطرسبورغ. لذا أرسلت صديقته أنا فيروپوف وصديقته مدام اولوف الى بوكروفسكو للاطمئنان على حاله. وتكشف أنا فيروپوف في مذكراتها فتقول: «برغم الثقة العالية للتزارينا بكمال راسبوتين ومثاليته فقد أرأت ان تحري بعض التحقيقات حول حياته الخاصة في سيبيريا». رينا غلى الأسقف تيوفان الاشاعات ضد راسبوتين في البلاط وعليه أثرت التزارينا معرفة أحقا أن حياة راسبوتين في بوكروفسكو مجرد حياة دعارة ولعش. (ويذكر بيرس ان تيوفان هو الآخر قام بزيارة راسبوتين في بوكروفسكو وفيها تلقى اعتراف امرأه كان راسبوتين قد اغواها لكنه لم يذكر التاريخ للأسف). استقلت أنا ورفيقتها القطار الى تيومين حيث التقاهما راسبوتين بجوارده وهرية وأخبرها أن عليها قطع ما يقارب ستين ميلا عبر طريق وعر في هذه العربة. فهي ساقية ليست بالمسافة لراسبوتين لكنها رحلة قضائية لسيدتين من البلاط وعادتيهما.

وصفت أنا منزل راسبوتين بـ «توراتي في بساطته». فطابقه العلوي يضم غرف نوم خالية من الأثاث ما عدا حشيات من القش موضوعة على أرض خشبية يرغم ان الشموع مشتعلة امام الايقونات المعلقة على الجدران. وضعت اسرته، حسب قول أنا، زوجته القديمة وثلاثة اطفال بينهم الطفل المصغر وعائستين تساعدان في اعمال المنزل والمزرعة. كانوا جميعا يتناولون الوجبات في غرفة الطعام البسيطة جالسين حول طاولة عادية وفي المساء يأتي راسبوتين اربعة اصداقاء يطلقون على انفسهم اسم «الإخوان» لقراءة التوراة وغناء الترانيم.

لم تكن الحياة شجرة كما تبدو لأول وهلة فجل الوقت يتقضي خارج البيت خاصة على كنف النهر. وغالبا ما أمضى راسبوتين و «الإخوان» وقتهم في

عيد السلطنة، تم حضوره في نخبات على حصة التهر، مسح الجو الديني والسياسية
 هناك أثرها على أنا فيرديف التي عاودت المجيء (ليوكوفسكو خلال أيام الصوم
 الكبير من عام ١٩١٢ بعد طرد راسبوتين الثانية من الأسرة الإمبراطورية. دعم
 فيرديف أنا الذي قلمت للتأريخ بعد عودتها من رحلتها حياة راسبوتين العائلية سيما
 وقد أثارت فيه أن رجل الدين في المدينة يغض راسبوتين كثيرا. كما اصطحبا
 راسبوتين في زيارة إلى فيرجووزو. واكتشفت هناك أن الرأي مائل في كثير
 لراسبوتين احتراماً، أكثر من رجل الدين في القرية.

وقعت هذه الزيارة أواخر آب عام ١٩١١. وفي أوائل أيلول من نفس
 السنة زارت الأسرة الإمبراطورية مدينة كييف في وفد رسمي ضم رئيس الرهبان
 ستوليبين ووزير المالية وهو رجل كنفه يدعى (كوكوفشيف). وقررا راسبوتين
 مراجعة أنا فيرديف إلى كييف التي وصلوها في الثامن عشر من أيلول وأول
 الاجتماع الذي شاهدوها العربة الخاصة بالأسرة الإمبراطورية وهي نقل التزار
 والتزارينا تتبعتهما عربة أخرى تقل ستوليبين التي ما أن حرت عليه حتى صاح
 راسبوتين «أفدت يسر رؤيتك» التي تجري وراءه وهناك قوله هذا مثلاً آخر
 على قدرته في التضييق حيث كتب التزار لاحقاً في اليوم التالي قائلاً:-

«خلال الاستراحة الثانية (من أوبرا ومسكي كيويساكوف) الفير
 السلطان»... سمعنا صوتين كما لو أن شيئاً ما قد سقط. خلت أنه يحتاج
 الأوبرا ربما قد وقع على رأس أحد. كان ستوليبين يقف أمامي مباشرة ثم أثار
 رأسه نحوي ببطء ورسم يديه إشارة القلب حينها أدركت أن يده اليمنى
 وبه الرسمية ملطختين بالدمية. غطت بعدها ببطء في كرسى وبدأ يترك

١٩١

حاول القصر زيارة ستوليبين في المستشفى لكن أحداً لم يسمح له بزيارته
 وربما رفض ستوليبين رؤية ليلولا. إذ قال بمرارة حينما شاهد التزار بجسده من
 كل صوب وحلب وظل هو وكوكوفشيف لا يابه لها أحد. فمن غير
 ضروريين. وهكذا توفي بيتر ستوليبين، القتل واجد من عرفه ليقول الثاني
 والرجل الوحيد الذي كان يمنع اندلاع الثورة.

انتهت سموت ستوليبين أخير حقيقة أحواله دون عودة راسبوتين إلى
 بطرسبورغ فعاد أدواجه إليها بعد أن رافق الأسرة الإمبراطورية من كوداما في
 الكرستيا ومن حيث طوره. ويمنح الفرصة الذي أراد أن يبرهن أنه لا يخشى
 محسوب الإمبراطورية.

بيد أن بطرسبورغ ظلت تراوح على حالها. وشجعت الحركة المناهضة
 لراسبوتين- ما أن بلغها قرب عودته- تستجمع قواها. وذهب الأسقف
 بطرسبورغ، مسيو انتوني، للإجتراس لدى القيصر على عودة راسبوتين (لكن
 أنه جاء الا يكثر لشيء غير مؤثر). وقد توفي الأسقف بعد ذلك بقليل.

قرر ايليودور وقد رأى حيزي راسبوتين ضم قواه لتبرؤك وجسده
 متبذات -فألك الأسقف العطف الذي تقع عليه المسؤولية العظمى في عدم
 راسبوتين للمجتمع- قد قدأ أشد أعداء راسبوتين عداء له وحقاً تقول أنا لجهل
 تحسباً سبب هذا التغيير. أنا هم مؤمن الذي كان بعيداً عن بطرسبورغ في
 ساراتوف- فكان راقباً من أدائه راسبوتين دون وضع حتى يتفكر عليه. وربما

١٩١١ جعل بعد ذلك عادات عام ١٩١١ تاريخاً لهذه الحالة. بعد أن عظم التراجع الذي
 عليها في حالة است دفقة. فهو يكثر أن زيارة أم. جي. أر انتوني قد حدثت بعد عودته
 (استبعد العرف)

أهداه إيليدور ما يحتاجه من دليل أن أخبره تفاصيل زيارته ليوكروفسكو في العام المنصرم. وحاجة إيليدور لم تغير مشاعره حيال راسبوتين فكانت أنه استمع لإعتراف الراحبة (كيسينا) التي اغتصبها راسبوتين.

فيما تقف رواية راسبوتين عن أسباب تفجر نزاعه مع هيرموجن متناقضة تماماً لما ذكرناه من مره. وقد احتواها كتاب ابته. أنها - في أقل تقدير - رواية جذيرة بالتصديق كرواية إيليدور. إذ يقول راسبوتين أن إيليدور قد تأثر بشدة الأثر بمزاجه في الجنس الالحد الذي حده أن يقطع عن ممارسته الزعدية. وفي أحد الأيام ذهبت زوجة ضابط في بطرسبورغ تدعى مدام (اولغا لوكسين)^(١) للإعتراف لإيليدور. كانت هسبرية إلى حد ما وربما اعتقد إيليدور أنها ذات سعة أخص من الرغبة. وعليه، حاول اغتصابها فطغقت المرأة المذكرة بالصراخ. وعندما سارع اتباع إيليدور لتجديدها، أعلن إيليدور أن المرأة قد توسلت إليه ليحجمها وأنه قد طردها بعيداً عنه. فأخرجوها للفناء وانهاروا عليها غريباً وسبقوا ثيابها ثم ربطوها على ظهر عربة سحبها على الجليد. أسفر ملوكهم هذا عن انهار المرأة عصبياً وباتت أقرب إلى مجنونة. (ويذكر فولوب ميلر أنها صبت بعد ذلك جثثاً اغتصابها نحو راسبوتين وأصبحت من أكثر معجباته هيماً به لكن نوباتها الجنونية سمزته. حتى عجل صبره في معالجتها).

قرر إيليدور بعد طول عناء تسجيل اتهام راسبوتين بالشكوى منه لدى هيرموجن الذي طلب من راسبوتين زيارته في التاسع والعشرين من شهر كانون الأول من عام ١٩١١. وصل راسبوتين مكان المقابلة الذي كان - على الأغلب - أحد أميرة ساراتوف وكان لديه أنه اكتشف بأن المقابلة لن تكون على انفراد

(١) التي يذكر راسبوتين أنها كانت تعلم راسبوتين القراءة والكتابة.

فإيليدور كان هناك والمصنوعة (ميتيا كوليايا)، المنتجة التي طردها راسبوتين من البلاط وشاعدين آخرين وصحفاً.

ومرة أخرى نحصل على روايتين متناقضتين لهذه المقابلة. أولها مره إيليدور الذي جاء فيه أن هيرموجن سأل راسبوتين ما إذا كانت قصص مغامراته الجنسية حقيقية فأجاب راسبوتين مرتعداً: «أنا حقيقية... حقيقة برمتها». ثم شرع هيرموجن الغاضب يضرب راسبوتين بصلب كبير راءه ألا يلمس امرأة بعد الآن وأن يبقى بعيداً عن القصر وقد أذعن راسبوتين لأوامره خوفاً على حياته هو.

يذكر أحد الشهود وهو القوقازي (روديونوف) أن هيرموجن بدأ المقابلة بتوجيه اتهامات شديدة اللهجة ضد راسبوتين الذي رد عنها بازراء مهذبة الأسقف: «أنتي لن أطيل عليك صبراً». فلغته الأسقف وصرخ عليه راسبوتين وتقدم لضربه حتى أوقفه الآخرون. نبدو رواية روديونوف أكثر مصداقية وأقرباً لشخصية راسبوتين من تعليق إيليدور.

عاملت ميتيا كوليايا (التي كان عليها ديناً قديمة نجحت في التخلص منها) راسبوتين بغليظ قلب. ولم يجر راسبوتين وقتاً ليقابل الزائر ويقدم له سرّاً ما حدث مستهلاً إياه بمحاولة اغتصاب مدام (لوكسين). ودون أناله أصدر الزائر أمراً يقضي بمحاكمة هيرموجن وإيليدور وفصلهما في ديرين مختلفين. كان هيرموجن الحق أن يحاكمه اثنا عشر اسقفاً بيد أن الزائر تجاوز ذلك الحق وقابل هيرموجن بالحكم وتعيم بعد مرضه للدير (تيروفسكي).

وفي إيليدور العقوبة وقرر هجر بطرسبورغ ليحوي أرجاء البلاد هائلاً

وشاقاً راسبوتين حيثما حلت قدمه، وقد كان في جعبته رسائل أرسلتها التزارينا
وإليها راسبوتين - مرفها في زيارته ليوكوفسكو عام ١٩١٠ - وشرع الآن يوزع
النسخ منها، وظل هكذا حتى بقي القيص عليه وسجن في دير في
(فلورنسيغوف) ويبدو أن تناقص ثروته أصابه بالكآبة، ثم شرع يولف كتاباً
يستذكر فيه راسبوتين وذاكراً أن التزارينا كانت عشقة راسبوتين. وقد جرد
بعد ذلك من قلبه ونجح مستكراً بزي امرأة في الحرب إلى الترويج وفيها استلّف
شاة مذكراته - التي أصبحت أكثر مفاعلة وكذا وإدهاماً - ثم كتب للتزارينا
وعرض عليها شراء الكتاب مقابل مبلغ كبير. لكنها لم تأخذه. يد أنه
نجم في بيعة أياها الحرب مع رسائل التزارينا لصحيفة أمريكية.

فجبر الأمر فضيحة كبرى. فلم تكن شعبة ميزموتين لراسبوتين السبب
الوحيد لتطوره. لقد مات أسقف تومسك - وهو نفس الرجل الذي أوصى
بأجراء التحقيقات عن راسبوتين قبل التي عشر عاماً - وشرح راسبوتين ذلك
تقصص صديقه القديم وعامق الحزم (بارناي) الذي كان يصل بستانيا. ويذكر
أنه بانكو إلى غزالة راسبوتين كانت أن يغدو قسماً. غير أنها غاية لا خن له فيها.
عاش راسبوتين (الرجل مابلر) سطواً على المجتمع الكنسي لتعين بارناي
بمنح نهاية المطاف في تعيينه بالتامسج أن هذه رغبة التزار. وهنا ألقى هيرموجن
خطاب استنكار قاصب عاقد بعدها المجلس. فسيب إبعاده إلى دير قسبي مر أنه
عجل عن سائق القبراء من اختراجه للتغيير.

غير أن الفتة الناعضة لراسبوتين ما فتئت يوماً بعد آخر ترد بقوة. وهذا
نشر استناد في أكاديمية اللاهوت في موسكو يدعى (توفوسيلوف) كتباً يثبت فيه
أن راسبوتين كان عضواً في الخبيثة واستهجن على الكنيسة تسامحها لئلا هذه

الإنسانيات. وربما كان لابد الفتح مع توفان ولوكيانوف. بيد أن الكتيب مرفعان ما
منع تسويفه. وكتبت صحيفة (كولوس موسكو) - التي يملكها رئيس الدوما
(كوشكوف)، مقالاً للنفس الكتاب مع مقتطفات عن الكتيب. لكن المقالة منعت
مبدأت الأيدي تنقل ما منور من أعداد للكتيب وقصاصات المقالات. ثم طبع
صحف أخرى حادو كوشكوف وبدأت تنشر مقالات من راسبوتين أماته وما
بدايات أرواح الإنسانية وإجسادها. لقد انطوى تعليق التزارينا من قال هذا
بعبارة: فالكل يكرهه لأننا نحبه. قسماً ظن التزار أن السيل قد بلغ أقصى
فأصدر مرسوماً منع يوزجه أية صحيفة أن تكتب عن راسبوتين. وبفعله هذا
يتخى عن مسؤوليته في حرية الصحافة التي أهلها في مرسوم عام ١٩٠٥.

اقترح كوشكوف - وهو رجل متغامر وذو شأن كان قد قاتل في (أرمينيا
وكبر) و (حرب البور) مناصرة شاملة عن راسبوتين تحسم الموقف في الدعاء
والتي أفسد فيها شعبيته أكثر فجاء بعده لتصيب رئيس الدوما (ميشيل
روديانكو) وهو رجل فخم الجثة أحسن الصوت، وتربوا حتى عظمه لكن
سحة من الغباء والغرور تتجسد فيه.

المفاد راسبوتين لتقنه حلقة من الأعداء الأشداء يعملون جميعاً كخليفة لرجل
لاستقامه فهو قد بات على حين فرة وفي غضون عام واحد فقط من أكثر الرجال
يتشأً ويخط جبال في روسيا. فبعد أن أثبت قوته في حدامه مع هيرموجن
والليودور وقف الآن أمام أطول بدأ وأشد قسوة. فذلك كوشكوف ذو
الروح المتغامرة ولكنه غلبت بحيراته الشديدة وكان قائداً (اللاكويرين) وهو حبيب

(١) البور (Bour): اسم حرف به المستعمرون من أصل هولندي في أرمينيا الجنوبية. انشأوا
التي أرواح الإنسانية، ١٩٢٧ و ١٩٥٢. انضمامهم الانجليز ١٩٩٩ - ١٩٠٢

هو اصلاح وطني اتفق من النظام البرلاني الإنكليزي مثله الأهل أما رودز الكو
فقد تغير بزراعة سلوكه وحسن أدائه الذي كان له وقته حتى على التزار. بل انه
كلم والده التزار الإمبراطورة (دواجر) عن راسبوتين واكتشف أنها تنظر اليه
خطيراً وشيطاناً. وهي قد وقفت ضد جميع من أحببتهم زوجة ابنها بيد ان
احصصها الأكثر قوة في الوقت الحاضر هو كوكوفسيف الرجل الذي عطف
ستوليين في منصب رئيس الوزراء والذي اعتبر لهذا المنصب لسبب معقول: هو
ان الرجل الوحيد في روسيا الذي جمع بالقوة والفة الكلايين لتولي المنصب. لم
يحبه الآخرون كثيراً، فهو رجل قصير القامة، أبيض اللبس. يزني الآخرون في
ظلمته، قليل الكلام وجفاف الأسلوب. وقد قال فيه الأمير (فاسيلي): «النايب
المراء شعور أنه امام رجل نظيف جداً، أبيض جداً، جد لطيف وجد متطهر».
أقد كان زعيماً أو قوون بمعظم المسؤولين الروس ورغم ان الناس قد لاحظوا ان
للشركات التي له اسهم فيها عمالة بالشعوى دائماً كما لو ان شخصاً ذو مقام
يبيع كلاً ما يستغل معلومات سرية... لكنه كان حشرة مقاربة يستوليون او وث
برغم انه كلفه وعمل وهما صفتان لا يتميز بها الروسي. وهو قد جاءه حين
استغل منصب وزير المالية أن يقتل الدوما مراراً فأخيه القيصر لذلك وغرس ثفته
في

غير أن كوكوفسيف وروزيانكو قد أشاعوا اعتقادها لراسبوتين وأشد
مها خطراً كان الرجال الذين تظاهروا أنهم أنصار راسبوتين وحلوا عليه من
خلف ظهره. وأشد من ضرر له الضغينة من هذا الجمع مخامر يدعي (البكسي
موسنوف) الذي كان محافظ (نيجني نوفغورود). وبهذه قصة تتعلق بموسنوف
مناظم نقود راسبوتين السياسي في عام ١٩١١. فبعد مقتل ستوليين أمست

الحاجة قائمة أن يقتل أحد منصب وزير الداخلية الذي تولاه آنذاك ستوليين
أيضاً. وعليه أرسل القيصر راسبوتين إلى نوفغورود ليرى منه إن كان فوسنوف
غير مرشح لذلك المنصب. وأتلك لم يكن فوسنوف قد سمع براسبوتين البتة
وثارت حفيظته عندما قدم منزله فلاح اشعت بجاذبه متعاليماً. لقد علمه
فوسنوف بصحرة ولم يقدم له حتى وجبة طعام. ولم يجر راسبوتين يوم عمل من
هذا السلوك لكنه ألح حين عاد أن التفسير الذي سمعه للقيصر ان يكون في
صاحبه. وبعد فوسنوف الأمر متعباً عليه أن يصدق أن فلاحاً كهذا له حظوة
عند التزار لكن فضوله دفعه أن يرسل أحد أعوانه تكتب البريد ويقرأ نسخة
من البرقية التي بعثها راسبوتين للتزار بذكر سيلو. كانت البرقية مرسلة لثا
فيريوف ويا للعبسة فوسنوف عندما قرأ: «أعبري منادياً أن نعمة الله في
فوسنوف يرغم أن شيئاً ما يبال يقصه». فلن فوسنوف أنه ارتكب حماقة
وسافر من فور لبطرسبورغ لمقابلة التزار الذي استقبله ببرود هجراً إياه أن
الإصلاحات الخاصة ببناء البالوعات في نوفغورود ليست بالإنجاز المهم. وقد
أخذها فوسنوف حجة لديه. ثم طرده. بعدها احس راسبوتين بالرضا وهو يرى
فوسنوف يحاول جاهد التسلق اليه وهو سئوك لم يقدم منه راسبوتين فمخرج
فوسنوف موعداً لمقابلاته بعد مرور اربع سنوات. لقد كان سلوك فوسنوف
كعلة ذات وجهين أحدهما متعللاً لراسبوتين وهو أمله والآخ مشمراً عليه من
علاقته. وهو قد أخبر روفزيانكو ان من سلوكه اللطيف مع راسبوتين أمله أن
يقضي به مخموراً في مكان عام فيسأله مع التزارينا.

ولا متوقعة هنا من ذكر اثنين آخرين لتكتمل الصورة الجيدة لجميع
أعداء راسبوتين. انهما (فلاديمير بورشيكفش) وهو عضو لاعم في الحزب المحافظ

في تلك الحظيرة في الامم. والأمير (هيلينوس يوسوف) الذي انشأ راسيون في عام 1949 ومرة أخرى عام 1966.

هؤلاء هم نضر الاعضاء الذين شهروا سيرهم برجة راسيون عام 1961 ولم يتناولوا لحظة واحدة في فضاله. هنا طلب رودزيانكو مقابلة التزار وقد تأتى له ذلك في العاشر من آذار عام 1962. وكان يعلم جيداً أنه كمن يعمل في يده باروداً سيأى بأن القيصر قد يهر متولين والأسقف أتولي حين أرادوا الحديث اليه مع راسيون. لكنه يدرك في ذاته قوة الشكينة وأراد أن يفرض الاجتماع مع القيصر بقوة شخصيته. كما قرر اللجوء الى تكتيك معين فجعل أن طرح موضوع راسيون، فأكمل الحديث مبرهاً: «لعل سأقال تعرف صاحب الجلالة أن يستمع لي حتى أكمل حديثي؟» كان كان الجواب غير ذلك فلكم بكلمة واحدة وسألته (لمست بعد ما)، فتم التزار بعزوت خافتة ورها كان يفكر حينها في رد فعل زوجته اذا سمعت بأمر هذه المقابلة وقال: «تكلم». استهل رودزيانكو حديثه بذكر انتمائه السابقة مع راسيون وعرض على التزار تقديم اداة مؤلفة تؤكد ان راسيون قد اتفهر منزله لدى التزار باقواء واغضب كل فتاة يقع عليها. بعد كان هل رودزيانكو أن يعلم أن القيصر قد استظم ملقا تقريراً شخصياً من متولين حول هذا الموضوع ولم يكلف نفسه حتى عناء قراءته. ومع هذا أثر القيصر أن يدفعه يحفي في حديثه لعله يجد وسيلة لانهاء المناقشة، فطلب منه أن يواصل القول فيما غمرت النوبة لب رودزيانكو.

لم يفلح رودزيانكو أن يتحسن مشاعره الخائب في القيصر تجاه زوجته الحصة راسيون. ذ (الكساندرا) هي لا غيرها في الكون من سلبت لب بقولا بعد أن كان في أمس الحاجة لتي يبه فقهه العمياء ومن يجد فيه مكافأة لأشراق.

وكيف لم أن يفعل الأشياء دون علمها... فهو كمن سبي في القلب حائراً بينها. وعليه قرر أن يقول رودزيانكو صلاحية التحقيق في سجل راسيون على أن يعلم زوجته بالأمر والتي قلبها غضبها سياً وقد اكتشفت أن رودزيانكو قد حث داماسكي (نصير راسيون في المجمع الكني) أن يسلمه تقرير اوكيانوف القديم، التي يجب ان راسيون تلك غضباً في الخليستية. وعلى امرت داماسكي أن يستعيد لها التقرير فأسرع والخوف يملأ جوانحه لوقفة رودزيانكو واعتز أن شخصاً رجع المقام يريد التقرير. فسأله رودزيانكو قائلاً: «لعل هو سائلاً؟» وهو رئيس داماسكي فاجابه داماسكي: «كلا، انها التزارينا اليكساندرا فييدورنا، ثم اتعدت فرأى داماسكي حين صرخ رودزيانكو في وجهه قائلاً: «لعل لك أن تخطط سعادتها علياً أنها تكلم لنا- من رعايا القيصر وعلياً طاعتها سناً. وانني لا أرى في موقعي حيزاً أن الي رعاياها».

لم يجد رودزيانكو بداً غير اغضب التزارينا. وبعد أن اكمل وثائق انهام راسيون، طلب مقابلة التزار مرة ثانية والذي لم يشأ مقابلة وظلوا اليه له بحسب تقريره في الأمر قاطفوك ملقا يعني ذلك القول. لقد انتصر راسيون في جولة أخرى. وفي سترة غضب غلب رودزيانكو لمقابلة كوكوفستيف مستجداً بأن فعل وأبى به. ولكن أثر لها أن بفعل شيئاً لقد سبق السيف المعاد والغلبة لمن أمركها.

انتم كوكوفستيف الدنيا واقعدما لعله يسلك بنامية الغور. ولكن يفد ما فعله حياء مشورا فقد اخبره التزار لا شيء غير أن يدفع لمقابلة راسيون نفسه. اجل كوكوفستيف هذه النصيحة على عمل الجدد وتعب للمقابلة «التزارينا». وعنا يندو وضيفه للمقابلة كثيراً من وصف متولين. فقد تطلع

راسبيوتين إلى الرجل محاولاً تزويجه مغناطيسياً - أو هكذا ظن كوكروفتشيف. ثم قال راسبيوتين متأثراً بالتهاس كوكروفتشيف: «حسن، سأرجل». ثم شرع في سره ملاحظات أثبتت تارة أخرى نفاذ صبره ورويته الواضحة للمستقبل. تحدث كوكروفتشيف عن وضع الغذاء وتبصره بالاهتمام بخطوط السكنك الحديدية (لقد ردد هذه النصيحة تكراراً). وتساءل السير «رنارد بيرس» إن كان هذا الاهتمام ناجم عن عفا سياسي معين أم أنه تعاض المام، فالذي أطاح بقولا عن صرخته هو الحصار المفروض على التجهيزات الغذائية المشفوة عبر السكنك الحديدية.

وقع كوكروفتشيف لهذا التصبر - إن كان نصراً - أقل إنداءً. وقد ولّاه القيصر سكنجه وما يرج يجهل حقيقة الأمور في ظواهرها وبواطنها وتلى ما يدرك منها إذ القيصر يبحث له عن بدائل عنه.

لقد عاش زويفيانكو غبطة التصبر وتذوق أكثر لحظة منها حين طرقت مسامحة حكائية شاعت بعد أسابيع قليلة في كل صوب من بطرسبورغ وحدها. جاء في الحكاية أن العائلة الإمبراطورية قصبت (لبغايا) لقضاء عطلتها الصيفية هناك وحشت أنا فيرودوف راسبيوتين على تكسب الفطار ذاته الذي يفل العائلة الإمبراطورية. ومما إن سمع القيصر بذلك حتى هاج شيطانه فقد عكر صفوه ذلك العلاج اللطيف وسوء الاتهامات التي ما فشت تدور دائرها وأمر لذلك سيرة الفطار واتراك راسبيوتين في محطة تدعى «نيسنو» تقع بين بطرسبورغ وموسكو وتركه معه شرطياً يتأكد أنه عاد أدراجه إلى بركروفتشيف.

كما عالجته أهله راسبيوتين نصراً ثم وإن غر فيه كوكروفتشيف

ودويفيانكو حفسونتها لدى القيصر لكن حقيقة الأبناء التالية جاءهم والذي أجهض معوزياتهم العالية. فقد تعرض التزارفينش لحادثة أخرى وهو يقف من الزورق وقد يش الأطنباء من انقضاء حيواته. فاستلث التزاروينا للتو برافية لراسبيوتين (والتي سبق أن تحدثنا عنها في الفصل الخامس) وقد جاءها الرد أن ابنها سوف يعيش. وإن القيصر قد عفى أصابع الندم للمشاة التي عامل بها راسبيوتين. فالرجل ليس الا قديساً وصانع معجزات وإن أمضت تصرفاته من تحيل القيصر. ويحلون أواخر عام ١٩١٢، أرضى راسبيوتين دعائهم للعودة في البلاط أمثي أناساً من سواها في الماضي.

وحول تلك الفترة كتب رئيس الشرطة لرويفيانكو قائلاً: «لقد خدمت دوماً به لكلياً لزل من الفطار ذهب على الفطور للمحامات منصفطحياً منعه شيدتين». هو رجل لم يقبضه الاجتهاد ولم يكمل له نساخه وما خاد عقله يزعم المكائد السياسية ومحاولات الاغتيال التي تعرض لها عن الموضوع الأقرب إليه دوماً. . . . الجنس.

الفصل الثامن

عاصفة في الأفق

توى ماذا دعا راسبيوتين؟ فقراءة تلك الحقبة وسيدرك فيها القراء على اختلاف مشاربهم ان راسبيوتين كانا جالسا على برميل من البارود.

ان من الصعب التخلص من الاستساج ان تتصوروا ببطء أخذ يطلق آنذاك. لقد أحاط الأعداء راسبيوتين من كل جانب وصوب - وجميعهم كثر عن أنباه - ولم يتعالب الأمر بشأنا نفذت بضعة ليديك أنه هدف للاقتيال اليوم وليس غداً. بيد ان هذا الرجل الذي ملك قوة جعلته مسافراً للديار ورجلاً يقووم الانسحاق هذا غير قادر ان يخاف هذا الجرم الموثوق. وما لا يخبر عليه ان الحرس كان أحد أسباب بقاءه. وتغير شاعداً لنا في ذلك تقاضير الشرطة آنذاك الملية بعبارات مثل «انقضت» (ماتوا بطل) وهي زوجة تقليب في القنوج المتنافسين «الأربعين ليلة السابع عشر من كانون الثاني في منزل «راسبيوتين» و«انقضت المعتلة» «انقضت» في منزل راسبيوتين ليلة الخامس والعشرين من تشرين الأول». وفعاد اسبوتين لن يراه في سيارة مع العانية كمرحوبوها وهو غمور ثم قبل العانة وممر يله على خديها» و«غداً راسبيوتين وزوجة (بورجيس) لازينسكي» (البالغة من العمر ثمانية وعشرين عاماً) في سيارة، وهما في حالة سكر شديدة ثم توجهتا الى شقة السيدة لازينسكي حيث أمضيا الليل هناك وحتى ظهيرة اليوم التالي».

وفالبأ ما أشارت التقارير أن راسبوتين «سكير مرتع» برغم أنه إذا ما دعي للقصر الامبراطوري ثلاثت منه حالة السكر وإن كان في أشدها.

بيد أن هذا النمط من حياة الممارسة الجنسية اللاشرعية وتعاطي الخمر لا تكشف عن سر بقاء راسبوتين في بطرسبورغ بل أنها تصفي على المشكلة بعداً آخر هو: لماذا ارتأى راسبوتين لنفسه هذا النمط من العيش؟.

لم يجد من أراد أن يحط من شأنه - وهم جميع من كتب عنه - معضلة في ادراك عايشه: فراسبوتين لم يكن سوى فلاحاً عاقراً للخمر أمسك بالعروة الامبراطورية عبر الخديعة والخداع ومضى يتقي الأفضل من الأشياء. غير أن هذا الرأي قاصر لا يتناسب الحقائق والوقائع، فما كان راسبوتين يفدس وإنما رجل مرموق. بل هو أكثر من اشتهر الأنظار في روسيا آنذاك بجانبه غابوجيف. وكونه روسياً، تجلت فيه النزعة الشرقية لنذ العالم في داخله. وهو - كالعرب الذين وصفهم لورنس - لم يكن زاهداً، ومع هذا تجسد فيه الحب للرياح العاتية الهابة في فيافي الصحراء المترامية الأطراف، وللسهول الممتدة على مرمى البصر وغير من يفسح بهذا الحب للحرية وصفه للبحر أو للسماء في الدجى في يومياته. لقد كان راسبوتين حراً قبل ثقافته النحصر وكان له الأنباغ والمعجبين لكنه لم يشعر بالإنهاء اليهم فظل جوالاً دائماً. اضحى راسبوتين بعد ذلك سجيناً في جر تبخرت عنه رائحة التآمر والخطر والإهانات. لقد أورد جواسيس الشرطة تقريراً جاء فيه: «شاهد راسبوتين هارباً من منزل شخص يدعى بيلكوفسكي يتبعه رجلان، ثم قفز الى حربة مارة وظل واقفا طوال الطريق» «ليني» للتأكد ان كان أحد يتبعه. وهذا مثال ذكر لا حصر من المؤامرات ومحاولات الإغتيال ضده. ويذكر جواسيس الشرطة أيضاً أن ضابطاً في الجيش

هاجمه في محطة القطار وفي مرة أخرى حاول جواسيس الشرطة عبدة اثنين من الأرواح المباحين وقفا أمام باب داره بينما هربت زوجته معها من السلم الخلفي للمنزل. لقد امتحنت حياته الى كوميديا بطيئة لم تخلو قط من احتياطات الخطر. وهنا تساؤل: لم مكث راسبوتين في قلب الريح العاتية وهو يستطيع أن يسابق الريح صوب فلسطين لعام أو أقل حتى هذا العاصفة؟ أليكون حبه العام قد أنبأه دون نفاذ بصيرته أن أملاً له في الحياة بات بصيصاً؟.

ثمة جواب مقبول واحد لهذا التساؤل هو أنه أثرك مؤقتاً أن اختفاه يعني تداعي العرش وهذا احتمال لا يبدو بعيداً كما قد يظنه القاريء أول وهلة. لقد حاصرت المنية القيصرية كما تشير لذلك مذكرات تلك الحفوية التي تنبأ فيها الرومانوفيون بكارثة أكتوبر عام ١٩١٧. فنياً تناقلت روسيا بأكملها نبوءة راسبوتين للقصر عام ١٩١٢: «سيظل العرش آمناً ما دمت حياً وإن والخني المنية فانك لفاسده وحياتك». لقد ظل راسبوتين في بطرسبورغ لأنه امتشعر الكارثة القادمة وآمن أنه من يستطيع تضادي وقوعها وهو إيمان له ما يبرره. فقد أشاح حرباً في عام ١٩٠٩ وتوقى أخرى عندما احتد لوتر بين بلغاريا وصربيا وتركيا والنمسا وكاد أن يتفجر الى حرب لولا نفوذ راسبوتين (كما اعترف بذلك بيرس أيضاً). وقد وجدت وجهة نظر راسبوتين ما ركازها عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وأفضت مباشرة الى حدوث ثورة. وربما تحمل فكرة أن راسبوتين أكثر من يلام على ثورة ١٩١٧ بعضاً من الصحة بيد أن ما هو مؤكد أن تدخله قد حال دون اندلاعها مبكراً.

الا أن مدى النجاسة او سلبية النظرة حيال هذا الأمر إنما يعتمد على نظرة الفرد الذاتية لا سواها. إذ يرى بعض المعنيين بدراسة الشؤون السوفياتية أن

معظم ما حدثت من تغييرات في روسيا سببا في خلق الصناعات كانت نتيجة
عمل أية حال. فمن الناحية السياسية، كان الأمر مجرد قضية وقت فحسب حتى
تصبح روسيا نفسها نظاماً دستورياً، ومن جهة أخرى نتجت من الصعب قراءة
الروح الروسية من دون الإحساس أن روسيا كان لها أثر في نظام جديد يغزل
حروبها ويعد لها أغنية وأن «الدولة لم تكن هي الأخرى إلا امتداداً جديداً»
بل أصبح هذا الأمر مجرد التاريخ الأمر جمعاً عليه أن يصنع عن راسبتين
فقد كان لهذه السامي موقفاً يرمي طاماً أنه شجع قيصراً خائراً لا شيء إلا لأنه
كان يعلم بالعقصة. أن أحسن ما يقال الصالح ملكية راسبتين هو أنها كانت
ملكية عقلية نات بنفسها عن ثقافة مترقي القصر وهو لم يكن رجلاً بل
فلاحاً عاشد الفلاح وساند الأقليات وهو كاليهود والفنلنديين لم يدخر وسعاً
في يبلغ ما يشتهه من امتيازات. وعرفه عن المظفرين الثوريين من الخناز
البروني لا لأنهم أرادوا التغيير بل لأنهم أثروا السيف المادية فيفة الأثر.
وعليه فإن الصورة التي رسمها دوستوفسكي في روايته «الشياطين» ليست
صحيحة أو مبالغ فيها بأي شكل من الأشكال. فقد كانت المادية لعظم الثوار
مفيدة صوفية لا لذلك أية أرضية مشتركة مع الخس العام أو مع وجهة النظر
الاشتراكية العميقة للشرق العقلانية مثل دوجوروني «المولودين» الشأن
الغالب للإحسان وتغيب أمام العائلة وتعتبر «الروح» و «الإرادة الحرة» شيئين
مجهين وهما وليدان للعمليات الاحيائية والكيميائية. لذلك فاد رجلا مثل
راسبتين - المؤمن بقواه الإعجازية ونفاذ بصيرته - لن يجد في ذاته أي تقارب مع
هذه الأفكار.

«غول (المولودين) أن الشيء الضروري الوحيد للمعززة هو حب الرجل التابع»

وعليه وقف راسبتين، شاء ذلك أم أبى، ضد كل حزب متطد في روسيا
وفككتا مقبلة البلاشفة لأنهم وجدوه دجالاً متصوفاً، ولفره الأحرار لأنهم أنه
شجع ثورة الثوار نهضة المطلق، وعاداه المحافظون لأنه شجع الثوار بما حل
الإعتدال في السياسة. وقد وصفها شتبهها في حديث له مع وزير الخارجية سنة
١٩١٢ بأنها «خطرة» وقال: «إن الثوار ملاك وقديس لكنه لا يعرف كيف يتعامل
معها»

وفي تخضم هذه الظروف، أمتنى جلياً تفهم أسباب انحدار راسبتين. إذ
يرى الرجال جميعهم وحتى أنظم أنفسهم عبارة في عيون أتباعهم وسيكون من
الشبحيل إلا يصيب ملك الانحراف قسطاً وأنت تشفق ثائرة الحقد والخصومة
من جوليك. ففي عام ١٩٠٥ لم يكن راسبتين لنفسه أثر عدو في كل أوجه
للمعززة بل أن العالم تطلع إليه فيوجد رجلاً متروكاً. انهم رجال أمثال جون
من الكروستشات والفيلسوف غورموج وألاف الناس العائدين الذين اتصل بهم
والذين وجدوه دون عناء قديساً، ويخلون عام ١٩١٢ بنات أبغض من أنجته
روسيا، وحتى أثابه من الفلاحين ما ألق لهم أن يقرض حديث نعمة من
جنتهم وأنه على الثوار والشرائنا. شرع بعدها يلوح برأية حاجته للمعززة فلما
استدبت قلوب القوم عليه تفجير عليهم غضباً وأزدراء. وهنا كتب يرسم قائلا:
«تخرج في عذبات راسبتين مع الآخرين طرقة من الاحتظار لأظم ذوي شأن
على وجه البسيطة». وهؤلاء (ذوو الشأن العظيم على وجه البسيطة) قد تمسكوا
له نوايا سوداء لا مجرد الاحتظار.

انتقل راسبتين مرة في عام ١٩١٢ إلى سكن جديد وسكن في ٦٤
كرودخوفي في شقة من خمس غرف تقع في الطابق الثالث ذات سلم خلفي

يمكن الوصول إليه عبر قناة. وأما المظلة التي حلّ فيها فكانت أشبه بحي
للشعراء وغالباً ما كان الفناء مليئاً بالفصيل المشور وتفرج من البيت رائحة
العطير.

تضاربت بعض الآراء حول عناوين سكن راسبوتين قبل انتقاله
لـ «كوروشوفي». ويذكر فولوب ميلر ثلاث عناوين أولها: شقة تقع في ضاحية
(نيغسكي) استأجرها من امرأة غنية تدعى (باشاكرفا)، وثانيهما في (كبروشيا)
وثالثهما في الضاحية الإنجليزية. وحيث أن أول إقامة له في بطرسبورغ- وكما
نعلم- كانت مع الصحفي سازونوف لذا يكون قد سكن على الأقل في أربعة
مساكن في العاصمة. ورغم ذلك يذكر رودزيانكو أن راسبوتين ظل معها مع
سازونوف حتى أواخر عام ١٩١١، وما شقة نيفسكي والأرملة التي استأجر منها
إلا بدعة من بنات يدع الصحفي جبارس أوميسا. ولأن الفتاتين قد مكثتا مع
أيهما في « ٦٤ كوروشوفي » فإن القصص المريبة التي رواها فولوب ميلر عن
مغامراته الجنسية وممارساته لطقوس العريضة ليست إلا مبالغة من جانب
الكاتب.

أخضعت الشرطة يعاونها جنوايسها الثقة الجديدة لرعاية مستمرة. بيد
أن معظم ما جاء في سجلات الشرطة لتلك الفترة لم يكن سوى تلغظ كلام لا
يملك من القبة غير شيء من بعض. لقد تلقى راسبوتين الهدايا كل يوم وكانت
عبارة عن صناديق من الماديرا وورث من الكافيار والجبن وسلال سمك وحتى
قطع اثاث وسجاد. وقد اسهم التزاور في فتح مكتب له استقبل فيه زواره الذين

(١) الماديرا: نبيذ أيضا شديد الاسكار يصنع في غرب المغرب شمال الاطلسي.

قدموه أقواجاً طالين شفاعته فما رد لهم طلباً وتدخل مباشرة مع القيصر أو
التزاورين لأدراكه أنها لا يمرضان عن التماس. وذات مرة أنجبره القيصر: «نحن
سعداء لرؤيتك يومياً، أما وقد أنجزنا لك ما أنجزناه، فإنا لا نرغب منك بعد
اليوم مزيداً من الملتصين». وغالباً ما خرجت منه جميلات النساء واضيات سيما
اولئك السلواتي أيدبن له سطوته عليهن. وأما قصص عداوته اغتصاب كل
التوسلات الجسديات فأغلبها مشروح بقصد الإساءة اليه ولنا في تقارير الشرطة
خير شاهد، فهي أوردت أن أغلبهن يقين معه لعشر دقائق لا أكثر وكل ما في
الأمر أنه أحب أن يشتم نفوذه دائماً. ويروي رودزيانكو قصة غريبة تبرهن أن
معظم اللوم يقع الى النساء أنفسهن في ترويع القول والفتيل وهي: «أرادت
امرأة تسكن الضواحي أن تحصل لزوجها على ترقية فذهبت للقاء راسبوتين الذي
تحدث معها بأدب وأخبرها أنه سيضع الأمر نصب عينيه ويطلب منها زيارته في
اليوم التالي في ثوب قصير بلا أكمام- ربما لأنه وجد فستانها غير مناسب لدوره.
فغفلت المرأة ادراجها خالية الظن وقررت ألا تعود اليه. لكن توقفاً شديداً
اعتراها وهي في طريق عودتها لمنزلها ومنذكرة عيني راسبوتين لتتفرقها حتى
العشق. وفي اليوم التالي حصلت على ثوب قصير وعرضت نفسها على
راسبوتين. غير أن اغتصاباً لم يحدث ورغم أن زوجها حصل على الترقية.

أراد رودزيانكو من القصة الإشارة الى قدرة راسبوتين على الترويم
الغناطيسي بيد أن القصة لا تشير لغير هستيرية المرأة المعنية. لقد كان لديها مع
النساء في سلوكه، ماضياً- كما يتجلى مكلدا- الى امتصاص (جفجفتن) وكثير
من تقارير الشرطة تؤكد ذلك مثل: «طلب راسبوتين منها تقبيله لكنها أبى ذلك
وقادت المسكان...»، «أرادت زوجة العقيد (سازونوف) راسبوتين وأخبرته

لم يعترض راسبيوتين على الزجود المستمر لجواميس الشرطة فهم يمنحونه بعضاً من الأمان، بل أنه عقد صداقات مع بعضهم ودعاهم لرافته للكنيسة أو الحفامات (ظل راسبيوتين مواظباً على الذهاب للكنيسة وحضور صلاة الغداس). وهو يعلم جيداً أن هؤلاء الجواميس يمنحون بواب العمارة راتباً أسبوعياً زهيداً لتلجس عليه. وكان يضاجع أحياناً الخيالة التي تكن تحت بطاقتين أو مع الدائكة التي تغلفن الشقة التي فوق شقته وهو يفقه أنهن من صيون الشرطة عليه. وهو لم يشعر باستعاض من التجسس عليه فهو جزء من النظام البيروقراطي وجزء من الشعب في الرتبة الرومية. فالشرطة لم تتجسس على نشاطات راسبيوتين فحسب بل تحمونه للتجسس على التزارياء فهي إذا ما خرجت في عزه راقبت الشرطة خطواتها شيراً بشير وإذا ما توقفت للتحدث مع أحد معارفها أوقفت الشرطة من تحدثت إليه حال مغادرتها وسألته: «هلا أخبرتنا الذي دار بينك وبين التزارينا بالحرف والكلمة؟» فلا غرابة أن تبغض العائلة الإمبراطورية الشرطة.

ظل راسبيوتين يزور القيصر يومياً دون الحاجة لدعونه رسمياً. وعادة ما أضافه القيصر وزوجته فيا من شيء يعكس صفو حياتها العائلية. وقد تعود راسبيوتين دخول القصر من بوابته الخلفية- فيما استعد الزوجان لاستقباله في جناحها الخاص- ثم يشرع بالحديث إليها بلطف وتكياسة فيبلغ القيصر على كتفه مازحاً ويضع في أحيان أخرى يده حول التزارينا مقلداً لهاها بحرارة. وغالباً ما يروي قصصاً عن ميديا إذا ما حضر اليكسي واستمتعت الفتيات بلقاءات متفرقة معه يمزح فيها معهن عن اهتمامهن ببعض الضباط في رتبة

المخبرين بعدها أن «التزارينا» قد عانت صيبة أمامها وقد وجدت في الحادثة غزياً فقررت عدم زيارة راسبيوتين للأبد. وأخبرت امرأة جاءت في طلب لراسبيوتين بواب العمارة: «طلب مني راسبيوتين أن أطلع معظي دون أكثرات منه لتوسلاتي وظل يتحسس وجهي وصدري وطلب مني تقبيله ثم كتب ملاحظة لم أطلع عليها وأخبرني يكذبني وطلب مني الحضور في اليوم التالي». ويتضح من ذلك كله أن معظم زائرات راسبيوتين كن قليلات الاحتشام وربما أشارت أخراجهن إلى تناول راسبيوتين قداماً من الخمر في غذائه لكنها لم تشر إليه بدشيطان يحاول تعرية كل امرأة متوسلة.

ليست للملاحظات راسبيوتين قيمة كبرى فهي موزجة في أغلبها لب منطقي هو أن صعوبة راسبيوتين في الكتابة ما زالت كبيرة. وقد سخر أحد القصة أمام الجواميس من كتابة راسبيوتين الخرفاء. وتعمل تلك الملاحظات عبارات مثل: «صديقي العزيز، أفعّل ما يوسعك لحامل الرسالة. كريكوري» وكان يرسلها لقليل من أصدقائه أو معجبيه أمثال سترومر أو الأسقف بارنالي اللذين له عندهما مكانة.

وغالباً ما أرسلت التزارينا آنا فيرويوف حاملة عباؤها لراسبيوتين. وقد أوردت آنا في مذكراتها أن كثرة الرسائل قد أزعجتها كثيراً والتي تظفر فيها لصعوبة السلام وشق طريقها بين الخشود المزدحمة من المتوسلين. وتذكر أن طالبا فقيراً ترجأها أن يحصل على معطف فأرسلت له واحداً. وهذا قول يحمل في طياته حقيقة أن معظم المتوسلين على باب راسبيوتين من الفقراء العاديين أما الرجال الأكثر ثروة -الذين طلبوا مرعداً مع التزار أو مساعدة في الأمور المادية- فقد بلغوه عبر (ميلوكوف) أو (ميلافوفش) اللذين تعاملوا مع من يبحث

الشوار. وما زال يلعب دورا ولو قليلا في تعيين الوزراء لادراكه ان اغلب من يحتل المناصب الرسمية يضر له العداء.

أقلت مضاجع القيصر في أواخر عام ١٩١٢ ويواكير عام ١٩١٣ كثير من الأمور. فقد انتهت فترة حكم الدوما الثالثة في نهاية عام ١ٹ١٢ وتشكلت «الدوما» الرابعة برئاسة رودزيانكو. بيد أن القيصر - برغم رضاه ظاهريا بوجود الدوما - ما زال يطمح أن يقروض سلطانها، ماشيا بتشجيع راسبوتين اليه في نزاعه هذه. وقد تفاقت الثقة الشخصية في أواخر عام ١٩١٢ بعد حادثة ساحة (لينا كولد) عندما فتحت الشرطة النيران على المتظاهرين المنزل. فأرسل أحد قادة الحركة العمالية البارزين ويدعى (اليكسندر كيرينسكي) للتحقيق في الحادثة واكتشف أن الذي أمر الشرطة بإطلاق النار كان سكرانا ومعتوها. ومرة أخرى وجدت الحكومة نفسها أمام هجوم الدوما عليها وريبا ثمن نيفولا عودة حوالي الأيام حين لم تكن هذه المذابح الصغيرة شيئا يعتد به. ونوزعت المظاهرات وأعمال الشعب في عموم روسيا وبلغ عدد المتظاهرين من العمال في عام ١٩١٣ حوالي ثلاثة أرباع المليون وتضاعف العدد في السنة التالية واستفاد اليساريون من هذا الوضع. وبرغم أن الإغشيلات لم تصل العدد الذي بلغت في الفترة ما بين ١٩٠٥ و ١٩٠٧ عندما اغتيل ما يربو على أربعة آلاف شخص. فإن الشوار قد أصبحوا مهرة في السطر على المصارف وسرقة قطارات البريد لتحويل قضيتهم. وفي تلكم الأثناء عمت الاضطرابات دول البلقان وداهبت فكرة اغتيال الأرشيدوق (فيردناند) وريث عرش النمسا مختلف الجماعات الصربية السرية أمثال جماعة (نارادونا وبرانا) وجماعة (الكف الأسود). وعليه كانت روسيا جالسة على فوهة بركان دون أن تعلم ذلك.

لم يحرك القيصر ساكنا لتحسين الوضع الروسي. وقد احتفل بالذكرى المئوية لإندحار نابليون في ايلول من عام ١٩١٢ وجرت مراسم احتفال كبيرة وافقتها تظاهرات وطنية. وشهد عام ١٩١٣ أعظم احتفال بمناسبة الذكرى الثلاثمائة لحكم آل رومانوف. وسافر الشوار والشرازيشا لرؤية أول منزل للرومانوفيين على غير الفولغا وأسطحيا راسبوتين معها يد أن هذا السلوك كان لاعقلانيا فرعان ما تلاه تصادم علني بين راسبوتين وروديانكو قضح شعور القيص والإزدراء لدى رودزيانكو لراسبوتين. كان رودزيانكو موطئا روسيا نموذجيا فخورا بعرفه وغيورا على سلطته. وقد سمع أن «الدوما» أعطيت مقاعد خلفية في احتفاليات كاتدرائية كازان بمناسبة الذكرى المئوية لمطالب لجلسه بمقاعد الفصل فال ما طلب، ووضع من أتباعه من يراقب تلك المقاعد. وبينما كان رودزيانكو ينتظر خارج الكاتدرائية جاءه رقيب وأخبره أن فلاحا جلس على أحد المقاعد ورفض أن يتحرك عنه. وأضاف أن هذا الفلاح هو راسبوتين الذي ألقى عبادة روسية رائعة من الحرير القرمزي وجزمة جلدية حتميزة وبظلونا اسودا ومعطفا ثرويا وارندي صليا تتدليا من سلسلة ذهبية. انشغض رودزيانكو وذهب حيث جلس راسبوتين وجأر فيه: «إذا ما غاطبتي (كما أنت) لأسكت بلحيثك وقذفت بك خارج الكاتدرائية. ثم امره بالخروج من الكاتدرائية برغم أن راسبوتين قد أراه بطلاقة دعوة من التزار شخصيا. ركع راسبوتين على ركبتيه وبدأ بالصلاة فصره رودزيانكو بقدمه صارتا فيه: «كف عن هذه الرقاعات». فتأوه راسبوتين وقسم «الهي اغفر له خطايا» ثم نادى المكان.

لا يلوح هذا الحادث جديرا بالتصديق لشخص كروديانكو. فهو ملك

من الحق في دخول الكاتدرائية مثل ما ملك راسبوتين، ومن الواضح - كما جاء في الكتاب رودزيانكو - أنه أراد التبرع من هذه المواجهة باهتماماً نصراً عظيماً ضد راسبوتين، وذكر حق في «الدوما» لاحقاً أنه أخبر رودزيانكو أن راسبوتين قد حذره بقصة تصادمها وأصابه: «أقول لك الحق، لقد كنت دائم الاعتقاد أن ما أخبرني به عن قصة طردك إياه من الكنيسة كان مجرد تهاويل، وتلك دلالة أن رودزيانكو كان من أهل الكذب والتجسس».

بيد أن التواريخ في عام ١٩١٣ عاباً آخرى من الصراع والثورات، وبدأ أن يقولوا كان أحمر من أن يعلم برغم حالة الاضطراب العائلي، وعاد يداعب أحلام البنظة فيه وبثها السلطة المطلقة، وقد فضحه وزير الداخلية الجديد المسى (ماتلاكوف) باللعب إلى الدوما والفاء خطبة حماسية ثم يأمر بخلها أو يفرقها في أقل تقدير، بيد أن مجلس وزرائه - ولحسن حظه - عارضوا الفكرة برغم كبرهم للدوما بعد أن وجد فيها الأعضاء قديلاً لثورة عارمة.

في تلك الفترة تحديداً أطلق الاسم المحجوس ستورومر إلى الوجود، وهو قد ركن نفسه لدى يقولوا قبل عدة سنين عندما كان الأخير في مشكلة مع (المرموس) أي جماعات الأباطي، فقد قدمت جمعة منها في منطقة «أفيرة» لغة الشرار أثر عائلاً مستشفيات واعطائها إرشادات في الرواية للفلاحين، حيثما استأمد ستورومر الذي كان مجرد موظف خفي وعاجم الجمعية وأقال اعتقادها واستباحهم يرجعين عابداً إلا يحركوا ساكناً، بعدها نجح ستورومر، الذي وصفه بيرس بـ: «رجل سطحي غيروت منه الزخافة ونزع من نفسه الشجاعة»، في التعرف على راسبوتين بواسطة (ماتيلوف) وأغرقه بالمدح والإطراء، اقترح نيقولا نيقول ستورومر محافظاً لموسكو وأبد الاقتراحه مجلس الوزراء، بيد أن

(كوكوفستيف) الذي عهد به غم حجة عورده - يواظن الأدلاء من المتزلفين بمحور لحة بضرة عارض الاقتراح لميل الشرار موقفه على مضض ووضع نصب عينيه فكرة التخلص من كوكوفستيف في أول طوعة مناسبة، أن تعط قيادة يقولوا للحكومة لينزع الإنطباع أنه يتوق في لادوية الانتحار.

نكمن المشكلة أن راسبوتين قد فشل في الحكم على شخصية المرء لا لأنه فقد ملكة البصيرة وإنما لأنه انظر إلى الرغبة في ذلك، فإذا ما نجح شخص مثل ستورومر غناء حتى يغفل إلى أنيساً، صدقه راسبوتين وحال في سعادته أمراً مقضيئاً، وهو قد جرد ذاته من الغاية الدنيوية فأمن بالملك ثروة زائلة وأيقن في نفسه القوة التي يريد فأخذ لذلك الناس على مسألتهم، وقية مسحة سلافة فبعت لشبعها وعياً، فبينا تدهورت الشؤون الروسية اليوم أمراً من الباطنة، ظل راسبوتين ينصح الشرار باستخدام نفسه مستغلاً تأثيره لصالح رجال، مثل ستورومر، فيما وقف - لأنه مقت رجلاً شريفاً مثل رودزيانكو - معارضاً المدعوم فأزاد الظن بـ: «ويع اطلالة عام ١٩١٣، تلبدت السماء بعقومات الشتاء حتى حل عام ١٩١٤ قتل القيت».

لرجي: كوكوفستيف بقضله من منصب فجاء في شباط ذلك العام، إذ دخل في نقاش مع النيجر انتهى أن أعلن القيص كعادته: «أنت الصائب وأنا الخطيء» ثم غم كوكوفستيف لفتده، لقد غلط الجميع في أمر هذا الرجل المحتاج فما انظر في يومه على رأي وما عرفوا له متقدلاً لأرضائه.

عطف كوكوفستيف في منصبه السابق (كوريكين) الذي سبق أن تولى لعمته قليلة من منصب رئيس الوزراء بعد طرد (توت) الذي ارتفع ورأسواين

بصدقة لم تعبد له منصبه وظل هكذا حتى وارى التراب بعد عام من فصله.

ما فتأ القصر يسمى لعل «الدوماء» وظل معه مجلس وزرائه مناهضاً لهذا المسمى فيما أنجب من كرهه راسيوتين فكرة اغتياله لا محالة. وكان (يوسيف) يكمل آنذاك دراسته في ألمانيا. وأما القس اليهودي فما برح يغلي حقداً وسلواه الإشتاق من راسيوتين.

وفي يوم من الأيام، اجابت ماريا راسيوتين على الهاتف الذي رن في منزل أبيها في كورودوخوفوي. كان المتكلم رجلاً غريباً أخبرها أنه رآها في الشارع فسلبت منه في لحظة بصر ليه. لم تكن ماريا بنت الست عشرة ربيعاً آية في الجمال. غير أنها ملكت قماً كبيراً وعينين نابضتين بأخيلة وقوام جميل. وورثت موهبة أبيها في الرفص. وكانت من السليحة أن أمت معها بفكرة حب رجل غريب لها وقررت عدم ابلاغ والدها بالأمر. ظل الغريب يطرق في مسامعها فكرة الحب أن وصف لها جملاتها تفصيلياً صاعداً تصدق أنها كانت مراقبة عن كتب ودون أن يفصح عن اسمه أو شخصيته.

فرد راسيوتين في بداية حزيران من عام ١٩١٤ الذهاب لبوكروفسكو وإضفاء فصل الصيف فيها فيما ذهب الثوار وعائلته كعادتهم لمنطقة ليفاديا فكان هاء المرأة صائبة في قراره. وحقيقة الأمر أنه قرر السفر لأن فكرة اغتياله ظلت تفتق مضجعه فما أغمض له جفن، فبدأ رحلة العودة إلى الديار والتي استغرقت خمسة أيام في القطار ثم يومين آخرين في المركب من نوبولسك. وفي الطريق تحدثت ماريا إلى شاب يهودي من بطرسبورغ أخبرها أنه هو الغريب الذي حدثتها هاتفاً. ثم تعرفا جيداً على ظهر المركب وقد وجدته لطيفاً حاضراً الطرفة

وصديقاً يقض به أكن عيشه شكله. فقد كان قصير القامة أسود الشعر يهودي الطفل. لقد أعيا الشاب ماريا في أمره. إذ أخبرها حين وصلوا بوكروفسكو أنه ساكت في القرية. يا لدهاء هذا الشاب، كيف بلغ دواخل صبية في السادس عشرة من عمرها.

وصل الجميع بوكروفسكو يوم السبت الموافق السابع والعشرين من حزيران عام ١٩١٤. وفي الساعة الثانية والرابع من ظهيرة يوم الأحد قدم ساعي البريد معه بريقة لراسيوتين الذي قرأها بسرعة وخرج منادياً ساعي البريد أن ينتظر ريثما يكتب رداً لها. وبينما كان يجيب على الرسالة اقتربت منه فلاحاً كان قد رآها في نفس اليوم عندما أودت غيابه بعد انتهائه من القداس فتوقف راسيوتين ليعطيها قطعة نقود لكنها سرعان ما تقدمت نحوه لتعطيه بالسكين في معبته فهورول راسيوتين وخفته المرأة ثم فكر أن الهجوم الفضل وسيلة للدفاع فأمسك بقطعة خشب كانت ملقاة على قارعة الطريق وضربها على رأسها ثم عاد لسنزله مشغل الخطل نازحاً دماً وينادي على الخدم بصوته الجهوري. وفي تلكم الأثناء ساعد الجيران محاولة الإغشيان وأمسكوا بالمرأة التي بدأت تستعيد وعيها وسحبوها لمنزل راسيوتين وهي تصرخ: «قد قتلت عدو المسيح». خرجت ماريا ورأت الدلاحين وعلاهم الغضب على وجوههم يسحبون مخلوقه ضعيفة ذات أنف كبير مشوه وهي تمجهد في التخلص من قبضتهم. كان اسمها (كينيا كوسيفنا) وقد وصفها لبيان أنها كانت «امرأة جميلة». حيث رأت ماريا المراسل الصحفي اليهودي المسمى (ديفيدسون) وصرخت في وجهه فانطلق بسرعة ليبرق

(١) يذكر برين تاريخاً للطنين وهو التاسع والعشرين من حزيران بيد أن ماريا تذكر أن التاريخ كان يوم الأحد الموافق ٢٨ حزيران.

الأخبار الجريئة في بطرسبورغ وتلك هي المرة الأخيرة التي شاهدته فيها ماريا.

استمعت كوسيفغا ولاقي راسبوتين أثناء في الإبقاء عليها من الموت فيما دخل هو مستشفى (تومين). لقد كان جرحه بليفاً فقد طغت الطعنة إحشائه لكنه أمر الموت. وعلم في المستشفى أن كوسيفغا إحدى عملاء البلايودور وأنها التفت لها قبل طعنها إياه بالقرص المخلوع في الترويض. ووصف يوس كوسيفغا بـ «صاحبة هتيرة لبين راسبوتين». وهو وصف لا يبدو عادلاً فراسبوتين لم يرها من قبل. ومع ذلك نراه توسط حتى لا نغافك المرأة ميلا وقد علم أنها عذوة وسجنت في خليج. أما دور وفيدلنسون فقد ظل مجهولاً.

وإذا أصاب الخنجر راسبوتين في بوركروفسكو، ثمة ضحية أخرى كانت تنظر رصاصة فتلتها. كان القتال (كافريلو برنسيف) وهو شاب يوسني رفض الإحتلال النمساوي لبوسنيا أما ضحيته فهي الأرشدوق (فرديناند) وريث العرش النمساوي الذي أصاب اختار اليوم الذي يزور فيه ساراييفو لأنه كان يوم (فيلادلفيا) ذكرى الإنكسار الصربي العظيم والذي كان عطلة رسمية. أدرك فرديناند ساعة موته وقال لأعلم إطلاقاً: «أني أرى الرصاصة التي مستتاني في ظمريها إلى». وبعد العاشرة من صباح ذلك اليوم الميت قُتل من صبح على من العربة الدوقية الكثيرة فخرجت العديد من المتفرجين وركبت فرديناند وبوجهه غم. وقد حاول مخطط المصاولة المدعو «سمارينوفيتش» الانتحار بالسيارة ففهم القضاة القصر عليه. ثم حضر الغرافدوق ووجهته مهرجاناً في ذاعة المدينة وهذا المكان بعد نصف ساعة وبينما أوشك أن يبتلعها ميافيا وأجأها مصر. فقال فيرديناند للدوق: «يغامزني شعور أن مزيداً من القنابل موجودة بنجاري». وقد صدق في أحاسنه. فقد كان (كافريلو برنسيف) الطالب الشاب

السلول يعمل قبله ومسدس من علامة براوننج بست. ومصاصات يده أنه أوشك على صيدان فربصة الإحتيال فحبنا اقترت السيارة منه استعد الإطلاق أنكروا استدارت لتدخل شارع قراقرز جوزيف.

إن الشايخ الحديث على كف عفرين حيث مرغ شخص ما وأمر السيارات بالوقوف فبالعريق في حيز التعديل. وعندما تراجعت سيارة الدوق تقدم برنسيف والمطلق رصاصتين أحسن فيها رؤية. إذ أصابت أحدهما الدوق واستقرت الأخرى في جسد الدوق. التي وعدنا القبض على برنسيف.

تقع ساراييفو على بعد خمسين درجة في خطوط الطول من بوركروفسكو وهذا يعني أن الساعة الحادية عشر في ساراييفو هي حوالي الساعة الثانية والربع في بوركروفسكو. وأما تصادف عجيبة أن يشهد التاريخ حادثتين للزعماء في اللحظة ذاتها تقريباً وهي تصادفة تجعل للمرأة ميلا لتلك «بعض التاريخ» لمخوت فيردناند قد جعل الحرب وشيكة الوقوع وجرح راسبوتين جعل وقوعها حتمياً فهو الرجل الوحيد في روسيا القادر على قنابلي وقوعها^(١).

تراءت الأحداث مريعاً وراسبوتين وأقد في المستشفى. فثار الحقد الصربية- النمساوية ظلت تتعفن منذ ١٩٠٨. واليوم قد ساور الشك النمساوي وكانت تحفة- إن صربيا وزاد الإحتيال وريث هوشها وأبسلت الذوا تطلب فيه تنازل كثيرًا يتصحن وجوب سماح صربيا لموظفي النمسا باستجواب موظفي صربيا حول حملة الإحتيال. غير أن صربيا أعزقت عن التنازل فأعلنت

(١) لا أعلم أن أحداً آخر من زواف هذا الكتاب قد أشار لتلك المصادفة

النمسا الحرب. تحيط القيصر ماذا عساه أن يفعل. فصرخ الأمر أنه سيهب لنجدة صربيا وهنا لن تنف ألمانيا مكتوفة الأيدي ومتنهض لمساعدة النمسا. ثم توصل لتسوية وأمر بالغير الجزئي. وذلك هي اللحظة التي كان سيلت فيها وجود راسبوتين الموقوف فقد أكثر القول أن دول البلقان لا تستحق القتال عنها. لكن الحرب تمثل أهانة لروسيا ورغم كل شيء فدول البلقان تقع بينها وبين النمسا ومن الواجب أن تبقى دول مستقلة. أما النمسا فأرادت أن تحرب حظها ثانية مستذكرة يوم خدع رجل دولتها (أمرتال) - وهو سياسي انتهازي من نوع بسمارك - روسيا عام ١٩٠٨. وما حينها ما برحت روسيا تدأوي حرجها وتتوقب ساعة الانتقام. وما غزو صربيا اليوم بأقل أهانة عن سابقه وهو كصفحة على الحقد. لكن الأسوأ منه أن ألمانيا أخذت تعد العدة لمساعدة النمسا وأمرت روسيا أن تستوقف تحركها قوياً. ورغم كل هذا الضجيج لم يتوقع أحد اندلاع حرب لأن أحداً ما كان راغباً فيها. حيث حاولت صربيا تفادي الحرب أن قدمت رداً ودياً للنمسا تقترح عليه (تسوية) فيما قدمت روسيا في محاولتها تفادي نشوب الحرب اقتراحاً يعرض المشكلة برمتها إلى (المحكمة المقدسة) للبت فيها. ذهب المقترح أدراج الرياح وقصفت النمسا مدينة (بلغراد) عاصمة صربيا وسمح الروس شائعة أن النمسا أعلنت حالة النفي وأمرت بالعتبة العامة فأمر القيصر في الحال اتخاذ نفس الاجراء.

كان راسبوتين واقداً في المستنق حين بلغته أنباء النفي فأرسل في حالها برقية للقيصر يترجاه فيها تجنب حالة الحرب. امتشاط القيصر غضباً وهو يقرأ التماس راسبوتين. فروميا برمتها متعطشة للدماء وتعالج صيحات الغضب التي هربت عن الوطنية المحسومة وهشتت الدوما هي الأخرى داهية للحرب. ولو

حدث أن عارض راسبوتين والقيصر الحرب لبات كلاهما أقل رجالات روسيا شعبية، ولكنها كانتا سينتاديان ثورة ١٩١٧ من جهة أخرى.

أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا أولاً وأصبح نيفولا لأول مرة طيلة فترة حكمه الرجل المعبود في عموم روسيا وقد استمتع بهذه الشعبية المفاجئة حتى وصفه المعلم (كيليارد) بأنه كان أشبه برجل غير التزلز.

أرسلت ألمانيا إنذاراً هي الأخرى لفرنسا وبلجيكا وقد كان الإنذار الموجه لفرنسا مهيناً كالإنذار لروسيا أصدر معه (ويلهلم) على الحرب. وعندما دخلت القوات الألمانية أراضي بلجيكا دخلت بريطانيا الحرب دفاعاً عن حيادية بلجيكا. ثم أعلنت اليابان الحرب على ألمانيا وبعدما انضمت إيطاليا لجانب «الحلفاء». ومع اطلالة شهر آب - واسبوتين لا يزال يداوي جرحه - كان نصف العالم قد دخل أوار الحرب.

الفصل التاسع

«امطار من قار»

كانت روسيا أقل استعداداً لحوض غمار حرب ١٩١٤ من حال الكتلان عام ١٩٣٩. أما رئيس وزرائها غير الكفء والمبهم الشخصية (كوريكين) البالغ من العمر أربع وسبعين عاماً فليد ظن في الوظيفة (خدم) القصر، قنصا ظن وزير الداخلية (ماتلاكوف) أن أي معبر حرب قومية سيضاعفها من إمكانية حدوث ثورة. لقد عجزت روسيا بالرجال لكنها اعتمدت كثرة السلاح، وبخلاف الاعضاء العام فإن كثرة الرجال ونقص السلاح جعل عائقاً إضافياً ضد المعنى الداعي للحرب. وقد توجب على المجدد الروسي أن يقطع أصنام بعيدة حتى يصل وحيدته. وفي لم تلك الاقله من الطائرات الحربية وعملت تقنياً من المتابعة التقنية والتخيرة، والاتصالات بين الوحدات والقيادة كانت غاية في السوء وتمت عبر هواتف ولاسلكيات قليلة وتحت على جمعية الصليب الأحمر المساعدة في النقل. قيات لديها بطلون ثشرين الأول من عام ١٩١٤ ما يربو على المليون مقاتل بلا بندق.

ومع هذا تولى الآن أن يخض مشاكل السنوات العشر الماضية كانت نعماً لواقع اليوم. فقد ولدت كوارث الحرب البائسة إصلاحات في الجيش ميا سلاح البحرية. وأصبحت روسيا في الشهور الأولى من الحرب جبهة على تخم

مشير. ثم توالى بعض من الأدحاحات الرميحية في آب وأيلول مثل معركة (زاموسك - كيوساروف) ومعركة (تاتيرج) التي انتصر بعدها الجنرال الرومي (سامسونوف) وضم أسر مئات الآلاف من الرومانيين. من جهة أخرى هزم الروس القوات النمساوية في معركة (الاسبرج) وأجبروها على النزول عن (كالييا) الشرقية.

لما يزل الحال في حيص بيص. فقد غير الروس في محاولتهم بلوغ الوطنية - اسم مدينة القديس بطرسبورغ إلى (بيترجراد) وقد كان لاسمها القديم الكثير من الصفات المشتركة مع بطرس الكبير - المناصر للألمانيا. لكن هذه الإيلاء كانت إلى حد ما نموذجية للشعالية المشوشة التي تنف وراء الجهد الحربي الروسي. وهكذا قرر القيصر الذهاب للجبهة وتولي زمام القيادة هناك بنفسه. مما جاهد وزراره لثبته عن عزيمته وإرسال بدلاً عنه الغراندوق نيقولا - أول من تأسر راسبوتين ثم قدم لقمعه بجلب راسبوتين للبلاد القيصري وبات عدواً له - . واتخذ التنازل قراراً يقضي بتحريم بيع القودكا لأنها تحدث السكر ومجهض على المجهود الحربي وكم كان عظم الحساس الوطني لما اعترض أحد على القرار واستمر «التحريم» عاماً قريعاً.

وبرغم ذلك فشلت الروح الوطنية في ولوج مواطني ذوي السطوة في البلاد. فذاك وزير الحرب الجنرال التقليدي (سوخو ميلنوف) الذي وصفه ابن مورعيد به العسكري المتحجر يتفاخر أنه لم يقرأ أصغر كتاب عسكري منذ خمس وعشرين عاماً وأن ما يعتمد عليه هو الطعن بالحرب. وتلك هي زوجة اليهودية الحسنة - التي تصغره بأعوام عديدة - لا تكتفي الأمر غير البلخ وما كان من روحها الجنرال إلا أن يجد طرائق للأيفاء لها حتى قبل أن أحدها بيع بلاده للألمان

والأخرى اختلاس الأموال المخصصة لشراء الأسلحة.

بيد أن التعصب الرجعي يهكل عقول النخبة المتأثرة وغير الخائنة من الوزراء فتراهى غم الفلاح الروسي وبسب حماسهم الوطني مصدر قلق لا موطن حماية وتطلعوا صوب الجندي الروسي فخالوه متهاً فحرموه من الأكل في المطاعم العامة ومنعوه من الركوب في الحافلات وسلبوه حقهم في قراءة الصحف دون إذن من أمراء. وما كان يستطيع أن يجيب على سؤال ما بين «لا أعرف» بل عليه القول: «لا أستطيع أن أعرف» فطالما هو فلاح فهو «لا يستطيع أن يعرف».

بماز الرجال زوافات زوافات صوب منيتهم وخاضوا غمارات معارك ما كان النصر نصيبها فلاقى المية منهم أربعة ملايين في خمسة شهور فحسب. وذلك لم يكن خطأ الفوائد نيقولا، فقد كبل يديه الفرنسيون الذين سرعان ما اجتاحتهم الألمان - بل هو لم يكن مستعبداً ليقايل وهجوماته الخاطئة في بروسيا الشرقية وبولندا وكالييا قد كان نصيبها الفشل مسبقاً. وما إن حل عام ١٩١٥ حتى عاشت روسيا اندحاراً كاملاً.

تلكم هي الأوضاع التي واجهها راسبوتين لدى عودته إلى بيترجراد في أيلول من عام ١٩١٤. فالتقيصر غاضب عليه من برقيته التي ترجاه فيها أطفال جرة الحرب. وقد لاحظ الجميع أن نيقولا قد أصبح رجلاً جديداً مذ نشبت الحرب. بيد أن التنازلات لم تلمس حاجتها الشديدة لـ «صديقها» وناصحها. فهي للثانية المولد وغلب على الساحة الرأي أنها في صف الألمان، وهو الفرض لم يكن سليماً برمته. وقد سرث طرفة عن التنازلات تقول على لسانه: «لست أدري

(١) غير الاسم في الحادي والثلاثين من آب ١٩١٤.

من يجب أن استند فإذا ما خسر الروس الحرب نجحهم وجه أي ولو عسرها الألمان
ستبكي مائة. لقد أصبحت التزاوية شديدة العصبية ووجدت أن من المستحيل
عليها الظهور للعامة ومما أشد العسر الفرنسي أن سلوكها في مأدبة عامة كان
جدا متزمت وانها اشرقت على قوتها من تواضعها المستعرة قبل نهاية المأدبة.

وقفت راسبوتين - كصديقته وقت - متأهضا غليظا للحرب وحنايت حولها
الشعرك أنها جاسوسان للألمان. ثم ماتت وقت في آذار من عام ١٩١٥ تاركا
وراءه راسبوتين يحمل على صداقته وحيثما قلب اقل الرجال شعبية في روسيا،
ومكابدات الرأي السائد عنه أنه جاسوس للألمان. لم يكن الخوس الروسي من
الشجس غطى أوهام فقد اكتشف أن أحد الضحايا واسمه (مياسويديوف) وهو
ضيق لوزير الحرب (سوخوميلوف) يعمل عميلا للألمان وإعداموه لذلك.
وتساع القيل والقال أنه كان عشيقا للزوجة سوخوميلوف. كما اتضح أيضا أن
بعض اليهود يتصرفون الألمان الأمر الذي أفضى إلى الشروع بحملات إبادة
واسعة النطاق شملت جميع اليهود في روسيا وبولندا وعرب الآلاف منهم خارج
بولندا وهاموا في الأراضي الروسية ومات أغلبهم بسبب الجوع والطبيعة.

وفي خضم هذه الأحداث عاد التزاوي ثانية ليكون الحاكم المطلق في روسيا
فقد مع الدوما من الإجماع وسجن ستة من النواب الديمقراطيين وكان سادسهم
النيكولسكي جاسوسا خطريا ورغم أن الغالبية قد وثقت به واجته ومن بينهم
أسيدين قدامى. ولأول مرة منذ عشر سنين لم يعترض أحد على تسلط التزاوي
وطاغه فالجميع قد عاش قلق الحرب ونسي ثمره من سلطان القيصر، وظل
خائف هكذا حتى قلب عياليه مافله بعد شرب أنباء الهزيمة الشؤمة فبحر
لحماس الوطني وعاد التمرد القديم ليصل إلى جوع الشعب.

أذاك استلمت راسبوتين من مشاعر التزاوي التي شعرت نفسها القوة
الطريق ومساندة الفهم فبحث عن صديق فاستلمت لعيني لقوة الألمان.
وسرت المساعبات أن راسبوتين قد توننها منغناطيسيا (أدريت قصة عكسي أن
راسبوتين بدأ عام ١٩١٣ يتلقى دروسا في التزيم المتألمسي من غير في هذا
الاختصاص لكن (بيانسكي) طرد الحير من بطرسبورغ. وربما تكون الحقيقة
أن التزاوي بدأت تفتقد قمر زوجها منها والذي كان يستقي شعوره مع راسبوتين
ولا يتكلمت لأمر غير الحرب، لذلك أضحي راسبوتين لفترة من الزمن وعادة
تم كل مشاعرها العميقة. وفي مستهل عام ١٩١٥ بدأ اسم راسبوتين عند التزاوي
يأقل نخبه بعد أن تزوج مع عاية عام ١٩١٤. وكان له رئيس الشرطة الجديدة
الجنرال (دزبانوفسكي) شديد الحقد وسعى (للتلئ منه) وشرع يهين في أفني
القيصر بعض نشاطات راسبوتين سيما حفلاته الفاخرة في (فيلا روه) عندما
يغلبه فيها السكر فيتحدث عن القيصر بلا توقير وكأنه يتحدث عن دوي من
أبناء العامة، ويصل به الأمر أحيانا لخلع ملابسه. وهكذا فقد مرطبه قدامه في
القصر مع خلون عام ١٩١٥. واحتفظت معه التزاوي للقاءه سرا في منزل آدا
فيرووف الصغير بالقرب من القصر في نزارينكو سيلو.

في الخامس عشر من شهر كانون الثاني من عام ١٩١٥ توجهت آدا إلى
بيتروجراد لزيارة والديها. وفي الطريق تعرضت لحادثة اصطدم فيها الفطار الذي
كانت تسطه بأخر تجم عنه تحطم عدد من العريشة وإصابة آدا بجروح خطيرة
فقدت الحشر ساقاها في جهاز التفتة البخاري واصطدم رأسها بعارضة حديدية
ثم أخرجوها وحملوها على باب محلو. وأدخلتها التزاوي لمستشفى فملكه عليه
لدهى الأميرة (كبرادوفيتز) التي قطعت حتى يصيغ أمل في إنقاذ حياتها (احتفظت

أنا أن الاميرة كانت تنوي قتلها وقد أصابت في غلتها لما الاميرة تعيش خلف الكواليس). لم يسمع راسبوتين بالحادث الا بعد مرور يوم كامل فاستعار سيارة وانطلق مسرعاً للقصر حيث ترقد أنا فيروبيوف غارقة الوعي برغم أنها رددت بين الحين والآخر وهي عذري عبارة «الآب كريكوري». دخل راسبوتين الغرفة مشجهاً لا التزار والتزارينا اللذين كانا بجوار سرير المريضة وأمسك بيدها قائلاً: «انوشكا انظري الي» ففتحت عينيها وقالت: «كريكوري هذا لله» ظل راسبوتين ماسكاً يديها بعض الوقت ونظر اليها ثم قال للتزار: «سوف تعيش لكنها ستكون مشلولة». ثم خرج من الغرفة لكن المجهود أعباه والتعب اختاره فتمشعر وخر مغيباً عليه خارج الغرفة، فيما أخذت أنا تستعيد عافيتها بعد زيارته وراسبوتين.

ان أشد عناصر القصة تشويقاً هو- دون ريب- سقوط راسبوتين مغيباً عليه. وقد شهدت محنة الواقعة أنا بنفسها وموسولوف رئيس البلاط بقولها: «أودل في مشيه داخل الغرفة ونرنح خارجها وسقط مغشياً عليه ثم استفاق متعرجاً وشعر أن ما أوتي من قوة قد أخذت منه». ومن ذلك يتضح أن ما حدث ليس إلا مثالا آخر على قدرة راسبوتين على العلاج ومثاله هذا نجد أنه نخل من حبريته لإعادة شحن فعاليتها. وحقيقة الأمر أن أنا كانت تصارع الموت حين رأها وراسبوتين وقالت ليها الطيبة الاميرة لوزية للتزار وزوجته أنها في عداد الموتى وطبعت منها القاء نظرة الوداع عليها وكل هذا كان قائماً قبل وصول راسبوتين وعليه فإن جهده إعادة (إحيائها) قد كلف راسبوتين طاقة لم يستترها من قبل. من جهة أخرى لا يبدو محكناً أن راسبوتين قد قتل من قواه الروحية في العبريدات التي وصفها عنه دزهانكوفسكي.

وحتى لو صح القول، فإن في الحادثة لحظة لأهم بجانب من حياة راسبوتين. أنا ونحن نقرأ سير الأحداث المصوح صوب الكارثة- سيما غرابة المصادفة بين اغتيال راسبوتين واغتيال الارشيدوق فيردناند- نستشف صعوبة الا تلمس انطال الرواية بغير دعم كارتونية ومن أن وجهة النظر الماركسية للتاريخ على أنه القوة الحقيقية وراء قضايا الإنسان هي وجهة النظر الصحيحة. لكن راسبوتين عاش في بعض زمنه- في بعد آخر من التاريخ- وفيه يقع سر نفوذه وسلطته على التزار والتزارينا. كما يبدو أن (الماهية) الخداعة التي تكبل اغلب بني البسطة قد انتقلت عند راسبوتين.

هذه النقطة تستحق منا الاسهاب في الشرح قبل الحديث في غيرها. يحتفظ أبناء العمرة لنفسهم بنوع من التوازن بين العالم أي الطبيعة الخارجية وبين الإرادة. وان الهدف المادي خاضع بالتمام لقوانين الطبيعة: فليس يوسع ورقة الشجر ان تقرر بإرادتها السقوط او البقاء معلقة على الشجرة. وكثير من الحيوانات سلبية الإرادة في الاختيار فهي تتكيف للطبيعة فحسب، ويظهر الإنسان المخلوق الوحيد المعادي بقماليته للطبيعة والساعي دوماً الى التفوق عليها بدلاً من الخضوع اليها.

بيد أن عادة السلبية تظل مغرومة في الانسان برغم ادراكه انه قادر أن يرم الطلام بمجرد الضغط على زر الانارة. فهو لا يكف عن الشعور باحترامه للطبيعة وخوفه منها ومن الواقع الخارجي فجزء من وجوده لما يزل يرى الطبيعة الحاكم المطلق والسيد المطاع. ويندب الشعراء والفنانون ابعد من ذلك فيحلمون بزعمة نكراء للطبيعة وفوز ساحق لروح الانسان. ورغم ذلك يشوق معظم الشعراء هذا الاعساس المعادي للطبيعة- وخصوصاً في منتصف العمر- ويبدأون

التكليف معها. بيد أن روح الدين برمتها - روح المؤمنين والانبيااء الملهمة - هي
الخطوة بقوة الروح المظلمة والانسان العادي يستخدم ارادته (دستورياً) أخذاً في
الاعتبار قوانين الطبيعة، وهذا يعني انه لو واجه مصاحباً ولو واقفه سره الطالع
الذي يبدو اقضاء وقدرًا) او من عمل الصدقة لاكتشفه القنوط وشعر انه ضعيف
الحيلة وسلباً وأنه لم يأل جهداً حتى يركب الصمغ. ها هنا قد حيزت الروح
لأشئ فعمل وثقلت الأثارة.

وأما رجل مثل واسيون فيسيخطو أبعد من ذلك. وعطاء القناتين
وعدمهم الأقدر على تحدي القدر. فذلك يتسهمون يشرب بشفقة على ذوي
الصمم، حتى تلوح الروح كأنها الفائلة بشجاعتها ومثابرتها وان كانت الطبيعة
تخون منها. ويقفه واسيون غريباً ان لا مكانة للهزيمة والأداة فاعلة حتى
وان كانت المواجهة للأمور الواقع من جانب الطبيعة. والسبب ما لم يكن
واسيون سلبياً كسبي البشر فهو ويدلأ من ان يتهار في حالة هزيمة، انفضت
حيوته لتواجه الظلواني.

لقد وصف العديد من الشعراء هذه الحالة من اليقظة في القاعلية على انها
تفسر السلبية تجاه الحياة. وهي عل الدوام ضرب من الاستيقاظ من النوم.
ويذكر ويليام بليك لسلبية الانسان وتصلته الخيرية به (الموتة) فيقول :-

كلنا يقع في طاقة هزلة

حتى نلهم الساعة

ساعة تطيق انانيت

وبلغم بالموتة في البحيرة

وتنفضت ايضاً الشغور ذاته على عتري آخر: عندما يصارع الانسان
الجنون :-

من عينين مكثرتين

ينهمر شيء

يكمل بعض عقله

ويستوقف لوعلة

يمل عينه

يصنحك غالياً

وقله في ونام

وهنا هو ما يعنيه غارحيف في الصراع ضد النوم

وتنبتى السيدة ليدى - التي وصفناها سابقاً - بنظرية القافالة أن الانسان لم
يأخ بعد جميعته المظلمة على الطبيعة طالما هو يمتلك موقفاً غريباً من اللاهوتة
دوماً ما يشل قواه. وهو في ذلك اثنه يصاحب كلب ملوح لا يستطيع السيطرة
عليه لأنه قائم الخوف منه.

ان واسيون وبرغم كل ما قيل ضد ليمتلك هذا الفيلك العربي والقة
الفطرية والادراك لقوة الروح. فبيات قادراً أن يرى ووصيا نتحذر قديراً نحر
الكارثة بيد انه لم يستطع قط ان يصيح قديراً لان في هذا شيء من اللاوعي

لذاتية الانسان الغريبة. لقد وصفت التزاوية علاجاً لأننا بالمعجزة. لكنه ليس بمعجزة إذا ما قبلنا كلمات (فيلسوف كويمبي) بل هي مجرد استثمار لفنانين الطبيعة. غير أن العائلة الملكية التي ولدت قدوة قد وجدت العلاج ولا ريب معجزة.

لقد تعددت طرائق وصف الحادثة القلبية التي نجم عنها اللاكتات المؤقت من جانب التزاوي حيسال واسبوتين اواخر عام ١٩١٥ ويقول بيرس أن: «اقل توضيح هجومي تستطيع اختياره... ما هو الأذى الذي الحقه بعبادة التزاوي؟». لقد أضيفت الحادثة في الواقع حصة على شهرة واسبوتين فيما وصف تقرير الشرطة الحادثة بما يلي: (١)

في التاسع من آب من عام ١٩١٥ غادر واسبوتين بعد زيارته لدير في (تيومين) على متن سفينة بخارية تدعى (توقاربار) التي بدأت رحلتها في الساعة الحادية عشر صوب بوكروفسكو.

وقراءة الساعة الواحدة ترك واسبوتين مقصورته نغموراً وعقد صداقات مع بعض العساكر الموجودين على ظهر السفينة. وأعطاهم خمس وعشرين روبية وامرهم بالغناء. ثم قفل عائداً لمقصوره وبعد ما عاد للغناء العساكر وأعطاهم مائة روبية أخرى. فغثروا جميعاً. ودعاهم لتناول العشاء في حالة الطعام من الدرجة الثانية لكن القبطان امرهم بالخروج. كما تشاجر مع بعض المسافرين وأخلق على سيده طريق العودة لمقصورته. ثم ظهر على ظهر السفينة وتشاجر مع رجل من تيومين ومع التاجر (ميشالوف) من تيومين. وتفقوا بالبديء من

(١) عرض (كارل هيمان) الوثائق الأصلية القلوية المتعلقة بقتل واسبوتين للصح (الإنديك ١٩١٨).

الكلمات عن (بارناي) اسقف لوبولسك. تنازع بعد ما مع أحد المضيفين غامطاً اياه بالسارق الذي ومتهماً اياه بسرقة ثلاثة آلاف روبية. ثم عاد لمقصوره ونظر من نافذته الى سطح السفينة. وهنا صرخ بعض المسافرين الناقمين: «قصوا لحيتهم... احلقوا ذقنهم». وطلب منه أحد المخبرين أن يقفل نافذته لتجنب أية حوادث أخرى. وعندما وصلت السفينة ميناء بوكروفسكو سحب وهو في غمرة سكره أربعة تجارين واستقبلته بنائه وأخلته في كلية الى البيت.

هذه هي «الحادثة المريعة» التي لم يوافق على مسحها العديد من الكتاب. ولا نستطيع فهم السبب فراسبوتين مسقت الطريقة التي عومل فيها الجنود كحيوانات ذليلة ويبدو مصدر الحادثة بأنها استهجاناً للطريقة التي عامل فيها قبطان السفينة ومسافرو الدرجة الأولى وتعاليمهم على الرجال المذللين من خياض روسيا.

لقد أحسن واسبوتين دفاعاً عن نفسه. إذ قال أنه ما كان غموراً وأن المسافرين قد أهاجوا شيطانه بنظرهم الاستعمارية لمن يزود عنهم وقال عاججاً أن القبطان قد خبر حويته وأنه اتخذ منه موقف التضاد لأرائه (راسبوتين) المناهضة للحرب، وهي آراء علمتها روسيا من قاصيها الى دانيها (وقد اشرنا سابقاً ان قبالية روسيا ظنت بواسبوتين والتزاوي جاسوسين للألمان).

طرقته الحادثة العيشية سامع القيص ودار القول حول اعدام واسبوتين بغير أية شهمة جنسية. وثمة حادثة مشابهة أخرى وقعت داخل قارب نهري لا

تعرف عنها شيئاً سوى أن رامبوتين كان مكرماً. وقد حاولت الشرطة إتيان
جاني الحادئين أن يقوم بمحاولة طويلة الأيام بين الأديرة لكن الساربتز عليهم
بمكرهم وانتهجهم بتقديم الأدلة ضد لانا فيروبيوف ثم رفض أن ينحصر عن
موقفه في أمثلة.

ترك الحباء رامبوتين لانا فيروبيوف أنراً لدى القصر لا يقل بمشغال ذرة
عن ذلك الذي ورعه فيه شفاء ابنه على يد رامبوتين عام ١٩١٢. فهو قد تجاهل
وعينه ومضامير وجهه بأما أنه رامبوتين بمثلك قوئ غير طيبة. وهكذا عاد في
عشرون أشهر قلائل للمحاولة الملكية برقم آله حارض الحرب جهاداً.

بعد أربعة أيام على حادثة آنا فيروبيوف، مضى رامبوتين ناشياً على التلويج
الناسية (الكاميتو - أوستروفسكي) حينها مع صوت جرافر حصان يقترب منه
فاستدار حذوا وقفز بعيداً. فقد انلغعت مزلة وضربته فتعثر، ثم سقطت
المزيلة وهرع رجال الشرطة القين كانوا قريبين منه - كعادتهم - وسحبوا حدة
رجال كانوا على المزيلة. (ولم يحدد (بالبلوج) الذي روى الحادثة هذه الرجال
الذين كانوا قريبين). واعترف الرجال في التحقيق أنهم قدموا من الـ (تاروتين)
وعني قلعة إيليدور. بيد أن أحداً لم يكشف أن كان عملهم تنفيذاً لأوامر
الـ (تاروتين) أم أنهم أرادوا سحق إرادتهم الإيقاع بالرجل الذي سب طرد وإبعاد
إليودور.

وهذه قضية لتوقع أن بأخلفها المنيون آنذاك على محمل الحد. انها محاولة
السيال حية ذات دليل ظرفي واضح له اعتباراً وأهمية. لكن أحداً لم يسمع كثير
عالم. وقد نفترض أن الرجال قد أطفأ مباحثهم فعدم كفاية الأدلة. وربما

نعم دومانكوفسكي. «أشعر حقاً احسن في المرة القادمة» و«أنا في المرة القادمة»
عن (ملوك رامبوتين للشين) على منى القارب النهري. فالمحاولة - في رأيه
عزود عمل عشوائي حدث في بيتروجراد طملاً أن رامبوتين مقرب التاروتينا.

كانت التاروتينا نفسها تشتمع بشجيرة جديدة ألا وهي شعيتها مع القوارب
المسلحة. لذلك فيزوت الشروع ببناء مستشفيات للجرحى - ربما استجابة
لنصيحة رامبوتين -.

واندثقت طوع هذا العمل الإنساني بكل ما أوتيت من طاقة عصبية
فافتتحت مستشفيات في عموم روسيا بما فيها تاريسكو ميلر وساعدت على
تجهيز الكثير من المستشفيات في القطارات التي تحمل اسمها. ثم نشرت على
العمل كمسيرة تحت إشراف الأميرة (كروافيرش) وأصبحت على تعظيم آنا
فيروبيوف وإبتيها مهنة التمريض أيضاً. كانت آنا تلميذة حيدة وهذا قد يفسر
العداء الذي تكنه ذا الدكشورة كروافيرش. بيد أن حادثة آنا كانت مكرراً مثارها
القصر في مهنة التمريض، فيها مثلت التاروتينا وابنتها التاريسكو ميلر بالملوك
الجرحى وأعتقتهم بجمع من الاخلاص الماسوشي. وأما الأميرات فقد وجدوا
العمل بمشقة أفضل من حالاً من القنوط الذي اكتنفهم من خياطة مفازين
الشاي في القصر. كان مجتمع بيتروجراد خيلاً لنقد تعاليات ولشاعات التاروتينا
وكشبه مؤلف رواية «مستوطنة الزوماتوفيين» (وهي امرأة على الأغلب) قائلا:
«حتى وهي مثلاً للرجة فشلت في تقمص شعور الجندي بصفتها إمبراطورة
روسية. لقد قيل عليه رؤيتها «أكفة أمامه تغسل قدميه أو تضمد جراحه»...
وربما أرادت أن تشجأوا الدور الذي تلعبه، بيد أن بعض مذكرات معاصريها
ذكرت أن الجسد لم يكونوا يوقا القدر من الاستياء كما وصفت السيدة المجهولة

الاسم. ويقال أن حسابها محضراً غامساً بارادته الإعجازية حتى تأتبه التواريخ وتشارك موته. لقد وجعها هذا السلوك حالة رومانطيقية في عيون الجند الذين لم يروا قبل هذا إلا صورا لها وهي صبية جميلة وحزينة في سن العشرين وما ظنوا يوماً أنها ستغدو عقيلة عطرقة تعاني من عذاب اعصابها ومن مس الإضطهاد.

توفي وت في آذار وذهب القيصر لتفتيش الجبهة بعد أن باركه راسبوتين الذي فكر أن يرادفه حيث ذهب لكن الغراندوق يقول قتل الفكرة في مهدها وصرح أنه لقاتل راسبوتين على مرأى الجميع لو ذهب هناك. وقد ذكر راسبوتين في دفتر يومياته أن رجلاً ما زالاً يقفان حجر عثرة في طريقه عليه الاطاحة بها، وهما الغراندوق ورئيس الشرطة دزهانكوفسكي.

وسرعان ما وافته فرصة التخلص من الرجل الثاني. فبينما كان التزار في الجبهة، وقعت بضغ حوادث صغيرة أخرى سارع في تحويلها أعداء راسبوتين لفضائح كبيرة. وفي الثامن من نيسان سافر راسبوتين لموسكو لزيارة قبرو البطارقة. وكتب بيرس: «يبدو أن الصلاة لديه كانت عظيمة الشأن وربما أحسن في صلواته حسنة، وعلى أية حال فقد زار أحد أشهر أماكن الصلاة ميتة الصيت ويدعى، ياروس». وما حدث هناك لم يتأكد لأحد. إذ تزعم الشرطة في تقريرها أنه فتح أزار ملاعبه الداخلية وعرض أعضاء التناسلية على العامة. بيد أن بيرس أوحى بأن يقول في «مذكرات عميل إنكليزي» أنه راسبوتين دخل مهجماً حاسماً أرفعت منه بعض الأصوات المزججة وأصوات نساء يتصايحن. فإن كان راسبوتين خالفاً نصف ملاعبه، فإن قصده لم يكن الإمتراض غير المحتشم بل هو حسيطة طبيعية للممارسة الجنسية. امتدح المدير الشرطة التي لم تشأ أن تقحم نفسها فيما لا طاقه لها عليه فاتفصلت هاتفاً بمديرها الذي اتصل هو الآخر

بدزهانكوفسكي في بيروجراد والذي أمرهم باعتقال راسبوتين. وقد اقتيد لاهداً ومنذمراً بينما حاولت الشرطة تهدئة في مركز الشرطة المحلي حتى ينفرج الصباح. وورد في تقرير الشرطة أن راسبوتين لم يكن جالساً وملاعبه الداخلية مفتوحة فحسب، بل أنه أعلن أن هذا هو سلوكه في حضرة العائلة الإمبراطورية أيضاً.

وفي شهر حزيران- أيار عودة نيقولا- تم استدعاء راسبوتين للمثول أمام القيصر الذي كان جد غاضب منه. حاول راسبوتين تهنيع سلوكه (المراثي) وقال صراحة أنه رجل آثم وهو قبول لأشد وطأة -على حد اعتقاد بيرس- على الروسي من أي رجل إنكليزي. لم تعلم التزارينا بالحادثة. بيد أن دزهانكوفسكي تسأل في امكانية استغلال الحادثة لإمقاط راسبوتين. ولكن سبق السيف العدل فقد طرح راسبوتين شكواه أمام التزارينا ويبدو أنها كانت شكوى حقيقية: لقد تهاهى دزهانكوفسكي بالحكم في جنح صغيرة وفي الوقت عينه تغافل متعمداً مقاضاة الرجال الذين حاولوا اغتيال راسبوتين. عندئذ أبلغت التزارينا زوجها بوجود طرد دزهانكوفسكي من منصبه وتم لها ما تريد. وتولى منصب رئيس الشرطة المشبه (بيليتسكي)، الذي طرده دزهانكوفسكي، والذي لعب دوراً مهماً في حياة راسبوتين خلال العام التالي. ولم يعلم راسبوتين بذلك. بيد أنه كان آخر ما تبقى من حياته.

الفصل العاشر

راستبوتين... يقدو تزارا

إن أملاً في مجرى التاريخ لتلك الحظة من الزمن سيبحث لها الإعتقاد أن الحرب جعلت من اندلاع ثورة أمراً مقضياً. بيد أن دراسة متعمقة للدليل القائم سطرن في ذلك الاعتقاد. فهي أنكلترا تشبه (روبرت بولك) ^(١) سويسنة على للحرب فيها ومطلعيها: «لأنه الله اليوم الذي فاقنا في ساعة ثباته». وبمضي واستغاً الصراع بحجم يظهر امره من خطابه. ولي روسيا كان الشعور ذاته يفرق عفيف الشعب. وبأدي. ذي يده نقول لو نصح القيصر في بلوغ السلام خلال الأسابيع الأولى من الحرب ربما وقد حقق الروس تقدماً ملحوظاً حتى المساور على التفاوض لثالث بطور الثورة قبل تضجها. لقد دخل القيصر قلب الشعب خشي الثوريين بينهم. فقد أسدى الإرماني (فلاديمير بيرتسيف)، وهو مخبر ثوري أمضى معظم وقته في تعربة عملاء الشرطة الروسية في الخارج، نصحاً للشوار بمساعدة القيصر لو أحتاج لمعونه. بل قد حذاً الفاعلة بالعودة إلى روسيا حيث أنطرو. معظلاً (ثم صدر عفو عنه). وقلل (لينين) الوحيد الذي لم يكن له ساعد وطلب من الثوار انتهاز فرصة الحرب وقلب النظام. ولم يتبع خطاه سوى منظمات الحزب اليساري المتطرفة التي ساند معظمها بعد ذلك المجردة

(١) (البروت) (تدوينات) (١٩١٧) ص ١٤١

أما وقد مر عام واحد، انقلب واقع الحال فجأة سافله. ترى كيف حصل ذلك؟ يقع وزر معظم المسؤولية على كاهل وزير الحرب (سوخومالينوف)، الذي أنهم لاحقاً بالمعالة للألمان. لكن الحقيقة تكمن في غير هذا المكان. فقد اعتقد أن الحرب متضعة أوزارها عتبة أعياد الميلاد عام ١٩١٤ وعليه لم يضع السلاح والذخيرة حباناً. بل هو رفض عرشاً قريباً بشراء الأسلحة، وأعمالهم ليسوا في فاقة للسلاح. فكانت عاقبة ذلك أن أسك الروس بتلابيب النصر بالحرب فحسب مضحين بدماء متدفقة. ثم التقى رودزيانكو القيصر وتجمع بطرد سوخومالينوف والرجعي الراجم ماكلاكوف (وزير الداخلية) من منصبها وكان ذلك في شهري أيسار وحزيران من عام ١٩١٥. وشغل منصب وزير الحرب الجنرال (بوليفانوف) - المقاتل المقدس وحمر الأخلاق -.

رودزيانكو، ربما أضله غروره وتحويله للأشياء، لكنه غير من أين تؤكل الكتف. وبصفته زعيماً لحزب الأحرار، مضى حيث الخلق ليقي على روسيا من عراقب الغموض البيروقراطي والقباه الرجعي ومشكلاً مجلس دفاع انطوت مهمته على تحويل المتاح من الصناعة الروسية إلى صناعة السلاح. وعليه كان واضحاً في اجتماع الدوما في الأول من آب عام ١٩١٥ وجود جبهة موحدة وصفق الجميع لوزير الحرب عندما أعلن تعاونه القصيمي مع الدوما. قبلما كما لو أن روسيا وجدت من يتقلدها برغم وجود التزار. غير أن يقولوا أقصد المسمى ثانية بعد مجرد ستة أسابيع بقراره اغلاق الدوما حتى شهر تشرين الثاني. فأثار عليه غضب الأحرار واضرب عمال بيتروجراد ليومين. ويؤرخ بيرس تلك

الساعة تاريخاً لاتدحار الروحية الروسية. ترى ما الذي حدا بالقيصر أن ينسحب هذه الخطوة التسعة؟ لقد مكته الخوف من انقلاب روسيا (للدستورية) برغم أن الدوما لم تشد أكثر من «وزارة ثقة» أي رئيس وزراء ومجلس وزراء يحظى بشقة الجميع. ولم يكن (كروميكن) إلا أسوأ رجل لمنصب رئيس الوزراء لا لأنه دمية لم يشدق بغير (نعم)، بل لأنه كان عجوزاً مأكراً دائماً ما تحدث عن موته وتأسى مصير وطنه.

وخلف هذه المشاكل تدفع التزارينا للهوومة بغربها على سلطان زوجها، فظلمت تمس في أذنه: «أثبت لغيرك أنك الحاكم المطلق». لقد عزل جسدها من نشاطها في التعريض وازداد ضعف قلبها الذي فقد قوته منذ ولادة التزارفيتش حتى اضطرت لاستخدام كرسي متحرك. ونشر الرسائل التي كتبها في عام ١٩١٥ إلى عمتي حبيبها وزوجها وعائلتها يرافقه شدة مقتها للدوما وكثيراً ما تحدثت عن رغبتها في شق «رودزيانكو البشم» وجشكوف أو بتدبير حادثة قطار لها.

وعليه، تتجمل التزارينا بشكل غير مباشر وغير نصيححتها للقيصر مسؤولية اغلاق الدوما في ايلول. كما تأخذ على كاهلها وزر قرار آخر أوقع بالدوما ومجلس الوزراء في حالة من الصخب: انه قرار القيصر ان يصبح القائد العام للقوات المسلحة.

ثمة أسباب وراء هذه الخطوة الموجهة. اولها كانت غيرة التزارينا من الشعبية التي فاز بها الغراندوق نيقولا. فقد كثر القول والقبيل أن الغراندوق قد أعلن نفسه (نيكولا الثالث)، وصها يكن من أمراً، فقد غابت شعبية نيقولا

شعبة القيصري في الأشهر الأولى من الحرب.

وثاني الأسباب هو نفور راسبوتين من الفرانكوف الذي كان له أول الأمر نصيراً ثم جعلته الأيام - شأن الكثيرين غيره - ألد أعدائه. وحين اقترح راسبوتين زيادة الجبهة وتخصيص ايقونة للجيش بعث له الفرانكوف برقية جاء فيها: «تعال وسوف اشتبك قور وحولك». بيد أن ثالث الأسباب يحل من الأهمية مكاناً. فهو يتطوي على نوعة نيقولا الامبراطورية. لقد تمزقت بيتروجراد بحاجتها الدائمة للعين الباصرة حتى لا تفتت مشاكلها. أما في الجبهة فقد لحل الأمر بالبساطة وفيها فلاح الجنود بعلو معتوياتهم غير آيين بزياتهم شديدة الوطأة. وبرزت من غصائهم شجاعتهم وصجلوا ندرة الأعمال في وقتها شهد لهم بها بيرس وغيره. لقد كان نيقولا رجلاً عسكرياً عاشقاً للهواء الطلق. بيد أن وجوده في الجبهة لم يكن حتمياً فالفرانكوف ليقولاً قد أحسن قيادة. من جهة أخرى كانت بيتروجراد في أمس الحاجة لوجود التزار لمعالجة مشاكل توزيع الغداء ومشاكل النقل. غير أنه عادوها، مهتدياً بعسيرته في المساء الأمور صوب الجبهة بعد أن طرد الفرانكوف وتاركاً زوجته وراسبوتين لتولي مسؤولية حكم روسيا بأكملها. احتج مجلس الوزراء على هذه الخطوة فاقبال أعضاء تنفيذاً لأوامر زوجته. وقد عبرت الدوما عن ارتياها من هذا القرار فأغلقتها ليعتدو راسبوتين - في واقع الحال - تزار الآن...

لم يكن نفوذ راسبوتين شيئاً برغم حدة العنف الموجه اليه. فقد أدرك شأنه في ذلك شأن رومزيانكو - أهمية الكك الحديدية ونجح في اقتناع التزار بتأجيل رحلات نقل المسافرين لثلاثة أيام ليتسنى لتجهيزات الطعام والذخيرة الحربية الوصول لاماكنها المقررة. وتم له ما أراد لا ثلاثة أيام بل لأسبوع. بيد

أن الغوصي واللاكشاة كانتا عميقتي الجذور ولم تصل معظم التجهيزات وجهتها.

في تلكم الأثناء - وتعيداً في الشهور الأخيرة من عام ١٩١٥ - حاولت بعض الطامع (اليكسر هفوستوف) الظهور على مسرح الأحداث. وحري بنا الاستدراك هنا أن راسبوتين كان قد التقى هفوستوف قبل أربع سنوات ووجدته لا يفتقر إلى شيء من... فعندما مذ حينها عضواً في الدوما ونجح أن يكون المتعلق للامبال راسبوتين بينا تظاهرا بمساندة رومزيانكو.

ولد هفوستوف متأزماً مائراً وقرر اليوم أن الساعة قد حانت حتى يكشف عن أنيابه ويمسك بتلابيب الأمور في روسيا. وقد حلت غايته خطة جهور تنفي أن يتسلق سلم السلطة على أكتاف راسبوتين ثم يجهز على من أوصله غايته بسلطته

لقد أثر أن يتم له الجزء الأخير من الخطة بمساعدة الشرطة. فاختار لهذا الهدف (بيليتسكي) عوناً له، والذي سبق أن طرده دزهانكوفسكي لكنه عاد ثانية بعد سقوط دزهانكوفسكي. شرع الاثنان يسجان غططها الذي انطوى أولاً على اقتناع راسبوتين استعمال نفوذه وتعيين هفوستوف وزيراً للداخلية هل أن يتظاهرا كلاهما أمام الملأ أن لا حبل وصل بينه وبينها. ولأنها بحاجة لمن يوصلها إلى البلاط القيصري فقد ارتأيا استغلال خدمات المتآمر اللواطى الأمير (اندرونيكوف). وإذا ما طرقت آباء المؤامرة سامع الدوما يقول هفوستوف أنه إنما يصبو لإسقاط راسبوتين - وهي النية المبيتة - وأنه يحاول الدخول لمسكر الأعداء. فإن يلعبوا عشية السلطة أدلوا الصواب ولن تمنعها عن تنفيذ مآربها

عقبة. فالكثير الكثير من الأموال مرمية في البلاط تنتظر من يجمعها. وقد نجح قبلها وزير الحرب السابق (سوخوماليتو) في تحويل بعضها لجيبه الخاص لكنه كان آخرها فالدوما كانت تقترح في نفس ذلك الوقت تقديمه للمحاكمة والقضاء. (بيد ان تدخل راسبوتين الذي خصته زوجة سوخوماليتوف الجذابة بسعر يمكن ان لحدده - انقذه من المحاكمة). وسرت ارجولة ان شخصاً أهواً حصل على ما يعادل ثلاثة ملايين جنيهاً من الحكومة لتجارب أجراها على قاذقة لب والتي تخلت عنها الحكومة بعد أن أحرق حدة رجال حتى الموت. تأمل هفوستوف الوضع بعد ان أصبحت الحكومة في يدي التزارينا فلم يتمالك نفسه. فحط من شأن راسبوتين كما فعل مثله الكثيرون.

غير أن الأمور سارت - باديء الأمر - أحسن مما كان يتوقع. فقد أدخل اندريوكوف هفوستوف للبلاط دون اذن صعبة واهلنت التزارينا أنها تتوق لرؤيته. وترك كلامها اثراً كبيراً في نفس الآخر. وقالت لزوجها في احدى رسائهما: «انه يشبه صديقنا غريغوري» وكلمة (هفستو) تعني في الرومية (ذيل) وبدأت التزارينا تنادي ميكافلي هفوستوف بـ «ذيلي النزيهة». وسرعان ما أشغل هفوستوف منصب وزير الداخلية - والذي يعني ايضاً منصب رئيس الشرطة - وتولى بيلينسكي منصب المساعد، وبات كلامهما وعلى مدى الاشهر الخمسة التالية الحاكم الفعلي لروسيا. لقد برهن هفوستوف ملامته للمنصب ان تلاعب بالانتخابات لصالح الدوما حين اشترى سراً عدداً من الصحف «لترجيح الرأي العام». ويستحق هفوستوف في مستقبل تاريخ الديكتاتورية ان يكون سلفاً لخنزير وموسوليني في مجال الدعاية. (انه السلف الحق فقد أعدهم البلاشفة ومعه بيلينسكي بعد قيام الثورة). وعفروض أنه اختلس الكثير من اموال الدولة كما

أظهر ذلك التحقيق المتأخر عن مصير الملايين التي منحتها اياه الحكومة لأجل التلاعب بانتخابات الدوما.

بيد أن غاية كلا المتأمرين لم تكن السطو على خزينة الدولة فحسب. فلقد كان بيلينسكي نافذ البصيرة أدرك ان الميل المتزايد للبلاشفة او الشيوعية أكثر ما يعزى سببه الى نقص الغذاء وارتفاع الأسعار لا الايمان بالافكار الاشتراكية لذلك نظم اسواقاً لبيع المواد الغذائية بأسعار دعمتها الدولة الأمر الذي أجل اندلاع الثورة عاماً تقريباً. ونجح في عمل رائع أسكن فيه آلاف المهاجرين الذين قدموا روسيا من المناطق المنقرضة بالحرب. من جهة اخرى، خصص فرماً من مكاتب البريد لاستلام الرسائل التي تحمل ملاحظات ضد الحكومة وأمر الصحف وأرشاها لكتابة مقالات عن شجاعة التزار في الجبهة ومن قداسة التزارينا كمنزلة.

عكر راسبوتين صفو بيلينسكي بعنيله المتفاخر وهو خموز. فقد زود أعداءه بالخبرة فصاعف بيلينسكي حراسه من الشرطة وأبشر عيناً مهتدة على الصحف التحررية. وقد اضطر مرة الى تقديم مبلغ كبير من المال مقابل شراء رسالة نفقروا لفن الرسالة سرقت من ثقة راسبوتين ووضعت بين يدي صحيفة ياروة.

سد المناصب الرسمية آنذاك رجال لم يكونوا بأهلها وقد بلغوها لا بجدارتهم وانما بصداقتهم لهفوستوف أو بشرائهم رضا. ومن كان آنذاك صديقاً لهفوستوف كان صديقاً لراسبوتين الذي لم يشر على غاية أن يزرع «رحلاً ثابعا» له في كل منصب مهم في الحكومة.

ان من الضغينة استيعاب الذي حدث لراسبوتين اواخر عام ١٩١٥. فهو لم يكتفِ ذاك أو سلطة لأجل المال أو السلطة. ومع هذا، سيستجمل عسيراً الآن الا نعتقد أن شخصية راسبوتين، وهو في أوج نشاطاته، قد عانت من تراجع ملحوظ آخر. فهل لين الحز ومعايرة الحمر عقله؟ أم أنها حالة الحرب قد جعلته عاجزاً أن يكظم غيظه؟ لقد أخطأ أعداؤه في ظنهم به شيطاناً في جسد انسان وكل الأمر أنه من نعط غير نعطهم. والآن قد وجد حتى أعداؤه صعوبة أن يتجاهلوا أن راسبوتين قد تخطى حدوده. وتحول رجال السياسة الروس الى شيء أشبه بقصر مدينة شيكاغو في عشرينات هذا القرن حيث الزحف الفاسد صوب السلطة وسيستحمل راسبوتين كامل اللوم لمساندة هفوستوف. وطبقاً لقول سيناتوفيش، استقبل راسبوتين كل يوم الكثير من ثريات النساء اللاتي رغبين باعفاء لبناءهن من الخدمة العسكرية، أو اصحاب بنوك لاحت لهم فرصة خداع الحكومة بخصوص اللدخائل الحربية. من جانب آخر، عين اندرونيكوف نفسه عميلاً سياسياً وضابطاً للعلاقات العامة لراسبوتين، بيد ان السمة الغريبة في هذا الاتفاق هو ان العميل يتقاضى نسبة ٩٠٪ مما يجنيه راسبوتين. اما بيليتسكي فقد كان مشغولاً في معاء الإيقاع باندرونيكوف بالمادته معلومات تتعلق بانحرافاته الجنسية مع آنا فيروبوف. فبر أن لعبة كهذه تنوعى الحذر في لعبها، فاندرونيكوف قد خبر من الأسرار ما لن يجعله لقمة سائغة. وروبدأ وروبدأ خرجت مواطناً. قدم اندرونيكوف بعيداً عن اسرار البلاط ونولى حماية راسبوتين «حام» آخر هو شرطي فاجر يدعى العقيد (كوميساروف) الذي انطوت مهمته على مراقبة راسبوتين أنى ذهب وأن يبقى عيناً باصرة على كل من سولته نفسه اغتبياله. في تلكم الأثناء، رسم هفوستوف وبيليتسكي فكرة أن راسبوتين الغول الذي ينفذ وراء السياسة الروس، وصور رسم كاريكاتوري راسبوتين- الفاحش

المخيف- ومعه القيصر وزوجته واقفاً على ركبتيه وهما دميتين بيته اشخاصاً^(١). وربما ذهب بعض (الليبراليين) (الذين كرهوا راسبوتين) ليدأ أن هفوستوف وبيليتسكي قد ظنا براسبوتين ناقص العقل وأنها اختاراً له (كوميساروف) كمموضة تقيه في صحو من التعب.

قرر هفوستوف أن الوقت قد حان لذهب راسبوتين في «رحلة طويلة» قبل أن تتفاقم لاشعبيته، فزوده بعربة وبعض القفاس المانيرا وحفنة من المال لصاريه الشخصية. بيد ان راسبوتين شعر بالدعة والراحة في بيتروجراد فرفض بكياسة أن يتزحزح عنها ومقيداً نفسه بتهديدات الاجراءات القانونية لحادثة الزورق النهري. بينما بدأ هفوستوف يخمر في نفسه الضغينة ضد من أوصله هذه السلطان.

طفقت علاقة غريبة بين راسبوتين و (كوميساروف) الذي تلمس شأن الآخرين غيره أن «الشيطان المقدس» شيئاً عزيزاً في برامته. لقد كان راسبوتين طفلاً في تركيبته وهو طفل مخرج صعب المراس. وفي إحدى المرات أصك به كوميساروف وأبلغه لقائل إياه اذا ما ظل يحط من قدره. وهو اذا ما استهل خطب لمن يطرق بابه من المتوسلين بإبداء المشاعر الدينية قاطعه كوميساروف بحدثة قائلاً: «هيا يا كريكوري، دع الدين جانباً».

كان الجزء الأصعب في مهمة كوميساروف هو أن يجنب راسبوتين الاطفال في الشرب وأن يمتعه من اغتصاب التوسلات اللاتي رغبين وأغبات (الغلمان)

(١) يمكن أن يعنى هذا التمييز أن راسبوتين (عمره خمس).

أن يمنحته أجسادهم. غير أن سواهن اللاتي أتته لشهرته في الشفاء ولأنه رجل مبروك وفضل راسبوتين في فكرته «اختيار أرواحهن» وهؤلاء النسوة قد ألقن أشد الأذى سمعة راسبوتين بشهرن قضائحه فيما يبلل كوميساروف ما وسع ليحصول دون وصول هذه الأمور لهذه المرحلة الخطيرة. وفي مرة أخرى حاول راسبوتين دخول غرفة إحدى النساء عنوة فظهرت المرأة بمعونة كوميساروف حينها قال راسبوتين جاثقا: «لقد خدعتني».

لكن قرابة الأمر هنا أن أغلب معجبيه ظلوا برغم ما سمعوا مؤمنين أن الذي سمعوه ليس إلا هراء واقتراء وكان ما فعله الأعداء نفعاً في رواد وصيحاء في واد. ودليلنا لذلك السيدة (كولوفن وإبشها)، (اللتان جئن بيوسبوف لراسبوتين)، ما برحن يعشفته رجلاً مقدساً. وربما أصابنا في ذلك الاعتقاد. وحادثته منتصف شهر كانون الأول سترهن أن قواه العجيبة لم تتغير طرفة عين: ففي الخامس عشر من ذلك الشهر بدأ القيصر زيارة للجيبة الجنوبية يصحبه (اليكسي) البالغ من العمر آنذاك اثني عشر عاماً. كان الصبي واقفاً وانفه لاصفاً بالنافذة عندما توقفت العجلة حل حين غرة وانضرب انفه بالنافذة التي سببت له جرحاً شديداً وكما العادة ظل نازفاً فقفلا عائدين من فورهم للتزاورسكو سيلو وأرسلوا برقية عاجل لراسبوتين الذي لم يشعر حينها بميل للتزاورسكو وقرر عدم الذهاب قبل أربع وعشرين ساعة، تأزمت فيها حالة الطفل كثيراً وسكنت جسده الغض الحصى. وحالما ظهر راسبوتين توقف الزحف وقد حلل لمفوستوف سبب تأخره برغبته أن يترجم القيصر في ملته ليوم كامل. وهذا دليل أنه يدرك أنه يستطيع معالجة الصبي حال رؤيته والا فمعن محاولة كهذه دون الوثوق بنتائجها لجحد بأعض. وهنا عاودت التزاوينا تأكيدها أن راسبوتين (تابع الله)

طلما أن قوته الشافية هبة الله إليه. وربما ذلك اليوم تبار راسبوتين أن الصبي سيبنيده أحسن حالته بعد عيد ميلاده الثالث عشر وقد ثبتت صحة نبوءته.

وفي الثالث والعشرين من كانون الثاني عام ١٩١٦ - يوم اسم راسبوتين، استلأت غرقته بالثمين والنفيس من الهدايا... أثاث، مجاهد، لحف قضية المزيعة أرسلت جميعها لبوكوروفسكو على الفور. وحضرت الغداء أنا فيروبيوف حاملاً معها تحميات وتحيات العائلة الملكية. وبحضرها أحسن راسبوتين التصرف، وربما استذكر اعانته لما قبل أسابيع قليلة باحتسائه الكثير من الخمر ومرجه ومرجه على طاولتها. وحالما غادرت منزله ظهر الموسيقون العجور وشرع الجميع بالرقص والشرب. وذكر يليتسكي أن راسبوتين وضع نساء افترطوا شراً ووقعوا أرفساً. لكن القول يجعل مبالغة بين ثناءه المعها أسلوب سرد الحكايات عن الخليستية. وعلى أية حال أمضت اثنتان من النسوة الليلة مع راسبوتين وذلك هي المرة التي وقف فيها الزوجان المالحجان على باب راسبوتين الأمامي بينما خرجت زوجتاها من الباب الخلفي.

من جهة أخرى استمرت المكائد تهاك وازدادت تعقيداً وبات العجوز (كورميكن) المهدف المقام لمفوستوف الذي ظل بغدي احلامه أن يصبح رئيساً للوزراء. وقد أعانته رودزيانكو غير واع بهجومه على اللاكفاءة التي ميزت العجوز كورميكن. بيد أن تعيين مفوستوف رئيساً للوزراء لم يكن لبروق راسبوتين بشائناً فهو شديد المكر لم ينال منه اعجاباً وعليه أشار راسبوتين حل التزاوينا أن مفوستوف وإن اتم بالذكاء واستحق من الآخرين ثقتهم يبقى أحد أعضاء الدوما السابقين وإذا فهو لا يستحق الثقة. ولكن من ذا الذي سيحل هذا المنصب الأهم بين المناصب؟ وقعت العيون على (بوفيلاتوف) - وزير الحرب

الجبهة- لكن دفة الحرب تحتاج مرساهـا، ثم يقع اللوم على القيصر، فلو تحمل بعض الشجاعة لما توالى في اختيار رومينكو لهذا المنصب ولجميع عندئذ بشوحينة البلاد باختلاف أرجائها وقصائلها خلف العرش ما خلا الرجعيين منهم. لكن التزاور ما كانت لترضى هذا الاختيار لسبب بسيط هو أن رومينكو كان أئتمن من حياة لسان راسبوتين. وعليه عفى القيصر متأرجحاً في سياسة انتحاره البطي، بالتخايه أقل وجالات روسيا من يليق بهم منصب رئيس الوزراء، أنه ستورومير. القاصر في ادائه... المتألق في سلوكه... الخيـان في خطاه... المشرك لراسبوتين. لقد حام ستورومير حول راسبوتين مذ ذرع نجمة في روسيا متوقفاً أن بعض فتاتات السلطة ستقط من المائدة الكبيرة. وحدث ما تأمل. ففي الثاني من شباط من عام ١٩١٦ تم فصل كوريمكين دون سابق انذار وعين بدلاً عنه ستورومير وسط فغول، ورنبة الدولة ومجلس الوزراء. وبينما استشاط غوستوف غصبا ولعن حظه العاثر تظاهر راسبوتين أن القرار من صنع القيصر وحده. وإما الشعب فقد وجد في القرار حياة جديدة فأغلبهم قد خال ستورومير للثاني- كما يوحى عليه اسمه-

ويؤكـد أن راسبوتين أدرك أن غرامسات العاصفة أخذت تتراكم. فالحرب تسير من السيء إلى الأسوأ، وما هي بئصاريا دخلت الصراع إلى جانب ألمانيا وانسحجت الروس من صربيا، وتلك بولندا قد ضاعت بين أياديهم وطغى على العادة شعور الخزيمة. وفي يتروجراد سأم المجتمع الراقي الحرب واستقيم غضبه حساسة اللاحروب فاستمرت حفلات التسمانيا وألف الشعراء الأيغرامات الساخرة من الحكومة ومعها راسبوتين.

(١) الأيغرام: قصيدة قصيرة تختص بفكرة ساخرة.

أفزع المشهد الروسي الجذبة الأمير (يوسيف) الذي فر من ألمانيا مع نهاية الحرب. واقترن -عناظنا- أن راسبوتين لا سواء المنول عن قرار القيصر أن يولي نفسه القائد العام للقوات المسلحة حتى يتاح له معه التوارنا الأملاك بتلابيب السلطة في الدولة، واعتقد كذلك أن الإندجوات الروسية المتأخرة لعمرو في بعضها لتجسس راسبوتين لصالح الألمان وبدأ يداعبه فكرة التمسك راسبوتين.

بيد أن يوسيف لم يكن بالوحيد الذي جبال في رأسه هذا الأمر. فعلى الجانب الآخر يقف غوستوف الذي أثبت في نفسه ذات القوام لأسباب يعود عنها يريس- لم تحتل في المصادقية مكان أسباب يوسيف. لقد لطخ راسبوتين ميه ضيشه حتى عشي أقرب من حياه أن يقرروا يعونهم له ولعب أقالهم قوفاً أحزوا نسجه، وتظاهروا بعدم معرفتهم إياه. وتجر مثال لنا في (بيترزم) مطراة بيتروجراد، الذي بلغ المنصب بغود راسبوتين. فهو قد أطلق على راسبوتين «الرجل البغيض». لقد راق غوستوف هذا الرأي وعندما أصبح أحد أعمامه أن ييريم النقي راسبوتين في اجتماع. أغار عليها في حله وسط دعشة راسبوتين وخرج يترزم.

أدرك غوستوف حاجته أن يخفي راسبوتين عن المرح السامي مرة وألى الأيد. وأخذت محاولة الإغتيال شكل المهرلة. فقد حاول غوستوف استخدام السم وتقلب من (كومنيساروف) شرابه الذي ادعى أنه يعرف الشخص المشهور في ساراتوف وذهب لشراء السم منه. مرت بقبضة اسابع وصل بعدها

كوميباروف بيتروجراد وذهب لمقابلة هفوستوف حاملاً معه كمية كبيرة من المساحيق البيضاء مصنفة على أنها جاجم وصلباناً من النظام. أمضى الاثنان قرابة نصف ساعة تحدث فيها كوميباروف عن مفعول هذا السم وأنها أنه أجراه على قطة نائبة وماتت في حالها. ان ما لم يذكره أن هذه «السموم» كانت عبارة عن أدوية منزلية لا ضير فيها ثم اصبحت اليها بعض المساحيق المشار اليها في كتاب رخيص عن السموم. وما هو مؤكد ان احدي القتلي احتوت سماً حقيقياً سكب كوميباروف بعضها منه في حليب قطة راسبوتين أثناء احدى زيارته له فسلوت القطة ثم ماتت. ولسبب ما، ادعى راسبوتين أن اندرونيكوف سعم قطته وإضاعاً بذلك نهاية لعلاقتها المتأزنة.

وجد بيليشكي الأمر مبهزلة برمنه. يضاف لذلك أنه فائق ذوعاً بهفوستوف وأدرك في غطة الاغتيا لمصلحة للتخلص منه. فشرع بعد العدة لمؤامرة مضادة. فلما جالت في رأس هفوستوف فكرة تالية يستعين فيها بالراهب ايليدور الموجود حينها في الترويج- في قتل راسبوتين. وفيها سيقع هفوستوف المال وعلى ايليدور الرجال. تبادل الاثنان الرسائل ثم بعث هفوستوف بأحد رجاله لالتقاء ايليدور واعطاه المال الذي أراد. لكن الرسول واسمه (رزهنسكي) كان أحمقاً متجبجاً لا يحفظ سراً وقد افترض خطأ أنه يحظى بدعم (رسمي) من الشرطة ما دامه سيعوث هفوستوف. لذا تحدث لسلطات الحدود الفنلندية في تفاصيل غامضة عن مهمته. أرسلت السلطات الفنلندية بريقة الى بيليشكي وبلغته شكوكها لأمهم باعتقاله واعادته لروسيا. وعلى أية حال، ارادت الشرطة الروسية اعتقاله لأسباب أخرى. وقد أخبر بيليشكي هفوستوف أن ضحيله كان أحمقاً وينقد عليهم أمرهم اذا ما استكثروه خالداً.

لم يعد هفوستوف يتن بيليشكي منذ أن اقترح عليه التخلي عن محاولة اغتيال راسبوتين وكتابة تقرير يذلل عنها يتعلق بجنح راسبوتين المختلفة مدعومة بشهادة كوميباروف التي تتضمن مردأ مفصلاً لكل عريشات راسبوتين وموافقة ببعض الصور (حسب قول يوسف) لراسبوتين عارماً العملية الجنسية. لقد ظن هفوستوف في التقرير سيلاً لسحق حظوة راسبوتين لدى التزار سيا وأنه اختلف عن سابقاته التي امتدت على الهواء والترهات. بيد أن أكثر اهتمام هفوستوف قد انصب اليوم على التخلص من بيليشكي أكثر من راسبوتين لدرجة أنه نسي أمر التقرير في لقاء له مع القيصر وكل ما أراد خلال طرده بيليشكي: وفيما بعد أخبر هفوستوف بيليشكي أن القيصر قد وافق على التقرير لكن بيليشكي تطلع الى حقيقة هفوستوف ووجد ان التقرير ما يزال فيها.

أنهى خداع أحد الطرفين للآخر الى أن ذهب كلاهما لـ أنا فيروپوف وعرضاً أمامها القضية. وقد حالها ما سمعت فحث خطأها صوب التزارينا لتخبرها بمحاولات تدمير «صديقها» الحبيب. فتم استجواب هفوستوف وبيليشكي ولم يالو كلاهما جهلاً لتبرئة صاحبه بالطعن في الآخر فتداعيا معاً. وربما حظي بيليشكي ببعض النصر حيث نصب القيصر عائقاً لسيرويا. انكر صحيفه بيتروجرافية نشرت مقابلة مع بيليشكي فضح فيها محاولات الاغتيا وأخرجها الى الملأ وقد كان مالك الصحيفة ساذجاً لدرجة قوله أن مقابلة مع معاون رئيس الشرطة (لن تنسوها شاتبة). لكن التزار احتدم غضباً لهذا التحدي العام لقراءه منع نشر مقالات عن راسبوتين. فالغى تعيين بيليشكي وطرد هفوستوف من منصبه والذي اتبط به رئيس الوزراء ستورمر، حامي راسبوتين.

ان من الصعب علينا ونحن نتمتع في عيوط نسج هذه المكائد أن

تسجاعل حقيقة كيف أغشى راسبوتين بصره عن رؤية ما كتب على لوح القدر.
ومع هذا، لم تكن الأحداث - كما رأها - جد سيئة كما تراها، فلما يزل يحصد
الخباع أو أنه أبقي على أنبائه الذين آمنوا به حد العظم. وأشهدهم في هذا الأمر
التزاريث التي بلغ بها إيمانها به أن تصورته (المسيح) متجسداً وكتب لزوجها قائمة
أنه عاهاها ساعة الكارثة.

لقد تضاعفت قوة ونفوذ راسبوتين. وسواء أكان مصيها أم تخطأ فقد
اعتمد على أحلامه في إصدار الأوامر للتقصير بخصوص العمليات العسكرية.
وفي مرة ما منع هجومًا على الجبهة الشمالية متبهاً بالكارثة. ونصح التزار بتعطيل
شعره بوسط راسبوتين قبل أن يتخذ أي قرار حاسم. وهو قد أصدر أوامره إلى
سنورمر وعامله بازدياء مفضوح وهدده ذات مرة قائلاً: «كان ثلاثة الاتالي...»
سنورمر... يا سنورمر... إن لم تفعل ما تشاء هناك (مافيا) و... وظل راسبوتين
مشجعاً التزاريث في محاولتها العقيمة الإبقاء على روسيا ملكية مطلقة والتي تعني
في الفعل أن أيًا من لا تكل له ساعد أو تكحل بالتزاهة مبررى به بعيداً عن
دائرة الضوء. فكان بوليفانوف - الذي أحسن اشغالا لمنصب وزير الحرب -
هدفها التالي. وما زالت التزاريث بزوجه حتى أطاعها بوقتها وعزل بوليفانوف
من منصبه. وكتب له قائلة: «علينا بالقوة لأجل مستقبل العبي»، قلانة أن هذا
التدخل سيحفظ للابن عرش روسيا. أن الجريمة التي اقترافها بوليفانوف هي أنه
سخر لأغراض عسكرية ثلاث ميارات رسمة قدمها سنورمر عليه لراسبوتين.
ونحن إذا تأملنا الأحداث في مجراها لنبين أن جميع محاولات الإغتيال قد أخطأت
الوجهة، فلربما انقذ يوسف العرش لو أطلق الرصاص على التزاريث بدلا من
راسبوتين.

في حزيران، بدأ الورد (كيشنر) رحلة سرية إلى روسيا كان الغرض منها
داسة الحاجة الروسية إلى السلاح. وقد تعرضت السفينة (اج. ام. ام.)
هانبشاير) إلى طوربيد مجهول المصدر أغرقها قبالة جزر (اوركاني) ولا يزال مر
هذا الإغراق مجهولا حتى الآن. بيد أن مصدراً آخرأ كان سيقدم العون لروسيا
قد توقف. فالتزاريثا - كمعادها - لم تدرك ذلك الكارثة وشاظرت راسبوتين وأبه أن
كيشنر وبها الحق أذى بروسيا. ويبدو أن راسبوتين قد بلغ هذه النتيجة عبر
أحلامه التنبؤية، ألا يبدو الأمر غير التصديق أن بريطانيا متصيب روسيا
بأذى لو زودتها بالسلاح!!

كانت قضية وزير الحرب المشين (سوخومالينوف) الشغل الشاغل
لراسبوتين والذي وجد نفسه أعجز من أن تقاوم نوسلات زوجته الغائبة. وقد
كان وزير العدل، هفوستوف الأكبر، (اللي لا يحب خلطه مع ابن أخيه الحفيظ)
في صدارة من أرادوا اخدام سوخومالينوف، غير أن راسبوتين أجاد للمهمة ونقل
هفوستوف من منصبه إلى منصب وزير الداخلية.

كان رودزيانكو الرجل الوحيد الذي رقب عن كتب وفقه أين متفهمي بهم
هذه الدسائس والكائد. وفي دهرة وجهت له لحضور حفل عشاء لمجلس
الوزراء. انتهز الفرصة وأطرمهم بكلمات كانت أشد في حداثها من مناعه
غاملاً أياهم أنهم قد أهدروا الوقت متفهمين في مصائبنا تالفة فنسوا حاجتنا
الشعب وأغضضوا بصرأ عن البلاد وهي تنهارى ركتاً بعد آخر لقد جنى
الجميع من الحديث خوفاً وكان له في نفوسهم وقماً بيد أن أحداً لم يحرك ساكناً.

ارتكب راسبوتين خطأ صغيراً في الجزء الأخير من مسرحية التأمير. فهو

قد أراد من تعيين العم هفوستوف وزيرا للداخلية ان يكون به بعيدا عن قضية سوخوميلوف. لكن العم كان رجلا نزيها لذا بادى باستغلال نفوذه الحالي ضد راسبوتين. فاناط مهمة حماية راسبوتين بالمجتز (ماتيلوف) الذي كان صديق راسبوتين لسنين عديدة (وما فكرة تعيين مستويير رئيسا للوزراء الا من بنات افكار ماتيلوف، الذي استغل موقعه الخطير في جمع المال بآثر وسيلة والتي اقتدرت في جهتها الى الصيغة الشرعية). لذا قرر العم هفوستوف الايقاع به في شراكه وحاك مؤامرة فيها ارقاماً بمبالغ متعطى له كرشوة. اكل ماتيلوف الطعام واخذ الرشوة فالحق القبض عليه في الحال. لكن هذا الخليع الفاسق لم يتر له جص واثار بلطفه ان محاكمته لن تمتدى ففصح كل امرار راسبوتين. وصلت الأنباء للتزارينا فوراً وتسارعت البرقيات وانتهى الأمر بخلع العم هفوستوف ثانية من منصبه. واعيد ماتيلوف بدمه ثام لراسبوتين واستمر في نذالاته وشاؤواته. (كان عليه أن يجضي بعض الوقت في السجن يطلب من خليفة العم هفوستوف في منصبه).

عاد منصب وزير الداخلية شاغراً مرة اخرى، وأطال راسبوتين التفكير بمن سيختار اليه، حتى استقر آخر المطاف على امعة أخرى هو (برونوبوف). الرجل الغريب الطباع القصير القامة الذي لا يملك من المؤهلات أقلها وكل ما فيه أنه سيكون أداة طيعة لتنفيذ اوامر راسبوتين. وكتبت التزارينا لزوجها رسالة تقترح فيها تعيين برونوبوف للمنصب وقالت له «لقد احب صديقتنا لاربعة سنوات على الأقل». وعين الامعة وزيراً للداخلية في العاشر من أيلول عام ١٩١٦ بعد طول تردد من القيص وظل في منصبه حتى قيام الثورة. ان في هذا الاختيار شيئاً من السخرية للتزارينا ولروسيا. فمن اللامعقول أن يعطس

المرء اصغر من الشاع أو أن يجاز من حوله الأشد قبيهم سخافة. فبعد برونوبوف، لن يبق في الأمر غير التذلل... أي شيء ما عدا الثورة.

الفصل الحادي عشر

التهانة

حدثت مشاعر النحط رومياً وفي الحجة فخلت الجنود جيهاً عن الثروة،
بالرغم من تحسن حالة الاعتماد الحربية بفضل الجهد الكبير الذي بذله (الجنة
المنفعة) التي سميت (الدوما) بأنشطتها مساهمة فعالة، بيد أن الشعور العام
بإكفاء الرجال المسكين بزيام النظفة كان ينحدر في جسد الجيش ويورد
رودريز بالكون في رسالة له مثلاً: نموذجياً يتفقد الوضع العام:

أشعر أيتها في سرد عياريه: لقد تمخضت اللائحة وانعدام التعاون بين
مطوب القيادة العليا عن عجزه لتتطلبنا المهتمة. وأتخذ لرجائنا طياتاً
ومراتب أله النصير فنداً مستحسناً نترغم بطرلة جملة الأرض، لقد خصص
الغيراندوق (بول) امرأة بمحاصرة مقعلة عتده له مساوية من الجناح وأرسل
قطعاته للقيام بهجوم متقدم على مرتفعات أراي-ميسوا، فوجد الجنود حائهم في
مستنقع أملاك أعلبيهم وبيناً هم يتحيطون في أرحابهم فصفقتهم الطائرات
الألمانية... وفطس إيتي جيش إيطالي وكانت منعقدة أنهم أنقذوه... لم يكن ثمة
سبل لإخراج المرحوم من المستنقع فغرقوا فيه. لقد كانت نيران مدفعية حد
تسمية فشلت في تحطيم الانسيجة الشائكة، ونهاوت القذائف على جنوباً
لشهم. وسحب الجنرال (روشي) كسائليه بدلاً من إطاعة الأوامر ونجح الحمة

في مهمتهم برغم واقع الحال هذا وبلغوا المرتفعات وشجع الحوفه عليهم ثم صدرت اليهم الأوامر بالتخلي عنها فيما بعد. وليس غريباً أن يختتم ابن رودزيانكو قوله: «لقد نخر الفساد اجساد القيادة العليا وعقولها...» اننا لن ندخر حالاً حتى نسمو من أجل روسيا لا من أجل نزعات الجزالات وأهواءهم». ولو ثقلت الحكومة الروسية بنصف قتالية جيشها لاحتضرت روسيا في الحرب ولما قامت الثورة أصلاً، إذ حقق الجنرال (بروسيلوف) أبهر النجاحات بين شهري حزيران وأيلول وبدا أن القيصر لتاج من المنية برغم قواجم سياساته الداخلية.

لكن السيل قد بلغ الزهى في يتروجراد ولم يعد أحد يستطيع أن يوقف الاتهام. فقد حجت محطات القطار بفتيان المقاتلين الذين يتقصهم السلاح، وهم اذا ما وصلوا الجبهة حملوا معهم دون ريب روح المزيمة وأنباء الفوضى التي نعم الديار. فقد احتفى اللحم من يتروجراد وموسكو ومع هذا تم نقل الالابات المحملة بجثث الماشية المتعفنة على أعين الناس الى مصانع حاء اللحم وتصل قاسدة لمحطات القطار. ودارت شائعات عن قطارات ملء باللحم محمولة في سياراً متفند حالماً يتم تغريفها. بيد أن أحداً لا يعرف ما ينبغي عليه فعله حيال مشكلة النقل.

إن الوزير الجديد لشعب الداخلية ربما كان أغرب من اختاره راسبوتين حتى الآن، وأعلن رودزيانكو أن الترقية المفاجئة ستصيب بروتوبوف بعين من الجنون لو سمعها ورثا أصاب في ذلك. لقد كان بروتوبوف صديقاً مقرباً لراسبوتين بل هو أقرب اليه من ستوريمر أو هفوسروف في أيامها الخوالي. وهو قد خلق فضيحة حين التقى في صيف عام ١٩١٦ في ستوكهولم عملاً ألمانيا شديداً

الصلة بالحكومة الألمانية. ولما نشرت وسائل الاعلام نبأ هذا اللقاء أعلن بروتوبوف أنه ما أخبر المصالح شيئاً سوى أن روسيا ستقاتل حتى الموت. لكن الأرجح من الاحتمالات أنه كان مبعوثاً من راسبوتين للتفاوض في إمكانية توقيع اتفاقية سلام روسية-ألمانية بعد جهود بذلها راسبوتين لتصح النزاع بضرورة إيقاف هيب الحرب وإن كان ثمة النكاية بالجنرال وفرنسا. أما وقد بات وزيراً للداخلية، انقلب حال بروتوبوف رأساً على عقب، وبدا كأن نشوة صوفية سكته وصرح تكراً أنه اختير ليقتل روسيا. من جهة أخرى كان هذا حادجاً ساذجة الاطفال. فعندما أخبره أحدكم أن عليه الاستقالة، قال: «أنتى لي أن استقيل؟» وقد حلت طوال حياته أن يكون نائب محافظ بها إننا وزيراً مرة واحدة!». بيد أن أفكاره لاقتاد روسيا إليها هي محض خيال فهو أعجز من أن يعالج الأزمات الداخلية الخطيرة. ولعل أفضل بنات أفكاره كانت تعيين رودزيانكو رئيساً للوزراء والذي كان يسعى له ذلك لو قبل التعاون مع راسبوتين والشوارينا. لقد أخبره رودزيانكو أن شرطه الوحيد في ثوري منصبه رئاسة الوزراء هو وجوب حجز التارينا في قصر ليفاديا لما تبقى من الحرب. لم يصدق بروتوبوف ما سمع وذهب مسرعاً صوب راسبوتين خشية أن تقل الواقعة على رودزيانكو بعد ادعائه الأفضلية على راسبوتين والتارينا.

لم يتل التارينا كل ما تروا اليه. ففي شباط من عام ١٩١٦، زار القيصر الدوما دون سابق انذار وألقى فيها خطبة رحب فيها بالتعاون بين الحكومة والدوما وقد لفت خطبته انتباهاً وإثراً طيباً لدى أعضائها. (من الأهمية القول أن كلا من راسبوتين وروديانكو قد نصحاء القيام بهذه الخطوة. فكلاهما قاسم الشان أغلب طموحاته ومن دواعي الأسى أن رودزيانكو لم يدرك ذلك). فيما

أصبحت التيارات أن في الزيارة استسلاماً للاخضاء فإصبحت ما ملكت من نفوذ وتأثير على زوجها في تذليل الدوما وزجر روديانكر قدر ما استطاع. ونجحت في مساعدها لضعف زوجها أمامها وتم اختبار ولاء روديانكر للعرش على نحو فائق.

الثالث وزير العدل الجديد (ماكناروف) أنه أصعب من منهلة تطويعه، شأنه شأن العم خصومستوف. إذ رفض خلق ملف قضية (سوخومالينوف) فجاءه يوم التأسر عليه وأبعد عن منصبه بديل جاء به راسبوتين والذي لم يقدّر وقتاً في خلق قضية حقيقي راسبوتين سوخومالينوف ومايلوف. لكن راسبوتين كان قد مات في حينها.

ثم في الثاني والعشرين من تشرين الثاني ووسط دهشة الجميع وعجبة روسيا إيمان مستوفيز عن منصبه، ويلدوا أن مسبب هذا القرار هو زيارة غير متوقعة قام بها وزير الحرب والشؤون البحرية للدوما أغلدا فيها وغيبها في ١٠ كانون مع الدوما وهي إشارة ارتداد من جانب عظمى الوزراء. وهنا استشاطت تلك الغيرة غضباً لمعجز مستوفيز السيطرة على وزارته وأمرت التبرار بطرده. وقد أدى الغضب بدلاً عنه (تريستوف) الذي هو أحد أعداء راسبوتين. آنذاك ظهر على مسرح الأحداث أحد المنع وأجب اعطاء الدوما يدعى (لندام بوريشكيش) وهو نصير مشجعين للملكية وأحد الذين مقتوا راسبوتين. لقد صدموه وقبحاً ومنع ما احتل المنبر في الدوما متحدثاً ارتفعت على شفاه الأعضاء مسحة والفت كثيراً من الأسماء هجا فيها راسبوتين والتي ردها بحموم من جراد. وهو الذي صاغ عبارة «الوحدات الوزارية» وأيضاً صفة «غير الوزراء» بين القبة والأخرى.

وفي مطلع شهر كانون الأول التي بوريشكيش خطبة أمام الدوما، كانت هي الأجرأ والأكثر صراحة ما سمع لها الأعضاء شيئاً من قبل مما عفا عنهم غضبه على راسبوتين. وهاجم فيها برتزيروبوف والبروتيكوف. كان للخطبة ومعها صديق أيران ملقيها حريق الأثر في نفوس مستمعها المبرجة أنها حدث بأحد أعضاء الدوما الحضور أن يتخذ قراراً مفاجئاً هو أن الحبيب عبد الألام يوسبوف الذي طللا (روته فكرة الحبيب راسبوتين والذي أدرك اليوم أن التسعة قد حانت لذلك).

والآن قد بلغنا اقرب ما انطوت عليه القصة. لقد أدرك راسبوتين منذ سنوات عديدة خلت أن أحداً سيغتاله أغلب الأمر وما اعتز له جفن للملك. لكنه أخشى. بعد خطبة بوريشكيش، كنياً صامتاً وأحسن أن التهاة قد دقت حشية وسناع الموت قد أوقته.

وفي يوم ما ثنى بمخافة غير (الثقاف) وغداً عودته قال أي أراه ملي، بلعاه اللوقين وهي نبوة لما سيحدث بعد عام. ثم كتب لعائلته قال فيها أنه يرى الموت قد اقرب اعقبها يوشيف في الأغرب نبوة يتفوق حدود العقل منحها عتافاً: «روح كريكوزي اينسوفيش وراسبوتين» يوضح من قرية بوكروفسكوه وأنها يلي نصتها:-

أكتب رسالتي هذه لأتركها بزهناً لي في مدينة القيس بطرسبورغ والتي لأشعر أي مفارقة هذه الحياة قبل اليوم الأول من شهر كانون الثاني. وأتمنى أن يدرك كل الشعب الروسي واليابا و «الأم» الروسية وجميع الأطفال الروسي والباب الروسي العظم ما يجب أن يدركوه: «إذا ما قتلني احرقني فلاحق روسيا

فلا خوف عليك ايها التزار وسيبقى عرشك حاكماً ويا ايها الفيصر لا تخش على اطفالك شيئاً فان لهم حكم روسيا ثلاث روسيا. ولكن إذا ما اغتالني البيويويون والنبلاء وإذا ما اهدروا دمي لسوف تظل ايديهم ملطخة بدمي وإن تفعلها هم السنوات الخمس وعشرين القادمة وسوف يهجرون روسيا، تاركون الأخ يقتل اخيه وإن يكون للنبلاء مكاناً في البلاد خمس وعشرين سنة. يا قيصر الأرض الروسية : إذا ما سمعت نداء بيتك مقفلي فعليك أن تعرف التالي : ان كان قاتلي من أهليك فلن يبق منك ولك أحد حياً لأكثر من ستين بعد موتي وقائلهم شعبك الروسي. انني أرحل وفي داخلي أمر الهي أن أخبر التزار الروسي بالذي عليه فعله بعد رحيلي. توخ الحكمة ما انت فاعل وتوقب صداها في نفوس رعاياك. عليك بسلامتك، وأخبر من لك من الأترياء أي أساطيرهم بقاءهم بدمي. انني مخافر الدنيا ولم أعد من أحيائها فصي لأجلي، صلي وكن قويا واعتن بعائلتك المباركة. كرويكوري.

أخذ ميخائيلوف الرمالة، على حد قوله، للتزاورين طالبا منها ألا تعرضها على نيقولا. وقد أعيدت إليه، حسب ادعائه، بعد وفاتها مع ملاسظات أخرى خاصة به.

ويضيف بيرس، الذي قرأ نسخة طبق الأصل من الرسالة، أن ميخائيلوف ملك بحورته أيضا كتاب صلاة التزاورين مع رمزها المفضل وهو السوامشيكا، وهو اختيار يستحق التهنئة والاستهزاء في نفسه دلالاته الأخيرة لسبازية الألمانية والذي كان بحورته حين مقتلها. وبذلك يكون الدليل على

صحة الرسالة راسخاً قبله حتى الشكوكي بيرس.

وكما هو شأن كثير من أحداث حكم نيقولا، يزور مقتل راسيوتين شعوراً أنه محفور في لوح القدر منذ دهر طويل. فهو لم يكن يأتي شكل حسن التخليط وكانت مستغسل المحاولة لو صادفها أصغر عارض. تقرب بوسيوف من بوريشكفيس وعرض الخطة عليه فوافقه ايها في لحظتها وقرر الاستغادة من عون اثنين من اصدقائه وهما الفراندوق (ديمتري بافلوفيش)، الذي كان يحاطب انتشار «يامم» وضابط شاب يدعى (سوخوتين). وقد اضاف لها بوريشكفيس طبيا اسمه (لافايرت).

وبرغم قسم المتآمرين ألا يبرحوا بسرهم لغيرهم، أذاع التزار بوريشكفيس الخطة على الملأ. فليبه ماكلاكوف في صالة الدوما بين حشد من الناس وأخبره القصة كما أخبر صحفية تدعى (بيكر) مزودا ايها بكل التفاصيل وذاكراً أسماء المتآمرين. وعندما نجح بوسيوف أخيراً في دعوة راسيوتين لمزاوله ليلة التاسع والعشرين من كانون الأول، ترجأ ميخائيلوفش وبيروتويوف وأذا فيروبووف إلا يتعبد فيستعرض لخطر ما وانتزع منه بيروتويوف وعداً بعدم الذهاب والذي نقضه راسيوتين بعد ذلك ما دام قد وعد بوسيوف بالحضور إليه وخلال يومين قبيل مقتله، بلغت نبوءة راسيوتين يدنو حقيقته ذروتها فاكشفه لذلك حقوق صديق. ولأنه قد قُتِلَ بيوم موته قبل الأول من شهر كانون الثاني (أي بعد مقتله بأسبوعين والذي يوافق الثالث عشر من شهر كانون الثاني حسب التقويم الجديد^(١))، فستحلي لا معقولة مجازفته الدهاب وجداً لمزل بوسيوف في

(١) السوامشيكا هي معكوف يرمز إلى الشمس أو الحظ السعيد

(١) التقويم الجديد - حساب السنة والتواريخ على حساب الطوبى الفريخوزي.

متشكك الليل. وقد نجد تعليلاً لذلك في تفسير بيرس القائل أن راسيوتين شعر
بمزيج من العطف والأزدراء للشباب الوسيم المغمرب يوسيف والذي سماه
«الصغير» عليه لم يتخيله البتة مصدراً للخوف والخطر. من جهة أخرى كان
يوسيف الصديق المقرب لا تخلص تلميذات راسيوتين إلا وهي (مونيا كولوفن)
التي أرادت من تقارب يوسيف وراسيوتين خلق نوع من الإعجاب بينهما.

وفوق هذا تطلع راسيوتين لمتعرف على زوجة يوسيف الفاتنة
الغرائقة (إيرينا اليكسندروف) وربما وجد فيها فرصة محتملة. وبذلك وجد
فيها يوسيف الطعم المثالي لاغواء راسيوتين قدوم منزله وكان له النتيجة أيضاً في
عيني راسيوتين ليلاً وسراً لقصره قوالده الذي كان أحد أعضاء السلطة المدنية
المؤولة عن موسكو قد قت راسيوتين أشد القتل.

كانت آخر مرة رأى فيها راسيوتين القصر حين طلب منه الأخير أن
يسارقه فرد عليه راسيوتين قائلاً: «حان الوقت الآن لشاركتي انت». وفي امسية
يوم التاسع والعشرين من تشرين الثاني طلبت الشواربنا من آنا فيريوف أن
توصل لها رسائلها لراسيوتين في محل اقامته. وقد أخبرها راسيوتين أنه وافق على
إلقاء يوسيف فابدت آنا غاؤها من هذا الموعد الغريب فطسأها راسيوتين بقوله
أن دافعه وراء الإلقاء على الزيارة سراً هو خشيتُه من والديه. لكنها لم تنال ذلك
نفسها خشية عليه وترددت قبل مغادرتها أيام سبياً وقد خاطبها بصوت لم نالقه
قبل هذه الساعة: «أنتي مني المزيدي! لقد أعطيتك كل ما تبغين».

قصت آنا بعودتها للقصر الذي حدثت بيتها وبين راسيوتين للشواربنا التي
قالت: «لا بد من وجود خطأ ما... فأيرينا (زوجة يوسيف) في الكرسي»

الآن. ومع ذلك لم تغير راسيوتين هاتفيّاً بمخاوفها وظلت تصارع خوفها ومردة
عبارة: «لا بد من وجود خطأ ما...».

يقول يوسيف أنه جهز الغرفة التحتية بفنالي خر وكعكة شيكولاته لحوي
سياتيد اليوتاسيوم كما وضع مستحقاً من السياتد في بعض اقداح الخمر.

بتخليول متشكك الليل ذهب يوسيف يرتحف خوفاً وعلماً الى منزل
راسيوتين الذي كان وحيداً بانتظاره وأخبره أن بروتوبوف قد اتصل به في ذلك
المساء وشرجه أن يتخلّى عن فكرة الذهاب لكلا يغتال وهي إيهام صريحة أن
يوسيف ليس بموضع ثقة.

عندما وصل راسيوتين قصر يوسيف سمع صوت الكراموفون يقني
«هانكي درودل» فأخبره يوسيف أن لدى زوجته زوايا ومستظم اليها فودر
مغادرتهم. ومضى الإثنين لغرفة الجلوس التحتية وقد أجهزت راسيوتين الخزانة
المنزخرفة فيها وربما ساووه الشك حينها فهو قد رفض قرب الشاي أو الخمر
بأديء الأمر برغم تناوله بعض البسكوت. ويقول يوسيف أن راسيوتين قد
أكل آخر الأمر بعض الكعك المسموم. وهنا يشوب الشك هذا القول. إذ تقول
(مباريا راسيوتين) أن ابنيها لم يأكل الكعك في حياته تحت أي ظرف من الظروف
يضاف لذلك أن أي أثر للسم لم يوجده في الجثة. وربما أصابت ماريا الحقيقة في
قولها. أي أن يوسيف قد زوّج جريمته الشائعة: جريمة قتل فيها رجل أعزل
السلاح على يد أربعة من الفتنة مكنتهم الرعب منه. ويزعم يوسيف أن

راسبوتين لم يتناول الكعك المسموم فحسب بل شرب كأسين من الخمر المسموم. ثم انتظر يوسف ولم يحدث شيء. وهذا بحمد ذاته قول يتطوي على كثير من الشكوك قدر تعلق الأمر بمفعول الساييد السريع. فتناول بضعة ميلغرامات منه سيجلب الموت على صاحبه في بضعة ثوان نتيجة لشل الجهاز التنفسي. واستنداً لوصف يوسف فإن راسبوتين قد ابتلع اوتصة كاملة تقريباً^(١) لم يشعر راسبوتين بشيء وطلب من يوسف ان يقني ويعرف هل كيمتاره ولا بد ان الموقف قد تطلب رباطة جأش يوسف حتى يحسن علاجه. وفجأة ومعه راسبوتين بنظرة تتطير بغشاً. لكن الأصوات العالية الآتية من الطابق العلوي هدأت الموقف وتطم يوسف وقال انه ذاهب ليرى ان كانت زوجته قد استعدت للقاء راسبوتين. فذهب الى الطابق العلوي حيث ينتظر باقي المتأمرين على احر من الجمر واخبرهم ان السم لم يعط مفعولاً. فتشاوروا على قتله ختفاً بيد ان يوسف رفض الفكرة خشية ان يحدث صدام بين راسبوتين وبوريشكفيش. وأخذ من الثرائيق مسدسه ونزل الى الأسفل فوجد راسبوتين جالسا ورأسه مغطى على صدره. وقال ليوسف انه يشعر بخير ما يرام وان يلعموه يشتعل ناراً ثم اقترح ليوسف الذي اتدعش لاقتراحه. وجوب الذهاب لمشاهدة العنجر. وبعد هبة قال: «فلنذهب ونحن نحمل الله في نفوسنا والإنسان في اجسادنا».

(١) أخيراً السيد ليجل مولاند، الكاتب المشهور في عالم الجريفة، ان راسبوتين كان يعاني من التهاب حاد في المعدة جراء تناوله الكحول بما يزيد من مسك غشاء المعدة، لذلك يستغرق الساييد وقتاً طويلاً حتى يظهر مفعوله. وقد علم السيد مولاند، الذي كان في روسيا ابان الثورة، هذه الحقيقة من صديق مقرب لراسبوتين كان قد ساعد الأخير في الحرب من اوبية. وكان راسبوتين يردد كثيراً أمام أسدقائه بأن تصلب غشاء معدته يؤهله لشرب كميات كبيرة من الكحول دون أن يشعر حلة أي سكر. وقد استخدم السيد مولاند هذه الفكرة في رواية شيفه اسمها (الساييد النشط). ولولدت

سارع يوسف لجذب انتباهه لصليب من الكريستال وقال له: «بوريشكويش... من الأفضل ان تؤدي صلاتك امام هذا الصليب». ورمقه ثانية بنظرة يكتنفها الخوف والشك الشديدين استدار بعدد نحو الصليب واطلق برسبوت رصاصتين استقرتا في ظهره وتداعى على السجادة. انطلق المتأمرون صوب الغرفة واطفاً أحدهم الثور فغرقت الغرفة في بحر من الظلام. وعندما انشأوا الغرفة مرة أخرى رأوا راسبوتين ساقطاً على الأرض وعينه مغاديتين. فتحصوا الجثة وأعلن الطبيب لازافيرت هن موت الضحية. بيد ان اعصاب الطبيب كانت شبه منهارة وأصابته نوبة هستيريا وهو ينتظر يوسف يغني من غيبوبته ويخرج من المنزل وسقط مغطى عليه فوق الجليد. ثم نزح اثنان من الشركاء معطف راسبوتين وارتداه (سوخوتين) حتى يقل من يرب القصر ان راسبوتين غادره في الثالثة صباحاً تقريباً. وتارة أخرى صعد يوسف وبوريشكفيش للطابق العلوي وقرر يوسف أن يلقي نظرة أخرى على الجثة لانه ان لدى راسبوتين قوى شيطانية تؤهله للتفوق من الموت، (وقد اعترف يوسف لماكلاكوف بعد الحادثة أنه اراد لراسبوتين ان يتطلع الى الصليب قبل هلاكه كي يقلل منه قواه الشيطانية). هن يوسف الجثة فقلبت هامدة. ثم تحركت اجفان راسبوتين واهتزت أجفان يوسف رجاً فقد انتصبت «الجثة» ومزقت كشيافية من كتفه. هرع يوسف مذعوراً للطابق العلوي وراسبوتين يظهره زاحفاً على اربع فوجد نفسه امام باب مغلق يؤدي الى فناء الدار وبوقه هائلة نجح في فتحه والخروج منه. انطلق بوريشكفيش وراءه واطلق عليه تيران مسدسه. وأعطائه اولى الرصاصتين وأصابته التاليتان فتهاوى أرضاً. ثم ركل بوريشكفيش، ذلك الرجل الألع الفصير ذو الأنف الشعجرف، رأس راسبوتين بقدمه وخرج من المنزل صائحاً: «قتلت راسبوتين». عدو روسيا

والقيصر ثم ساعده الثاني من الجنود على سحب الجثة داخل المنزل. انفض
يوسوف بعدها على الجسد القادم بمقيض جديد يعمد بالأكوف ومزقها أرباً
أرباً. انعكس هذه الجريمة مشاحة معن الزلعة لدى يوسوف ويوريشكفيش
وما تقطع الجسد الا دلالة أنهم انما قتلوه لعداوتهم له لا تمهيداً لعمل بطولي
وطني كما وصفوه لاحقاً.

قيدت جثة راسبوتين ووضعت في سيارة الفرانكوف وأخذت الى ساحل
نهر اسبم «التيككا الصغير» ورسيت الى حفرة في الجبلد ورموا معها معطفه
المراعي وحذاءه النين بلبا على سطح الجبلد ووجدهما لاحقاً ابن سيالوفيش
الذي تصح الشرطة بالبحث عن جثة راسبوتين هناك.

لما يزال راسبوتين حياً عندما دفعوا به الى النهر، ووربها ساور الشك
للمشاهدين إذ أولفوه جيداً قبل وضعه في السيارة. وقد انقض الماء البارد راسبوتين
مستغضباً ونجح في تحرير إحدى يديه. بيد ان الثلج كان يقطعه فلم يستطع الا
رسم إشارة الصليب قبل ان يغرق وحين وصلت جثته كانت يده اليمنى ما تزال
على صدره وقد رفعوا عنها ثلاثة أصابع.

ظن المشاهرون أنهم يقتطعهم راسبوتين سيفغروا بحري القدر الزموني. وقد
أصغوا في قنهم وما لعبوا ذلك الا أصغر دور في سفر التاريخ الروسي.
فرا راسبوتين لم يكن بهادراً ذلك التفوذ الذي خاله فيه أعداؤه وما زمام السلطة
والنفوذ الحقبشيين الا بيد التزارينا. وبعد موت راسبوتين ظل الحال يراوح في
مكانه ولم يتغير منه شيء سوى ان التزار والتزارينا أصبحا احق ايماناً من ذي
قبل انهما لغاويان في رجل كارة لا ملاذ لها عنها.

شاع لها مقتل راسبوتين في صبيحة اليوم التالي. وقد انصبت ليلتها عاروا
راسبوتين بالتزارينا لسألهما عن مكان تواجد ابنيها. ولكن يوسوف وجده
راسبوتين في منزله تلك الليلة لكن التحريات أهدت وجود بقع دم على أرضية
السيارة وفي القبر وفي قناء الدار. فأمرت التزارينا يوسوف والغراشيفي بالقيام
منزليهما. ثم ارسل يوسوف لاحقاً الى مشاططة الريفية وارسل الغراشيفي الى
الجبهة على الحدود الإيرانية - مما انقذ حياته إذ انه كان خارج حدود روسيا آن
قيام الثورة. وسمح ليوريشكفيش بالذهاب للجبهة.

تم العثور على جثة راسبوتين بعد يومين من اغتياله واستدعيت ماريا
راسبوتين واخشيها للتحرف على جثة ابنيها. وجاء في تقرير الطبيب الشرعي
«كان الشعر الأجمع مغطى بكمل من الدم، والوجه قديماً واليدين مفلقتان
وعند نوع المفلقت بلبت ملائمة كجبلد خشبي ملتصق في بعض المناطق ومزق
في مناطق أخرى. لكن اغترب شيء على الجثة هو ان اليد اليمنى كانت ترسم
إشارة الصليب...» ولم تشر الفحوصات الى وجود أثر للنسم في جسده. وفي
يوم صلبى لف العاصفة، وتحديداً في الثالث من شهر كانون الثاني تم دفن جثة
راسبوتين في الساحة الإمبراطورية وحضر مراسم الدفن العائلة الملكية. وقد
سأل التزاريفيتش الصغير الذي عرف عنه مقته لراسبوتين طامحاً ان كتاب القصة
مطلقة.

لم يبدل شيء.. وبات القيصر أشد لامبالاً ولم يعد يكثر للذهاب
للجبهة برغم خفة عدة القتال في الجبهة أيام الشتاء. وكان الوقت لما يزل سانحاً
لافتتاح الموقف الروسي لو اغتسم القيصر الفرصة ونجح في عقد معاهدة سلام مع
ألمانيا. لكنه أقر البقاء في قصره ينظر القادم اليه. وأما التزارينا فقد انطوت على

ففسحها واشتد انشغالها بعائلتها. لقد خلق موت راسبوتين موجة احتياج واسعة النطاق يبد أنه عمق شعور الفلاحين بالامتعاض وقال احدهم للاكلافوف: «أجل... لم ينبج إلا صوبيكاً واحداً في بلوغ بلاط التزار... وقد قتله الأسياد...».

لاح الشغك واضحاً لكل امريء في روسيا... حتى لم يعد أحد يقبل منصباً عالياً في الدولة. إذ استقال رئيس الوزراء (تريشوف) من منصبه وعين بدلاً عنه العجوز الهرم الأمير (كولينسين) برغم الفقه وطرد وزير العدل من منصبه لي عين بدله مرشح راسبوتين (بوروفولسكي) الذي لم يخالف للتزارينا أمراً. وأبعد أيضاً وزير الحرب ومُصحح لوزير التربية والتعليم بالاستقالة. وأمسى بروتوبوف جل وقته في التزاريسكو سيلو إذ قيل انه كان مصعباً (على السر على نيج راسبوتين) وخلافته في الخطوة لدى التزار والتزارينا وأشاع رودزيانكو قولاً انه بروتوبوف كان يعقد جلسات تخضير ارواح ويتلقى التعليقات من روح راسبوتين.

في الأشهر الأولى من عام ١٩١٧، استمع رودزيانكو لخطتين انقلابيتين كانتا اومحا عندما عقد الجنرال (كريموف) اجتماعاً غير رسمي للدوما في منزل رودزيانكو وأخبر الأعضاء أن الجيش يرى نفسه مهزوما ظالماً بقيت التزارينا تمسك بزمم السلطة في روسيا وأضاف: «باتت الحاجة للإنتلاب ملحّة جداً» فاجابه رودزيانكو انه لن يشجع قيام ثورة اطلاقاً. وبعد فترة ليث بالطويلة تلقى دعوة من الخراتنوق (ماري بافلوفا) - ارملة الخراتنوق (فلاديمير) الذي كان مسؤولاً عن اطلاق الرصاص في يوم الأحد الدامي - وأخبرته علانية أن التزارينا (قد حان يوم حسابها) وهنا عبر رودزيانكو عن مخاوفه من فكرتها

ونشأ من منزلها.

غدا اندلاع الثورة أمراً مقضياً وبنات كأنها رياح تلج عاصفة. فقبل هذا اليوم وتحديداً في شهر تشرين الأول فتحت الشرطة تيران اسلحتها على متظاهرين فقتلت أغلبهم. وبحلول كانون الثاني غدت التظاهرات ومسيرات الاحتجاج أمراً معتاداً وبذل بروتوبوف جهده الجهد في قمعها واعتقال انصارها «واستبوده» روحانياً اجنياً بعد أن لم يعتمد على نصائح روح راسبوتين. وعانى الشعب الروسي من نقص الغذاء والوقود ومنحت طوابير الناس المتظرين لقمة خبز المعرضين السابسين ما يريدون من أعوان. وبينوجراد قد اكتفلت بالفرق الناقصة المتظرة دوها صوب جيهاات القتال بيد انها كانت على اتم الاستعداد لمعاونة العمال إذا ما أمروا بقمع الثورة. وفي شباط من عام ١٩١٧ جاهد رودزيانكو في آخر مسمى له لإقناع التزار بضرورة التحرك من اجل الشعب والملكية لكن القيصر بدا مشعباً ولا مبالياً بل قد ادار أذنأ صباء لقول رودزيانكو أن فترة حكمه كانت برمتها سلوكية خاطئة طال أمدها. وهنا استذكر رودزيانكو وهو يرد تفاصيل اللقاء، مقابلة أخرى له مع التزار سلمه فيها تقارير مهمة فظفر نيقولا الى القضاء الذي امامه وقال: «كنت اليوم في الغيابات... يا لسكوها... ان المرء لينس فيها ثلاثة المؤامرات وضاعة الإنسان الثقلة. لقد استشعرتُ روعي السلام... فالمرء هناك اقرب للطبيعة... اقرب الى الرب». وهذا القول يدل أن نيقولا كان راقباً عن أن يكون حاكماً سيباً في عصر مضطرب كعصره. وكان سيكون اسعد لو كان رجلاً رقيقاً يزوع أرضه وتنابطاً سلاحه.

كش نيقولا في الصفحات الأولى من يومياته، والبلاد تنهارى أمام

ناظرية: «سألعب الدومينا في اوقات فراغي».

اندلعت الثورة في العاصمة بيتروجراد في يوم الثلاثاء الموافق الثامن من آذار. فقد سادت الفوضى بسبب نقص الخبز وعلم لاحقاً أن الخبز كان يكفي بيتروجراد لعدة ايام لكن الغيب كان في سوء التوزيع. وبعد مضي يومين على ذلك فتحت الشرطة النار على تجمعات كانت تصرخ: «فلنسط المرأة الألمانية» اي التزارينا. وتزايد عدد القتل في اليوم التالي. ثم تمردت كتيبة (قولونسكي) وقتلت احد ضباطها. وتتابع تمرد كتائب اخرى واقيمت المتاريس في الطرقات. وفي الرابع عشر من الشهر ذاته قوت الدوما استغلال هذه الثغرة السياسية لتقرر تكوين حكومة مؤقتة. وقد كانت الثورة مشوشة وتفتقر للتنظيم. وكان فيها دور البلاشفة ضئيلاً جداً.

نصح القيصر بعد عودته مسرعاً الى التزاريسكوسيلو بالتخلي عن العرش. وحين لحق يزوجته أجبهش باليكاء امامها فقد احس للمرة الأولى في حياته أنه وحيد تماماً. ولما حاول بعد ذلك مغادرة القصر دفع به ستة جنود بمؤخرة اسلحتهم قائلين له: «ليس بمقدورك الذهاب من هذا الطريق ايها السيد الكولونيل»، وقد شاهدت التزارينا ذلك الموقف من النافذة... ولعل تلك اللحظة كانت اسوأ ما شهدته في حياتها.

ابتهج الألمان كثيراً لأشياء الثورة فهي تعني اجبار روسيا على عقد معاهدة سلام وفق شروطهم وهذا ما حدث فعلاً في العام التالي. وتم ارسال (لينين) من سويسرا الى روسيا بمساعدة كادر الماني وعابراً الأراضي الألمانية بقطار محكم الإغلاق حتى وصل المحطة الفنلندية في بيتروجراد في السادس عشر من نيسان

واستقبلته جموع حاشدة فقد امضى عشر سنوات في المنفى. والقى احد اعضائه «الطلبة السوفيت» كلمة رجب فيها بعودته ورد عليه لينين مرحباً «بالثورة المنتصرة».

بيد ان نصر لينين لا يزال بعيداً. فكبيرسكي كان مسؤولاً عن الحكومة المؤقتة وتعرضت «الجبهة الثورية» للإنتفاق نتيجة الخلافات الدائرة بين صفوفها. لقد اراد لينين ان يعلمن أن لا عودة للنظام القديم البائد او أي نظام قريب له متذكراً درس فرنسا بعد الثورة الفرنسية ١٧٩٨. لكن البلاشفة أنفسهم لم يتأكدوا بعد أن روسيا ستغدو (ماركسية) بين عشية وضحاها. وانتهى الأمر أن اصدر كبيرسكي أمراً بالقبض على لينين الذي أجبر على السفر جوا الى فنلندا ثم عاد متكرراً في تشرين الأول. وفي الساعات الأولى من يوم السابع من تشرين الثاني ضرب البلاشفة ضربتهم واحتلوا المراكز المهمة في بيتروجراد ووقع الشيء ذاته في المدن الأخرى. ان الحرب الأهلية آتية بيد أن الثورة قد انتهت من ناحية أهدافها العملية.

في هذه الأثناء، ظلت العائلة الملكية حبيسة قصر تزاريسكو سيلو. وعرضت عليها الحكومة البريطانية اللجوء السياسي وشرع كبيرسكي في تدبير خططوات رحيلها من روسيا ثم تمرد (ليود جورج) في بريطانيا على العرض فحيت الحكومة البريطانية.

لم يكن ثمة مبرر لخوف كبير لدى العائلة الملكية خلال الأشهر الأولى من الثورة. فقد سمحوا لها بمراسلة أصدقائها ومعارفها دون قيد، ودارت احاديث عن احتمالية ارسالها لليابان عبر سيبيريا فيما تعاطف معها كثيراً الضابط المسؤول

امر كبيرينسكي في الثالث عشر من آب نقل التزار وعائلته لتوبولسك فاستقلوا قطاراً وعبروا ثيومان ثم بقارب بخاري عبروا النهر مرورا بقرية واسبوتين (بوكروفسكو). وقبل ان يظنوا ارض توبولسك، كتبت التزارينا لصدقتها أنا فيروفوف، التي كانت مقيمة في قلعة بيتر وبول، رسالة قالت فيها: «ان روح صديقنا المجيدة تنادينا... فلما رأوا منزل واسبوتين شمخت في الجو بنائية أهل من مثيلاتها طلعت على ساحل النهر.

ومن سخرية القدر ان يكون اسقف توبولسك الكاهن هيرموجن الذي نفاء القيصر. وعندما حلت ذكرى تنويع يقولوا في الثالث من تشرين الثاني امر هيرموجن بقرع الأجراس في توبولسك.

كان زوج ماريا واسبوتين شابا غريب الأطوار وثيوصوفاً يدهى (بوريس سولوفيف). قرر هذا الرجل وزوجته المجازفة في انقاذ حياة التزار فذهبا متخفين لتوبولسك ووافق الأسقف هيرموجن على تقديم يد العون لهما. وتلخصت فكرتهم بايصال التزار وعائلته الى اقرب نقطة تمكنهم من الإنلحاق بالجيش الروسي الأبيض وهم الموالون الذين رفضوا القبول بالثورة. لكن التزار نفسه رفض الخطة وبدأ انه قد احتفظ حتى آخر ساعته بترتبه العمل ضد ذاته. بل انه طلب ايضا تعهدا بعدم احيائه على ترك الأراضي الروسية فهو لا يزال متأملا في العودة لعرشه. وهو بذلك لم يكن مدركا للخطر المحدث بحياته. ويوم موعود تنفيذ مؤامرة الهروب أخبر هيرموجن جمعه ان أحدهم غدوهم فغادرت ماريا واسبوتين توبولسك الى بوكروفسكو فيما بقي القيص على زوجها ثم

افرجوا عنه. غادرت ماريا وزوجها ارض روسيا الى برلين حيث ساعدهما سيكاتوفيتش - الذي سبقها بالفوار الى برلين وانتهى الأمر بماريا واسبوتين واقصة في باريس بعد وفاة زوجها الذي تركها لتعيل طفلين.

تم نقل التزار في اواخر شهر نيسان الى (ايكاتيرنبيرج) في جبال الأورال وقد قال عنها بيرس: «هي ربما اشد المناطق بلشفية في كل ارجاء روسيا» وفي الطريق تم استبدال خيوله - لشابعة الطريق - تحت نافذة منزل واسبوتين في بوكروفسكو ولحقت التزارينا وبقيّة افراد العائلة الملكية رب العائلة في أبار، وكان مرض التزارفيتش سبب تأخرها في توبولسك.

وفي السادس عشر من تموز ابلقت العائلة بأمر نقلهم الى مكان اخر في تلك الليلة نظراً لوجود قطعات تشيكوسلوفاكية عسكرية في الجوار (وقد احتلت تلك القطعات ايكاتيرنبيرج في الخامس والعشرين من ذلك الشهر). وفي تلك الليلة طلب اليهم النزول الى القبو. ويبدو أن شكاً لم يراود التزار البشة برغم امارات الكره التي ابداهها حبال سجنائهم الجديدين ويدهى (بوروفسكي) وهو يهودي من سيبيريا. وقد كتب القيصر في مذكراته: «هذا الشخص أقل من أحببنا في العالم». وساعتها كان التزارفيتش جد مريض عاجز حتى عن المشي فحمله اياه الذي اعطى كرسياً للجلوس عليه. ثم تقدم السجان بوروفسكي صوب القيصر وقال: «يقولوا اليكساندروفيتش: لقد حاول أتباعك تخريبك من قيدك وفشلوا. والآن حان لك أن تموت روسيا بالرصاص» صمق التزار وقال «ماذا تقول؟» فاجابه بوروفسكي: «هذا» وأفرغ في صدر آخر القياصرة الرومانوفيين رصاص مدسه وتجاوى أرضاً. ثم رصعت التزارينا الصليب على صدرها وهي شديدة اليقين بقرب حتفها وهذا ما حدث بعد ثوان من مقتل

زوجها حيث فتح الآخرون النار عليها ثم على بناتها اللاتي وقعن على الأرض فقد ثقّب الجدار من الأسفل. وقتل طبيب القصر وطايعه وحاولت الخادمة أن تحمي نفسها من الحراّب بالوسائد وظلت تصارع حتى لفظت آخر أنفاسها. ويبدو أن أناستازيا قد هوجمت بندق بندقية ثم قتلت بطلعة حربة. بيد أن امرأة أطلقت على نفسها لاحقاً اسم (اناستازيا) قالت انها سقطت مغمياً عليها وتظاهرت بالموت. وبينما كانت هذه الأحوال دائرة، كانت شاحنة تنتظر في الخارج لنقل الجثث وانتهى الأمر كله بقتل كلب الاطفال، أن حطموا رأسه برصاص بندقية.

ويذكر (فرائر مقبودة)، وهو اسير حرب سابق نمساوي الجنسية، سرد له في عام ١٩٣٨ أنه ورفيق له ساعدا في حل الجثث للشاحنة وقد اعترت احدي الجثث وكانت جثة اناستازيا، فغطياها بثياب ونجحا في حملها على عربة خارج السجن بدلا من الشاحنة المخصصة لحمل الجثث. حينها بدأت رحلتها الطويلة التي انتهت في برلين بعد ستين في محاولة انتحار وقد تسبب الاعلان عن شخصيتها في عطف عالمي على قدر آخر الرومانوفين.

لا تملك حيزاً هنا لسرد قصة أنا ستازيا، غير أن بيرس يقول صراحة أنها مجرد مدعية كاذبة ويبدو ان التاريخ قد حكم عليها بذات التهمة أيضاً. ومع هذا، نقف لصالحها براهين كثيرة جمع بعضها (رولاند كرج فون ندا) في سيرة حياتها اسمها «أنا...» اناستازيا، ونسودج واحد من هذه المذكرات سيغني بالمطلوب. واعلن الكونت (كارل بوند)، الذي كان مرة رئيساً للبعثة السويدية للصليب الأحمر لسبيريا، في ملاحظات له نشرت عام ١٩٥٢:-

«بصفتي رئيساً للبعثة السويدية للصليب الأحمر لسبيريا، استقبلت في وختاني عام ١٩١٨ قطاراً خاصاً. وفي مكان ما- لم تعد ذاكري اسمي المذكور اسمه- توقفت القطار وبخشنا عن الغراندوق اناستازيا ابنة التزار نيقولا الثاني... لكني أخذاً لم يعرف مكان وجودها».

ومؤكد أن البلاشفة قد باثروا في تموز عام ١٩١٨ بحملات تفتيش واسعة أشارت جميع الدلائل أنها كانت بحثاً عن اناستازيا. وقد ايد (كيلارد) معلم التزارفيتش، أن المرأة التي ادعت نفسها انا ستازيا هي نفسها اناستازيا، بعدها أنكر ذلك. ولم تتجح أنا ستازيا قط في اثبات هويتها او في الحصول على ملايين الروبيلات التي اودعها التزار في امريكا تحسباً لاي طاريء. واذا ما كانت المرأة التي ادعت هوية اناستازيا صادقة، على الأرجح، في زعمها فان حكايتها المأساوية ستكون نتيجة ملائمة جداً لتاريخ عائلة التزار التي وصفها اكثر من مؤرخ بانها كانت موصومة بسوء الحظ.

ثم بعدها تدمير بقية الجثث بحامض الكبريت ورميت في حفرة عميقة. ان قدر التزار وعائلته لأهل مأساوية من بقية الرومانوفين. فالغراندوق (اليزابيث)، شقيقة التزارينا، نقلت الى أليينفسك على مقربة من ايكاتيربيرج مع الغراندوق (سيرجيوس ميخيلوفيتش) وثلاثة من ابناء الغراندوق (قسطنطين) والابن الأصغر للغراندوق (بول). وفي اليوم التالي لقتل نيقولا وعائلته تم رمي هؤلاء جميعاً في حفرة مهجورة احياءاً باستثناء الغراندوق سيرجيوس الذي حاول المقاومة. ثم القي الديناصيت المتفجر وراءهم. وعندما اخرجت الجثث لاحقاً كانت جميع الرؤوس مهشمة وأشار تقرير طبي أنهم لم يموتوا في الحال بل ماتوا موتاً بطيئاً.

بعدها اعدم الكثير من الغراندقة بحجة «الانتقام» لموت (اوبسكي) رئيس الشرطة السرية للبلاشفة ومحاولة اغتيال لينين على يد (دورا كابلان) وهو ثوري اشتراكي. كما اعدم العديد من الوزراء السابقين في نفس الوقت بعضهم سنورمر وماكلاكوف وبيليتسكي وبروتويروف وفومستوف (ابن الأخ)، وقبلهم مات كورميكن العجوز خفياً على يد سرّاء الناس. وانتهى حال فومستوف وبيليتسكي - اللذان أصبحا لبعضهما ألدّ عدوين - في وثّانة مشتركة شاركها فيها الثوري (بيرتيف)، والذي ساعده على الهرب لاحقاً البتر مانيلوف - اليد اليمنى لراسبوتين لستين غديدة - ثم أعدمه البلاشفة مع الأمير اندرونيكوف. وهذا وزير الحرب السابق بوليفاتوف والجنرال بروسيلوف - الذي أوْشك على الانتصار في الحرب عام ١٩١٦ - بلشقيين. وهزئت الكثير من الشخصيات القيادية في هذه القصة للعيش في كنف الدول الأخرى ومنهم رودزيانكو الذي توفي مدقعا في سيبيريا عام ١٩٢٤ والإمبراطورة (دواجر)، والددة الشزار، التي عاشت في بريطانيا لفترة ماء. ومات يوريشكيش اثر اصابته بعرض التيفوئيد وهو يقاتل مع الجيش الأبيض في جنوب روسيا وكتب هو الآخر، شأنه في ذلك شأن يوسف، كتابا عن مقتل راسبوتين.

ربما كان يوسف هو الناجي الوحيد في هذه المأساة وظل على قيد الحياة دهرأ. وقد ثبت حقه في لقب «قاتل راسبوتين» في محكمة امريكية عندما قاضى يوسف فريق عمل في فيلم عن حياة راسبوتين، حيث صور الفيلم راسبوتين باعتصاف زوجة امير فقتله الأمير انتقاما لشرفه ولم يكن هذا «الأمير» يوسف اطلاقا، الا أن يوسف زعم في المحاكمة أن العالم عرفه قاتل راسبوتين وأن الفيلم لم يكن الا تشهيراً به فكسب القضية وجنى مالا وفيراً.

لم يدع البلاشفة جثة راسبوتين واقعة في الساحة الملكية فنيشوا الفير وأحرقوا الكفن في محرقة كبيرة وقبل لذلك أن الجسد قد عانى من شدة عناصر الطبيعة من الماء والتراب والنار والهواء.